الطبعة التاسعة

عبده خال

فسوق



رواية

دار الساقي

فسوق

صدر للكاتب عن «دار الساقي»

الطين (رواية)

مدن تأكل العشب (رواية)

العنوان الإلكتروني للكاتب: abdookhal@yahoo.com

تصميم الغلاف: أوريدا منيمنة

عبده خال

فســـوق

روايــــة



الطبعة الأولى 2005
الطبعة التاسعة 2013

ISBN 978- 1- 85516- 785- 8

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.
ص.ب.: 113/5342. الرمز البريدي: 2033 - 6114

هاتف: 866442 -1 -961+، فاكس: 866443 -1 -961+

e- mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

إلى هاشم الجحدلي: نقف معاً
في مكان رثّ لنستنشق هواءً فاسداً

(١)

- هربت من قبرها!

وجد أهل الحي هذه الجملة قريبة من أفواههم لتسعفهم في ترتيب أقاويل ملائمة لما حدث، ولتؤكد السيرة السيئة التي تحلت بها الميتة الشابة.

كانت على موعد مع قَدَرها، فحين أغلقت كل الطرقات أمام حبها بحثت عن قبر لتهرب منه إلى الحياة... في أيامها الأخيرة خدَّرت من حولها، وأقنعتهم بهجرتها حياةَ العشق والهيام إلى حياة التنسك والعبادة، ولم يشك أحد في أنها تتهيأ لهذه الميتة المصطنعة.

نُعتت بعد موتها بأوصاف لا تليق بعاهر، وكلُّ ناعت جَدَّ في البحث في سيرتها عما يدلل به على صدق نعته. لم تكن لدى أحد منهم بيِّنة تحمل صدق الشمس، لكن الأقاويل تحتاج إلى مفاتيح احتياطية مزورة.

تحمل الأوراق روائح من تتحدث عنهم، حتى وإن كانت روائحَ اصطناعية، فالورق يحمل نية الكاتب الأول، كما الحلم يحمل الحقيقة... ولا يحملها.

استللتُ من ملف قضيتها أوراقها السرية، أو رسائلها العاطفية التي خبأتها في مكان مكشوف من غرفتها المتواضعة، ولسوء الحظ قرأت رسالة فضائحية لا تحمل تاريخاً محدداً، كانت بها جملة عارية جعلتني أقف منها موقفاً عدائياً مبكراً:

- تريدني أمي أن أتركك واصطحاب فتاة لأسكت نهمي إن فار على جرف فخذي!

ها أنا أقف على جيفة جديدة في هذا البلد الذي يتحلل، كجثة سُممت بسم تفشى في كل الجسد دفعة واحدة، بعد أن ظل كامناً في خلاياها لزمن طويل، مختبئاً بين العصب والعظم، لكنه أسرع بإكمال مهمته قبل الأوان وبصورة عشوائية مدمرة...

ربما تكون الجملة السابقة متناقضة، لكن التناقض سمة جوهرية في الحياة. فلولا التناقض لما احتجنا إلى تنسيق كل الأشياء التي حولنا. نحن نقوم بالتنسيق كي نخلق حياة افتراضية نثبتها بتنسيق يبقينا في مواقعنا كي لا نتوه في غابة التناقضات...

لا أثر للجثة، وثمة وقائع عديدة تشير إلى الهرب...

كان هروباً مدوّياً؛ لم تقتصر أبخرته المتصاعدة على أفواه قاطني الحي، ففي جريانه وجد منفذاً يتسلل منه إلى صفحات الجرائد، وفاح منها ليعم أرجاء البلاد. ووجدت الصحافة فيه ملاذاً لتحرير صفحات ميتة، حاولت إنعاشها بتعقُّب قضايا اجتماعية استفحلت، وغارت لتتحول مواقعها إلى بؤر لتصريف نتن جرى بيننا بسرية تامة.

لم يُستكمل العزاء، ففي اليوم الثاني مباشرة، فاح خبر هروبها من القبر بجملة أطلقها حسين الغريبي:

- فعلتها جليلة وهربت.

جملة انتشرت كحريق شَبَّ في مخزن إسفنج، ليخرج الجميع لمشاهدة اللهب المتصاعد من سترة سيرتها الإسفنجية.

اختفى أخوتها الثلاثة من شوارع الحي، وجلسوا يُزيلون خزياً عفَّر جباههم.

اجتمع ثلاثتهم داخل غرفة ضيقة في منزلهم الصغير، يأكلون غضبهم، ويتجرعون حيرتهم في آن. وإذا اضطر أحدهم إلى مغادرة تلك الغرفة للتبضع، أو جلب احتياج طارئ، اصطدم بأحد الوجوه المبدية أسفها ظاهرياً، بينما أعماقها تموج بتحقير متعمد:

- ألم تعد أختك؟

كسرتهم فعلتها، وأبقتهم في خدرها الذي طالما قنتت فيه.

لم يَدُر بخلدهم أنها كانت تهيئ مجزرة لتعلقهم من عراقيبهم في خشباتها المنفرجة. علق أهل الحي كل واحد منهم، وقطعوا ما يشتهون منه. أبقوهم خرافاً تجتث الشفار أحشاءهم من غير أن يقدروا على استعادة ثغائهم، أو استواء أعناقهم.

شلت أيديهم وتعطلت عن فعل أي شيء، فأبقوا على دم غضبهم يتقطر على صورة قديمة «بالأبيض والأسود» جمعتهم أطفالاً مرتدين ملابسَ العيد، والفرحة تتقافز من وجوههم. شعرها الكستنائي الكثيف التهم جزءاً من جبهة أخيها الأصغر في هبة ريح اقتنصتها الكاميرا. الصورة أُخذت قبل سنوات طويلة، كأول صورة تجمعهم في حيهم الجديد المنتقلين إليه حديثاً، امتد خلفهم الشارع الفرعي فاقتنصت الكاميرا جوانبه. ظهر سور

المقبرة ممتداً إلى ما لا نهاية، وثمة شخوص من أبناء الحي استجابوا لإغراء الظهور فتناثروا في خلفية الصورة. وضح وجها: شفيق الميت، وعبد السلام كيال. كانا يقفان في الجانب الأقرب إلى أخيها الأوسط، وبقية الشخوص غامت ملامحهم. وحين تستدعيهم الذكريات لتحديد من وقف خلف الصورة، يستجلبون أسماء سكنت ذاكرة طفولتهم المبكرة. تناول زهير (الأخ الأكبر) بقصدية متعمَّدة الصورة وقطع عنق أخته جليلة مبقيا على هيكلها الناحل تتدلى منه من غير رقبة، يدان مسدلتان. تمسك بيمينها قبعة صنعت من الدنتيل مطرزة بورود قطنية، ومنتهية بأشرطة لولبية، حصلت عليها من عمتها زينب كهدية تقف خلفها محبة متقدمة على بقية بنات العائلة المتفرعة.

خزي مرّغ اعتدادهم، ودفع بهم إلى الانزواء كمرضى الجذام، يوارون أوصالهم التي خسروها في معركة لم يرفعوا فيها سيفاً. ومع كل يوم يمضي يتأكد هربها، وتزداد وجوههم حلكة وغليانا كجهنم المنتظرة نزلاءَها منذ الأزل. وقد ساء أمهم كثيراً عكوفهم داخل تلك الغرفة الضيقة الخانقة:

- كانت طاهرة كالماء، فلا تجعلوا الأقاويل تعكر صورتها النقية.

أشاح زهير بوجهه عنها:

- حين ينساب الماء إلى البيارات يغدو نجساً، وابنتك أدخلتنا القاذورات.

قضمت على شفتيها متحسرة، وعركت عينَها اليسرى بمنديل اتسخت أطرافه، وغمغمت بكلمات انحشرت بين فكيها،

فأخذت تعالج خروج حروفها بنهنهة لم تُسعفها في استقامة جملها الممزقة. كان وجهها مغضّناً كجلد ماعز هُيِّئ للدباغة، وبقي مغموراً في سائل دبق إلى وقت طويل. تنزلق دموعها كقطرات الماء على حواف السطوح الملساء، تجففها كل حين بمنديلها المتسخ من طول الاستعمال. تحوم داخل الدار مسفهة يقين أبنائها من هروب ابنتها من القبر، وحين تيأس من استعادة فخرهم بها، تحمل جذعها السمين، ودموعها الضحلة، وتأوي إلى جوار زوجها الملجوم بحيرته، وسفالة من يواسيه. كلهم جاؤوا لسرقة دمع عينيه - كما يقول - غدا بيتهم مزاراً من قبل من يعرفه، ومن لا يعرفه، والكل يسأل:

- هل عرفْتَ مع من هربت؟

في البدء كان يشقق وجوههم بصراخه:

- كيف لميت أن يهرب!

ومع التأكيدات التي تهب عليه من كل الجهات، أذعن لخبر هروبها، وبات يشارك أبناءه ابتلاعَ جمرات الغضب، ضارباً فخذه بيده متحرقاً:

- من يوصلني إلى رقبتها؟

(٢)

- من يوصلني إلى رقبتها؟

تهديد رَكَدَ في مخيلته كبقعة دم يابس وقديم.

تحت شجرة سترت منزلها كرداء يمنيّ لُفَّ حول الكتف والخاصرة معاً، انبثقت صرخة أفزعت غبشاً تجمع في حضن عاشقين لم يملأ من مناجاتهما بعدُ، فارتبك الكون قليلاً، وتنافرت العصافير من أوكارها على حين غرّة، تاركة مواقعَها إلى روح عرجت إلى سماء مغلقة وهوت، فلم تجد مكاناً قابلاً لاستقبال جسدها، فتتشبث بأغصان شجرة سدر أخضرَّ جذعها بعد موات، وتدلَّت كأغنية شجية مثيرةً الشجن والآهات؛ شجرة تفرعت أغصانها متمخضة عن ظل يتسع لأن يكون فيئاً لجميع أبناء الحي في الظهاري المشمسة الحارقة.

صرخة عميقة لم تستكمل نموها لإيقاظ النوافذ السادرة في سباتها. وقع الجسد بين يدين: يد حاضنة ويد طاعنة. .لم يكن القاتل قادراً على البقاء لرؤية بقية الدم الذي أراقه. وكان العاشق فَزعاً. فتخلى الاثنان عن بدن بحث عمن يسنده، فلم يجد إلا أرضَاً صلدة يهوي عليها باحثاً عن دمه.

ألفت العصافير المكوث بين أغصان هذه الشجرة، من غير أن تمدَّ جناحيها في رفيف معكر، خشية من يد قابضة، أو حجر طائش، تطوف حولها كعقارب ساعة تعرف تماماً متى تُفرد جناحيها وتحلّق بعيداً عن فروعها.

يقولون: من يجلس تحت شجرة السدر فجراً، يُصَب بحرقة العشق، فتنتهِ حاله كانتهاء جليلة. حرص أهالي الحي على الابتعاد عن أغصانها من طلوع الفجر حتى الضحى. بعد هذا الوقت تحديداً يتسابق إلى ظلالها الباعة، والعاطلون، والصبية والعشاق معاً... ويعللون مجيئهم (في هذا الوقت) بأن روح جليلة ستعرِّج للسماء حاملة أماني من أودعها أمنيته.

يحدث كل شيء تحت ذلك الظل، فمن يجد لنفسه مكاناً هناك، فعليه أن يتخلص من أدران الحقد والبغض ويشف كماء تبخر. هذه هي الوصية الأساسية لمن رغب في تحقيق أمنيته، كي ترفَّ روحها خفيفة، لتقف بكل حمولتها على أبواب السماء العليا.. وتتوزع الوصايا فيما غير ذلك: لا تمتد يد لقطف ورقة، أو كسر غصن، أو انتزاع ثمرة، ولا تسابق لجني ثمرها. وقال العارفون: حين تثمر ستطفح ثمارها وتهمي على مريديها كما تهمي الغيوم في الاماكن الجرداء والمخضرَّة.

يصفون ثمارها بحلوة المذاق، وأن بها غواية التفاحة الأولى. وأول من لاك ثمرتها قال من غير تحرز:

- كأنها من ثمار الجنة!

وحين لاكها مَن جاء بعده لم يجد وصفاً يتطابق مع حلاوتها سوى إعادة الجملة نفسها:

- كأنها من ثمار الجنة!

ويستطعمون ثمارها بنيّاتٍ شتى: نية الزواج، ونية الشفاء، ونية الرزق، وبعضهم يصر ثمارها ويهديه للبعيدين ممن أيقن ببركتها.

غدا مكاناً مقدساً يؤمه القاصي والداني طلباً لحاجة أو تسير حياة ضنينة في توزيع أحلامها. وسمِّي الحي بحي (شجرة جليلة)، ومع الأيام اختُصر إلى حي جليلة.

نبتت شجرة مباركة، على دم امرأة نُحرت في غبش تباطأ، ففوت شروق شمس، كان لها أن تكشف وجه ذلك القاتل الذي أجهز على ضحيته ومضى، مخبأً في أزقة حي، لم يفق من نومه إلا متأخراً. . .

أحداث دامسة، تخمرت نواياها في صدور مغلقة، وحين خرجت، سال الدم، ولم يستدلَّ أحد على من ثقب ذلك القلب. . .

وفي حين كانت العصافير تفر من شجرة السدر الملاصقة لجدار منزلهم، كان الغبش ضريراً لم يمسك بقاتلها. وكان الدم ملبداً تخثر في جريانه مبتعداً عن منبعه، بما يكفل له أن يثير فزع الرائي، لرؤية جثة نُحرت بغير استواء. .

جُزَّت رقبة من حنجرتها جزاً بليغاً، مكّن الروح من الاندلاق من غير تريث في مجرى سرمدي لامتناهٍ. وحين وجدت أن السماء مغلقة، هوت لتجد جسدها قد رُدم بتربة رطبة، فلم تجد مناصاً من أن تتعلق بأغصان شجرة السدر الساندة منزلهم الآيل إلى السقوط، وارتضت أن تقطن بين أوراقها وأغصانها الملتفّة.

ومن هنِاك فاحت سيرتها. تنعتها الأفواه مرة بالفاسقة، ومرة بالطاهرة.

أطل في غبش من على حافة الليل كأغاني البلابل المخمورة، تراقصت معه حكاية كانت مخبأة في صرة الأيام، تبعثرت تماماً. ومع بعثرتها، تمزق جراب الحكاية. ولم يبق منها سوى دم سال من جانب حنجرة، ذكِّيت كما تذكّى الشياه النافقة.

تعثرت أقدام المصلين بجسدها، من غير أن يتنبهوا إلى أن روحاً زهقت قبل أن ينهضوا من مراقدهم. ظنوا في البدء أن كلباً مات، أو حماراً تخلى عن حمولته وقرر الرحيل، كما يليق بحمار ملَّ من النعوت المعلقة برقبته كأجراس لا تهدأ؛ أو أن ثوراً نفق في حظيرة البريكي، فجذب جثة للشارع كعادته، حين تنفق حيواناته المريضة. تبادر إلى ذهنهم أن الجسد الملقى هو لحيوان. ولم يدُر في خلدهم أن هذا الجسد سيحيل ليلَهم إلى سهر دائم بحثاً عمن جز رقبته جزّاً بليغاً.

ومع إفصاح النهار عن حضوره، اكتشفوا جثة أُمسكت على رأسها من جهة الرقبة، وشُقَّ بلعومها شقاً سيئاً، لإخراج روحها دفعة واحدة.

ألقوا عليها شالاتهم. وتجمعوا حولها، كقطط لا تعرف سوى المواء، واستجداء الجسد لأن ينهض من رقدته المتخثرة. كان دمها حبلاً طويلاً تعرّج في كل الأزقة بحثاً عن قاتلها. وحين تباطأ في جريانه، أوصلوا جثمانها إلى قبر غائر. ونثروا أخبار فسوقها في جنبات الحي.

في الليل وحين يأوي كل شيء لسكونه، تنوح من أغصان الشجرة:

يا قاتلي. . . يا قاتلي

لشكيك لرب العباد

يبليك بليل ماله رقاد

ونهار ماله قعاد. . .

بدأ هذا النواح كالهمس يُلقى في روع الأفئدة. كل من سمعه ظن أنه مقصود بالدعاء، فينفض فراشه ويخرج إلى الشارع يقوده خيطٌ من ترنُّمات صوت تباطأ وخفت حتى كاد لا يُسمع.

في أول ليلة لهذا الصوت، اجتمع تحت الشجرة عشرة رجال. خشي كلٌّ منهم أن يكون المعنيَّ بذلك الوعيد، فتنافروا كالغربان التي جاءت في غير موعدها لنقم بقايا لحم فاسد. وحين امتد أنين الشكوى، تنادى الناس للوقوف على مصدر ذلك الصوت الخافت من بين أغصان الشجرة. كان العدد يزداد كلَّ ليلة كثافةً: صبياناً ورجالاً وشيوخاً ونساء.

قلب هذا النواحُ سيرةَ العاشقة، وأحال مقتلها إلى استلهام للحكايات المقدسة. تبرأ كثير من أهل الحي من مقولاتهم السابقة، منزِّهين المقتولةَ من نواياهم السوداء. وبالغ بعضُهم في تقديسها، مقرناً وممثلاً سيرتَها بسير القديسات والقانتات من عباد الله. هكذا تأتي الأساطير: حكاية ملتبسة، يكتنفها الغموض، وتختلط بمشاعر ملتهبة فلا تجد إلا استعارة جذرها الأسطوري الأول.

كانت ليلى حسين أول من تبنى طاهرة المقتولة. رأت في المنام طيف جليلة يحوم حولها، وتدس في بطنها جنيهاً ذهبياً،

وهي تقول لها: سأحرم كلَّ من يلوك سيرتي من هذا الجنيه.
كان لهذا الحلم أن يمضي كبقية الأحلام المشفرة، إلا أن رحم ليلى حسين المتيبس حل به جنين بعد يأس بالرغم من إغراق أرضها بماء شبه يومي. وما إن أخبرها الطبيب بتحرك أحشائها بمضغة مضى على تواجدها شهرين، حتى تعلقت برقبة زوجها جذلةً وسرَّبت إلى جميع جاراتها خبر رؤية جليلة في المنام والجنيه الذهبي، ولم تنس بقية الحلم بتوعد حلول العذاب لمن يسيء الظن بالقتيلة!!

بدأ أهل الحي يتربصون بما يحدث في حيِّهم من تغيرات على أنه العذاب: احتباس المطر؛ ووخم صهاريج المياه؛ والحرائق التي شبت في أطراف الحي؛ وسقوط أجنَّة بعض من تناولْنَها بألسنتهن؛ ومداهمة اللصوص المنازل المجاورة بيتها. وفطن أهل الحي أن كل هذه الإشارات إشارات ماحقة، ما لم يتمَّ الاقتصاص لروحها التي خرجت لتنتقم من الجميع...

غدا أهل الحي يتربصون أيّاً منهم قتل الطاهرة، ليقتصوا منه قبل أن يطالهم العذاب. ومن أراد أن ينفي علاقته بذلك التهديد الذي يخرج من أغصان شجرة السدر، هرب في نوم ثقيل وممتد.

بعد شهرين من ذلك النوح، وجدوا أخاها لا ينام الليل ولا يتوقف عن السير نهاراً. وإذا وقف، استظل تحت شجرة السدر، فتصيبه رعدة كالمس الكهربائي ويسقط كعجل نُحر بغير استواء.

يسير مهدِّداً:

- من يوصلني إلى رقبتها.

لم يستطع الهروب من دمها كثيراً. فأقبل مهرولاً حاملاً فأساً مسنونة، وهوى بها على جذع الشجرة، يدمدم بكلام معجون انتهى بصراخ هستيري:

- هي التي بقيت...

فأمسك به، ليتدحرج رأسه في ساحة القصاص ككرة شراب تالف. لم يبق منه سوى ابنه يوسف، الذي احتار في حمل عارين: عار أبيه، وعار عمته.

(٣)

في زمن الأحلام المُرة، لا نتذكر إلا الماضي. . .

في أول ليلة على دفنها، جلس في صدر المجلس كلوح فصلٍ دراسي سيّئ الاستواء، فمه فاغر عن آهة ضخمة، انتهت بقضمِ شفته السفلى متحسراً على فقدانها:

- قتلتني يا جليلة!

حين كان المعزّون، والشامتون، والمستفسرون، يقفون في مواجهته لا يلمحهم تماماً، شخوصاً يتحركون خلف ساتر ضبابي في ليل مطير، كتلك الأخيلة التي تتآخى مع السراب فتكتسب صفته.

عيناه زائغتان، تحاولان دفع انهمار دمعٍ تحجّر منذ تلك الليلة. وتحولت أذناه إلى عقربي ساعة مهمتهمَا الدوران لاجتياز برحة الوقت، غير معنيتين بالتوقف للحظة واحدة لتدبر أقوال وأحداث، غدت مهمتها المقدسة، قطع تلك المسافة الدائرية التي لاتنتهي من رحلتها العبثية.

تعود عقارب الزمن إلى مواقعها، ليس للتدليل على أنها كانت هنا، بل لتسترجع ما حدث في كل موقع على حدة. ملايين

من الأحداث تنسخها يومياً على قرص ممغنط لا بدَّ من أن يُقرأ يوماً ما!

تذكّر جلستُ تلك، الكبارَ منهم، بجلسته القديمة، حين التقى القاتل والعاشق تحت فيء تلك السدرة. كل منهما يعرف صاحبه، ومنشغل عنه بتفادي عربة جنون، تجتاح جمجمتيهما معاً بسرعة وعشوائية.

كانا يجلسان معاً، يريد أحدهما إخمادَ نواح الشجرة، ويبحث الآخر عن مغفرة لتخاذله عن إسعاف قلب عشقه. وحين قُطع رأس أبي يوسف، بقي محسن الوهيب وحيداً يحاول تفادي عربة جنون تحاول اختراق جمجمته من منافذ شتى.

تيقَّنت أسرته من عطبه المبكِّر. لم يعد يفعل شيئاً سوى المكوثِ أسفلَ تلك الشجرة كظلٍ لا يزول، وترديد الكسرات في هوى تأجج، وغدا ناراً تذيب أجفانه حسرةً على حبيبة، لم يقدر على اختطافها من موت عبثي.

انبرى جسده، وبقيت عظامه مترابطة بعصب نفرَ من كل جزء في جسده، تعبره الأقدام والعيون، كمسمار دُقَّ في جذع شجرة ألفت مكانه، كما تألف انحناءات شارع تعبره الأقدام يومياً، يتهلهل كأوراق شجر يابس وهش. وقبل أن يتلاشى، استجاب ذووه لعابر سبيل، أوصاهم أن يتركوه في صحن الكعبة بين حمام الحرم، وأن يُغسل في كل يوم بماء زمزم، علّه يعود إلى رشده.

لم يكن يجرؤ على الإفصاح لكائن من كان: كيف تركها تموت وهي بين أحضانه. وكلما تذكر كيف دفعها إلى قاتلها، ارتعد كارتعاد إبريق فارَ حتى ملَّت منه نار مستعرة. . .

بعد سنين طويلة، وصف نفسه بالخِسَّة، لصديقِ عمرهِ مالك الدميني. وتدفق كسيل ضلَّ الطريق، واستنجد من غير هدى بزبده كي يعيده إلى مجراه:

- قتلتْني جليلة.

يخرج في الليالي المظلمة للقائها. ويعدها في كل لقاء بأن يطلبها من أخيها. ولم يكن الأخ ليفيقَ من شروده، فقد غرق في خيانة زوجته.

قررا في تلك الليلة أن يذهبا إلى شيخ الحارة، ناثرَيْن عشقَهما بين يديه، طالبَيْن منه أن يقودهما إلى المحكمة أو أن ينظم هذه اللوعة بمعرفته. كان حذرهما من أن يقفا على أبواب المحكمة من غير ولي. لذلك اختارا العمدة، وقبل أن يكملا قرارهما الأخير، لم يحتاطا جيداً من تحرك ضغينة أخيها على زوجته الخائنة، فبكر بالاقتصاص منها...

نسيا نفسيهما في ليل لم يهتما برحيله. فتنفس الصباح بروحها. خرج عليهما حاملاً شفرته التي اجتثت عشرات المخدات، في تدريب متواصل لاجتثاث أحشاء امرأة هربت من رائحته، مع عشيق لا يعرف لونه أو طعمه. وحين رأى أخته تذوب هياماً بعشيق آخر، لم تمكنه ضغينته من اختيار خصمه جيداً. كان مهزوماً من الداخل. جذب جديلتها ومرر شفرته على نحرها متهيجاً:

- أيتها العاهرة، سأبدأ بك لأصل إليها.

لم يقف العاشق لرؤية عينيها قبل أن تغمضا تماماً. ولم يقف القاتل لاسترداد شهقة لم تدر بأي منهما تمسك. وتراكض

القاتل والعشيق في الطرقات يبحثان عمن يخفيهما من عينين حملتهما لآخرتها وهي متحيرة أيهما خانها...

التقى أبو يوسف ومحسن الوهيب تحت ظل شجرة السدر يبحثان عنها؛ يبحث أحدهما عنها لاستعادتها، والآخر لإخماد شكواها...

* * *

حين سال دم القاتل في ساحة القصاص، كان العاشق يسفح دموعه لنضوب صوتها ومغادرته المكان، فقدها تماماً. وتعافت ضمائر أهل الحي من مقتلها. لم يبق من جليلة سوى تقديس مضمر، وخطوات زائرين لشجرة السدر. وجدوا عاشقاً حبيساً ظلها، يتمتم باسمها كل حين. نحُل كقلم حُتَّ من كل الجهات. براه العشق تماماً. وحين أيقن اهله من عطبه، استجابوا لنصيحة عابر سبيل (الذي قيل أنه النبي الخضر):

- اذهبوا به إلى مكة...

أهمل أهله نصيحة عابر السبيل لبعض الوقت، وتركوه أسفل الشجرة، علَّ دعوة تنجيه، أو موت يفنيه.

لقَّبه أهل الحي بالولهان، أو العاشق الذي تخلى عن حبيبته في ليلة قتلها. وألِفوا سماع قصائده الذابلة الميتة، التي لم تقرب تعاطفهم إليه. يجلس صامتاً جامداً كصنم لم يُرمَّم بإتقان. يسند ظهره إلى جذع الشجرة، وخيط متقطع من الدمع يغذي وجنتيه. وأذنان جائلتان كعقربي ساعة تمضيان في برحة الوقت غير مكترثتين بكل المقولات التي تُسكب بالقرب منه. يجلس ساكناً كريحٍ حبُس في رئة ميتة.

رقَّ له قلب عمه. فلام أباه وأخوته على إهماله. وفي ضحى يوم قائض، حُمِل إلى الحرم وقُذف هناك، فتعلق بستائر الكعبة لأيام طويلة، وعاش مع حمام الحرم. كان يجتث كل يوم شيئاً من صَدره ويوزعه على أجنحة الحمام الملتف حوله. يؤدي هذه الحركة المسرحية يومياً تحت مزراب الكعبة، داعيا اللّه أن يطير عشقه من بين جوانحه كالحمام المحلِّق على بيته، وأن يمحوَ عشقه لجليلة كما يمحو خطايا الطائفين بحرمه.

ولم يعد من مكةَ إلاّ متزوجاً ووديعاً، كحمام الحرم المكيِّ، يرف بجناحيه في كل مكان بدعة واستسلام. وانشغل بتكوّرات بطن زوجته مراراً، وكل ثمرة تطرحها، لا تأتي له بما يحب. وفي تكوّر بطنها الأخير، كانت طفلته جليلة، سلوته التي يردد اسمها، كما يردد الأدعية الجالبة للاطمئنان والفرح.

هاهي الأدوار تتجسد مرة أخرى. هروب امرأة مع عشيقها، ورجل يبحث عنها ليغسل شرفه بالدم... ربما كان في جلسته الصنمية تلك، يفكر بالقصاص العادل. هروب الزوجة كهروب الابنة؛ كلاهما عار يجب التخلص منه بالدم.. قال جملة أفشت شيئاً مما هو فيه. هكذا صرخ فجأة:

- ليرحمك اللّه يا أبا يوسف!!

جلس في اليوم التالي على هربها، كمن مسّته العدوى، عدوى شبيهة تماماً بمرض أبي يوسف، حيث كانت عربة الجنون تبحث عن منفذ صغير لتخترق جمجمته. يجلس سارحاً عن الدنيا. يضرب فخذه من غير إرادة مردداً:

- من يوصلني إلى رقبتها...

* * *

في تلك الليلة فر من صدر فتاةٍ شوقٌ مبرح، فخرجت لتوليف عصفورين حبسهما فراق مضنٍ. هي التي فتحت قفص صدرها، وأسلمته كل التفاصيل التي كانت تنتظرها مقابل هذا الخروج. وقبل أن يطمئنها ويودعها شيخ الحارة، شخب الدم من حنجرتها. وكان أجبن من ان يفديها بروحه.

تتكرر الحياة كاللحن المسروق. جمل لحنية من هنا وهناك، تعيد إلى الذاكرة سيرة اللحن الأول.

ها هو يجلس اليوم في غرفته، والدم نفسه يسيل من مخيلته، ويتنقل بين جملتين. فحين ينكسر يردد: «قتلتني يا جليلة».

وإذا طفح الدم من مخيلته، يأخذ في الهذيان صارخاً:

- من يوصلني إلى رقبتها.

(٤)

جليلة.

اسم يحمل نقيضه تماماً.

كانت مثقباً ثَقَبَ صدرَه مرتين، فحينما يتذكر جليلة (العشيقة) يسيل حزنه، وحين يتذكر الابنة يتسع ثقب صدره بآهة تسد المدى.

وكانت جليلة في الحالتين ركعةً لم تتمَّ كما يجب.

في طفولته قالت مرضعته:

- محسن ينهش حلمتي نهشاً، وهذا فأل سيئ!

لامتها أمه على قولها، وحوّطت ابنها بأسماء اللّه الحسنى من فأل مرضعته. وحين قذف أسفل شجرة السدر، تذكرت أمه حنكه غير المستوي الذي بشر بطالعه السيئ.

ثقب القدر صدره في تلك الليلة، يذكرها جيداً:

في ليلة ماتت نجومها، خرجت من منزلها، لترطب شوقاً تيبس بين ضلوعها، فآلمها وخزه. وقبل أن تتطبب منه، خاتلتها شفرة ذات نصل رهيف ونافذ. جز عنقها بسهولة الإيغال في

الماء. وأخرج من جسدها كل لوعتها. شفرة كانت تُسنُّ لسواها، ومع خروجها، قدرت لها وتركتها جثة هامدة، تجر خلفها كوارث متتالية.

تحولت جليلة إلى جرح مكرر في حياة محسن الوهيب. تركها مرة تُجَزُّ رقبتُها، ولم يكن له من جدوى سوى تعليق اسمها على شجرة وارفة الظلال. وحين غادر ظلَّ تلك الشجرة، أنبتها كعشق في رحم امرأة اختارته وهو مغطى بالحمام المكي.

أراد بتكرار الاسم استرجاع حبيبته، من موت مضى بها بعيداً. فسمى ابنته بها. ليعود اسم جليلة دالاً على الرذيلة.

كانت السنون قد أكلت جسده وروحه معاً. فلم يعد قادراً على البكاء المرتوي، كما فعل مع جليلة العشيقة. وهروب جليلة الإبنة، أحرق سيرته، وجعله يبحث عما يستر به وجهه من رذاذ الأفواه المفتوحة على الدوام.

ظل ليومين داخل منزله، يتذور حرقة وغضباً، تصله الشماتة إلى غرفة نومه:

- كل شي سلف ودين حتى دمعة العين!!

من عمق أيام توارت وذبلت أوراقها تحت هرس أشعة زمن يسارع الخطى، يستنجد به صوتها الحاني، فيلوذ بالفرار...

- أنت دنيتي وآخرتي...

ذهبت إلى آخرتها في رحلة لم تخترها (كانت كجليلة الابنة أقرب إلى الحياة من الممات). لكن البحار لا تختار موتاها. نشأت يتيمة الأبوين من وقت مبكر. فتعهدها شقيقها. كان رجلاً

مفتوناً بالغد كثيراً. يحمل طموحه فوق ظهره كحمار معاف. ولم يكن ملتفتاً إلى أي شيء يجعل طموحه يزيغ في الدروب المنحنية. كان هذا قبل أن يرتبط بزوجة، لم تر فيه سوى سلة، تحمل فيها خبزها الذي ترغب في توزيعه لمن يريد. فتراجع عن طموحه كثيراً، وغدا يبحث في سلتها عن الخبز الذي حرمته منه. وذبل سريعاً كزهرات الليمون التي تُسقى بمياه مالحة وقذرة في آن. وتهاوى من عليائه كحجر تراجع عن ثباته. تأكد من خيانة زوجته له وهروبها مع عشيقها، متحللة منه كما يليق بالخيانة الكاملة. اغتسلت منه تماماً. وتركت له طفلاً يبحث عن أثداء يتلمظ حلمتيها. فاحتار بين إخماد أنفاسه وبين البحث عنها ليذيقها ألمه ومرارة ما تجرعه. يحلم ليلياً بقتلها، يضع أمامه طفلاً ووسادة، مجرباً انزلاق شفرته بين أحشاء لبد الوسادة، وبين بكاء طفل يؤلمه اجتراح جلده بسن شفرة حادة لا تفرق بين لحم ولبد...

لم يكن أحد يعرف خيانة زوجته له، لكن فعله اليومي، وهذيانه المرتفع المخلوط بصياح الطفل، أرشد الجيران إلى بداية جنون خدش عقله. فتركه هائماً بين الهذيان والبحث عن وسيلة تفرغ حقده برؤية دم امرأة يُسكب...

يظل طوال الليل مجاوراً لوسادة نبش قطنها، وطفل مل من الصراخ، فأخذ يتلهى بهمهمة مجنون مستحدث. وحين يتعب كل منهما من صوت الآخر يغطان في نوم عميق.

لم تقدر على سحب الطفل من غرفة أخيها، محاولة وحيدة جعلتها تكف عن بقية المحاولات. لاطفته وجذبت الطفل المجاور للوسادة المبثوثة، فتلقت ضربة عنيفة على صدرها، وانغرست الشفرة في ظهرها:

- أحذرك، سيكون آخر نفس لك لو حملته إلى خارج هذه الغرفة. . .

لم تستطع الاستنجاد بأحد، فتآخت مع هذيانه كتآخي سمكة مفتتة مع صدأ علبة سردين. أَلِفَتْ كل شيء: عزوفه عن العمل، تهيجاته الدائمة، سماع صراخ الطفل، وتهديداته التي لا تنتهي.

تعرف نومهما من شخير أخيها، وتقطُّع نشيج الطفل، فتمد جسدها إلى خارج البيت، ترطب كمدها بلقائه، منزوية وساترة جسدها بالتفاف اغصان شجرة لبلاب، تمددت والتقت في صحبة طارئة مع اغصان شجرة سدر عتيقة، فتجده قابعاً بانزواء مماثل في انتظارها. .يمنحها شيئاً من الهدوء والوعود بأن يهربها من عين أخيها قبل أن يجن.

حين انتدبتها الأقدار لأن تكون هي الدم المسفوك، تخلت عن حذرها تماماً. كانت كسمكة لا تنظر إلى الأعلى، أو كطبيب أجبر على الكشف عن مريضه بيدين عاريتين.

انقطع الشخير فجأة. في تلك الليلة نهض صاحبه باحثاً عن شربة ماء، تطري حلقاً تيبس من دهس الكلمات الجافة والغليظة، فلمح الباب الخارجي مفتوحاً. كأنه كان ينتظر هذا الموعد ليستعيد توازنه. هرع إلى شفرته، بعد ذلك كانت المهمة سهلة للغاية، جز وريد الرقبة فقط.

- كل شيء سلف ودين حتى دمعة العين. . .

هربها أشبه بصفعة لم يكن موقناً أنه سيتلقاها في هذا العمر تحديداً.

عندما حُمِل نعشها، بلغ نشيجه ذروته. فاعترض سير الجنازة آمرا المشيعين بإنزال نعشها، وحل كفنها. أخذ يتشمم نحرها، ومفرق رأسها. وارتمى على صدرها وأجهش ببكاء طفولي عنيد. لم يوافقه أحد على فعله. فسحبوه من أمام النعش، وكان ممسكاً بالجثة، فتحركت عن موضعها، ومال رأسها خارج النعش، مظهراً جمالاً عذباً حوط بشعر لم تحسن المكفنة جدله جيداً، فتصايح المشيعون بالتسبيح. فسارع إخوتها الثلاثة لإعادته إلى موضعه، والسير إلى المقبرة حثيثاً.

لم يكن متيقناً من أنها افتعلت الموت لتهرب من قبرها. وكان وقوفه للتبليغ عن هربها غير مقنع. فقد تأرجح بين اليقين والشك.

(٥)

كُلِّفت بهذه القضية، وكان عليّ تلبية الأمر كجندي عليه أن يذهب إلى ساحة المعركة من غير سلاح!!

لم أستجب مباشرة لاستدعائه، حفّزه استبطائي لإرسال جنديين الواحد تلو الآخر لاستعجالي في الوقوف بين يديه. ترددت في شد قامتي وإلقاء التحية العسكرية. حين دلفت مكتبه الفاخر، لمحته كأمبراطور عبثت كل الرعية بكرسيه. فتمرغ وجهه بالخزي الفاضح. وغرق فيه كما تغرق صبية في حيضها الأول، حيث لم تكن قادرة على مباعدة فخذيها من غير أن تضع يدها على وجهها. فاقتعدت زاوية مظلمة من بيتهم، علها تطفو فوق خجلها. رد على تحيتي متخلياً عن عجرفته:

- لم يعد هناك من أستند عليه إلا أنت!

وقذف بفضيحته على طرف مكتبه، ملقياً كل ملابس الكلام ليستر عريه...

- أمامك وقت قصير لستر هذه الفضيحة.

- ...

- الكل ينتظر حل لغزها.. فإياك أن تخذلني.

تناولت الملف، وألقيت التحية العسكرية كما تُلقى لقائد رفع راية الهزيمة، ولم يعد مهماً اختيار المفردات لتبجيله أو احتقاره.

مضيت إلى مكتبي أنقِّب في أحشاء ملف أصيب بتخمة الأوراق، والأختام، والأقاويل.. انتهى محضر التبليغ عند سؤال مرتجٍّ كارتجاج امرأة، لم تجد من يزيل شحومها إلا بالسخرية منه:

س - هل تتهم أحداً بتهريبها من القبر؟

ج - لا.

دوّنت ملاحظة في أسفل صفحة التبليغ:

أُغلق المحضر في الساعة الثامنة صباحاً من يوم الثلاثاء ١٥/ ١/ ١٤٢٤، من غير الإشارة إلى اسم المحقّق الأول أو التوصية التي أمر بها لتتبّع أمر الفتاة الهاربة. لم يعد أحد يهتم بالبلاغات كما يجب.

- هل تتهم أحداً بتهريبها من القبر؟

دفعت بي ركاكة هذا السؤال وغباؤه إلى تقليب كل ورقة احتواها ملف الفتاة الهاربة وتمحيصها. اشترطتُ دراسة القضية قبل الموافقة على تسلّمها. وبعد أن دخلت في دهاليزها، أخذت ألوب في منحنيات أقاويلها، وحكاياتها، كفأر حشر نفسه في جحر ضاق مخرجه ولم يعد له من منفذ.

كنت محتاجاً إلى ترتيب أوراق هذه القضية وأحداثها،

وكتابتها بهذه الطريقة، خصوصاً وأنا أرقد الآن داخل المستشفى العسكري تحت عناية طبية فائقة، بينما كان العميد إبراهيم العامر يلحّ على كتابة تقريري، لتقديمه إلى وزارة الداخلية قبل خروجي من المستشفى. . . تركت نفسي على سجيتها في تدوين هذه الحادثة. ربما هذا الفعل يغيض العميد العامر، ويقذف به في وجهي، كما يفعل دائماً عندما لا تروق له التقارير المقدمة إليه. وكثيراً ما فعل ذلك.

في آخر زيارة إليَّ في المستشفى، طرق باب غرفتي عجلاً، ناسياً لباقته الاجتماعية، لتنفر زوجتي إلى الجهة الموازية ساترة وجهها باستنكار قذفته خلفها، وهي تتنحى خلف ستارة قسمت الغرفة إلى نصفين. وقف على رأسي من غير اعتذار، يذود ضيقاً اعترى داخله:

- أنت تبحث عن نهاية مشابهة لنهاية أيمن.

- ما الذي حدث؟ هل تقدموا بشكوى ضدي؟

- ليس بعد، لكن ذلك سيحدث حتماً لو لم تتدارك الأمر بإلغاء أقوالك.

- لا، لن أُلغيها.

زفر متضيقاً:

- عليك الإسراع بكتابة التقرير.

أشرت إلى حالتي فتقاسمت عيناها جسدي - الملفوف برقائق الجبس - ونصف النافذة المفتوحة إلى الشارع:

- هناك من يحكمنا!

وتطلع إلى رتبته العسكرية باحتقار:

- في الخارج ثمة مشانق ينصبونها لنا!

ومنحني ظهره بانضباط عسكري معهود. ومضى ينشر هزيمته بعيداً عني، حتى التهمه آخر ممر يمكنني من رؤيته.

بزغت زوجتي من خلف الستارة متضجرة:

- ألم أقل لك: كل حي يبحث لرئتيه عن هواء!

طلبت منها مناولتي التقرير لاستكماله، احتجَّتْ متذمرة:

- سيتضاعف توعكك، وأنت منكبٌّ على كتابة هذا التقرير.

- . . .

- أشك في مقدرتك على مواصلة الكتابة في حالتك هذه.

ألم تسمعي؟ هناك من يحكمنا!

مدّت إلي مجموعة أوراق جاورت سريري - من الجهة اليمنى - فداهمني طيف فواز هازئاً:

- ما الذي ستكتبه؟ أنتم تثبتون الخديعة، منذ الأزل وثمة كذبة تكبر بسبب هذه الكتابة. . .

(ارحل مع من رحل يا فواز ليس وقتك الآن)

- الكتابة إلغاء، فالمكتوب يأخذ جزءاً من واقع لا يكتب أصلاً. والكتابة تجسيد لرؤية الكاتب وميوله. .كل المكتوبات إنشاء عاطفي أو فذلكة عقلية، وكلاهما لا يحمل حقيقته. كل المكتوبات مزورة، بما في ذلك التاريخ، وما يعج في بواطنه من أكاذيب مركبة. . . . . . .

(ارحل مع من رحل يا فواز ليس وقتك الآن)

سمعت استنكارها وهي تضع رأسي في حضنها:

- خالد

- . . .

- بم تتمتم؟

- . . .

- لم أعد أخشى إلا على قواك العقلية.

أبقت رأسي في حضنها مخلخلة شعري بأصابعها. كانت تلح عليّ بتقديم استقالتي واللحاق بأيمن، وهي تردد:

- لن تفلح في إقناع أحد!

ثمة أعاصير تعصف بمخيلتي، ورغبة ملحّة في تحويل هذا التقرير إلى شهادة مطوّلة ألقي بها لإحدى دُور النشر، وليكن ما يكون.

ضمتني إلى صدرها بقوة:

- بماذا تتمتم؟

لذتُ بحضنها. أحسستُ أنّ ثمّة عربة مسرعة تبحث عن نفق لاختراق جمجمتي.

(٦)

أجزاء مما تمّ تدوينه في دفتر التبليغ

وقف محسن الوهيب أمام الضابط المناوب متلجلجاً:

- غصنها كان صالحاً للاخضرار أكثر من اليباس، ولكن ما شاء اللّه فعل.

مرّر لسانه على شفتيه بما يكفي لأن يزيل تخشُّب حنجرته:

- كان من عادتها صوم الإثنين والخميس من كل أسبوع. وتعهدت أمها إيقاظها للسحور إذا سرقها النوم. وفي تلك الليلة دخلت عليها لإيقاظها كالعادة، فنادتها فلم تجب. وهزتها مرة، ومرتين، فلم تستجب لهزها. فأفقت من نومي على عويلها.

... وحين وقفت عليها، اكتشفت أن روحها الطاهرة صعدت إلى بارئها. صراخ زوجتي كان كفيلاً بملء البيت بالجيران. وتكفل الهاتف باستقطاب الأهل والأقارب من أماكن متفرقة. استدعينا الطبيب على الفور. وفي عجلة تم كل شيء. كشف عليها عجلاً ومنحنا شهادة الدفن. وواريناها قبرها بعد موتها بساعة، أو ساعتين.

لم يرف لنا جفن في تلك الليلة. عويل النساء، وتوافُد المعزين، متذكرين محاسنها، وأحاديثها، واللحظات الأخيرة التي سبقت موتها. كل ذلك استغرق وقتاً أبقانا متيقظين نتلظى بحزننا على رحيلها. وقبيل الفجر، غمضت عيناي سهواً، فرأيتها مسودة البشرة مكدرة الملامح، فسألتها عن حالها، فانفجرت غاضبة:

- سترتَني في الدنيا، وفضحتَني في قبري!

وغابت عن وجهي، فاستيقظت مهموماً. لم أشأ أن أفجع أمها بهذه الرؤيا الشؤم. وهمستُ في سرّي أن اللّه لم يتقبلها قبولاً حسناً، فوقفت في صلاة الفجر أدعو لها بالمثوبة، والمغفرة، وأن يتقبلها اللّه قبولاً حسناً. فقد كانت صوَّامة قوَّامة. على مدار عمرها القصير، لم يحدث منها إلا خطأ واحد كفَّرت عنه بالتعبّد ليل نهار.

وجاءتني في منام الليلة التالية، كما كانت عليه في الليلة السابقة، فسألتها عن حالها، فانفجرت غاضبة:

- قلت لك: سترتَني في الدنيا، وفضحتَني في قبري!

فزاد غمّي، وهمّي، ونفضت سريري، وتوضأت، وتوجهت إلى المسجد منتظراً قدوم الإمام، ليشفي صدري بقول يخفف جزعي مما رأيت. لم أكن معه، وهو يؤمنا للصلاة. كنت أقف مع المأمومين، لكن لبي يسافر في هواجسي التي لم تنته، واستحضار صورتها الوديعة الحالمة عبر نموها القصير. حتى إذ انتهى الإمام مسلماً، واستقبل المأمومين، جثوت بين ركبتيه، وأخبرته خبر حلمي، فهوّن عليّ مربتاً على كتفي:

- حزنك عليها، وفقدك لها، كانا سبباً في تكرار حلمك.

نصيحتي أن تستغفر لها، وتزورها في قبرها، لعل حزنك تذهبه كثرة الاستغفار، والصدقة.

لم أنتظر أن يمضي الوقت. فتوجهت مباشرة إلى المقبرة. وطرقت الباب على شفيق (شفيق هذا قبّار المقبرة وقد تربّى مع أولادي بل قل ولداً من أولادي). ظللت أطرق عليه لزمن قصير، وصوته يأتيني من داخل غرفته صائحاً:

- حسناً... حسناً

أزاح مزلاج البوابة، والنعاس يمسك بأهدابه، وحين رآني، فتح فمه دهشاً:

- ما الذي جاء بك الآن يا عم محسن؟

- جئت لزيارة جليلة.

- في مثل هذا الوقت!

- أشعر بنار تحرق أحشائي لفقدها، علّ وقوفي على قبرها، يطفئ ما بي من حرقة.

تحركت إلى المقبرة من الجهة اليمنى مقتفياً الصف العاشر، حيث قبرت في رابع قبر منه. فهالني منظر قبرها المفتوح، فصحت بشفيق:

- هل غيّرت قبر جليلة؟

استنكر مقولتي:

- كيف أغيّره؟

- انظر أليس هذا قبرها؟ إنه فارغ!

وحين وقف عليه فرّت دهشته:

- نعم كانت في هذا القبر، فأين ذهبت جثتها؟

احترنا تماماً، وجئنا (أنا وشفيق) للتبليغ عن فقد جثة ابنتي من قبرها. هذه كل الحكاية.

(٧)

كانت جدتي تقول لأمي وهي تجدل شعري: «هذه البنت بتطلع على حمدة». .
وحمدة امرأة أحد أخوالي، وهي امرأة يحبها الرجال لكنها لا تحبهم، ولا تبوح بمشاعرها لأحد. وهذا سبب وَلَه الرجال بها. رحمك اللّه يا جدتي. أين أنا الآن من حمدة؟

من رسائل جليلة لمحمود

.

في أحلك المواقف تأزُّماً، لا تتورع جثث الفضائح من النشوز. تخرج من تجاويف الذاكرة طيعة لزجة، كما أودعناها في الماضي. تخرج من أجداثها عارية مبحلقة في الفراغ، وكأنها أشعة شمس فتكت أحجية ظُلَم غامقة بجبروت ملكي مستبد، مبدية تعطُّشها لإرسال ضوئها إلَى الأماكن البعيدة من غير تحرّز أو ريبة.

سجلت في دفاتر الاستجواب مقولات كثيرة. كلها كانت كأفعى، تتلوى غير مبتعدة عن نية اللدغ:

«في يوم مولدها استعاذت منها مولّدتها. كانت قد

تبولت كما يتبول الرجال، حتى أن بولها وصل إلى وجه مولدتها ليلى جبريل».

«وفي طفولتها لم تكن تطيق ارتداء ملابسها، وتظل عارية طوال اليوم. وقد لازمتها هذه العادة السيئة، فعندما كبرت كانت تحب الموديلات الفاضحة».

«عبّر كثير من الشبان المراهقين التلذذ بمؤخرتها التي تحرص على إبرازها عند عودتها من المدرسة، أو إذا خرجت في زياراتها المتكررة إلى الجيران».

«يسجّل القدر الأحداث بعناية ولا يترك أحداً يفلت من فعلته. أبوها قاد امرأة للقتل وجاء دور الاقتصاص منه بابنته».

كانت كثيرةً الحكاياتُ التي لاكَتها الألسن حول هربها. كانت هذه عيّنة منها. غريب أمر الناس يأكلون بعضهم البعض كجيف ميتة.

تذكر الناس فجأة التفاصيل الدقيقة في حياتها: أحلامها، مقولاتها، دخلاتها، خرجاتها، الأشياء القريبة التي تحبها وتكرهها، مولدها، العواصف التي اجتاحت قلبها. كل التفاصيل قدمت إلى مخيلتهم حاطةً رحالها، كمسافرين بلغوا محطتهم الأخيرة، وعليهم إفراغ محتويات حقائبهم ليستقروا في أماكنهم. فرتبوا فساتين سيرتها، منذ أن كانت مشروع غزل في عين أبيها، إلى لحظة اكتشاف هربها من قبرها. كل حادثة مرت بها أو شاركت فيها، فسرت أنها كانت تدل على نهايتها الفاضحة. تلك النهاية التي وصفت في الأغلب الأعم بأنها نهاية فاسقة.

مكنت مجموعة الحكايات المدونة في المحاضر عن هربها، العميد إبراهيم العامري من التفلسف كما يشتهي دائماً:

- ذاكرتنا أشبه برجل شرطة يقظ، رفت بأذنه استغاثة ملهوف، فهرع ليستكشف خبايا الليل، ويسل من سكونه حكايات تصلح لتدوينها في محضر، تعطش محققوه لإثبات الحقيقة.

حادثة مدهشة، تحفِّز أي شهية عديمة الفضول لأن تستدير لشمشمة زوايا الأرض، لمعرفة كيف حدث ذلك الهروب.

فتاة في ريعان شبابها، تموت هكذا من غير مقدمات. ليس هذا فحسب، بل وتُفقَد من قبرها في ثاني يوم على دفنها.

كنت محتاجاً إلى مخيلة خصبة، تتوازى مع طريقة الهرب، كي أصل إلى الاحتمالات التي ستسلكها تلك الفتاة بعد هربها...

انتقال القضية من شخص لآخر، وتباطؤ الوصول إلى نتيجة، أديا إلى حدوث فورات غضب من جهات عدة...

وقف أبوها والغضب يتموج به، رافضاً الجلوس وهو يتابع بلاغ اختفائها.

- لم نسلم من سرقتنا ونحن أحياء، حتى تطال السرقة أجساد موتانا.

حذره ضابط التحقيق من مغبة انزلاق لسانه، في أمور قد تبقيه خلف القضبان زمناً، ربما ينسى فيه ابنته، ويتمنى الخروج من تلك الأقبية، مقابل أن يسرق أولاده واحداً واحداً، أو أن يسرق جسده عضواً عضواً، وهو يسير على أرصفة المدينة، على أن يبقى رهن تلك الزنازين.

لم يكترث محسن الوهيب بذلك التهديد الصريح، بل أضاف - على مسامع من حضر مستفسراً عن ذلك الضجيج الهائل - جملاً خشي معها الضابط الذي حذره من تطاير كلماته، أن يكون الرجل متجسساً عليه لاختبار وطنيته. هذه الخشية، جعلت الضابط يحرر محضراً، يتهم فيه محسن الوهيب بالتعدي على السلطات، واتهامها بالفساد والتخاذل. وطالب زملاءه بالتوقيع على المحضر كشهود حضروا الواقعة.

وعندما اشتاط غضباً لهذا الفعل، وأخذ يزبد ويرعد، انطفأ كعود ثقاب أشعل في ليلة مطيرة. فقد تلقاه ضابط آخر كان صلفاً تعمّق جوفه بالقسوة:

- يا سيد كفَّ عن صراخك...

- انتم لم تتابعوا...

لم يجعله يكمل:

- افتعلت ابنتك هذه الميتة وهربت مع عشيقها. كان عليك أن تربّيها على الفضيلة قبل أن تزعجنا بصراخك.

تمنى لو انه قادر على شفط روح هذا الضابط دفعة واحدة. احتجب الهواء عن رئتيه، واستجاب لانكساره، وسحب ابنه - المرافق له - من غير أن يزيد حرفاً.

تم تمزيق اتهام الضابط لمحسن الوهيب من قبل مدير الشرطة، من غير أن يعلق على احتجاجات ذلك الضابط، من قدمه إليه. واكتفى بالنظر إليه هازئاً، ومشيراً له بمغادرة مكتبه.

جاءت التحريات الأولية خليطاً من الأقاويل والذكريات، ولا

أثر لمسمار يدق على حائط تلك الأقاويل، ويثبت أحدها كصورة يمكن الاهتداء من خلالها على الطريق الذي سلكته الفتاة أو الجثة.

تنقَّل ملف قضيتها بين عدد من الضباط، وكل منهم يحمله لفترة ويصطدم بجدار الحيرة، فيتركه على مكتب العميد إبراهيم العامر معتذراً عن مواصلة حيرته.

استضافني العميد العامر في مكتبه، لأكون المحطة الأخيرة التي عليها أن تراقب نزول كل الأقاويل، والإمساك بالحقيقة من بين أرتال من الحكايات.

- تغدو حكايات الماضي هي الحقيقة الوحيدة التي نسيناها ونحن نركض للأمام. وحين نجد أنفسنا محاصرين بأشعتها الحارقة، ولا نستطيع دفعها، نستعير غيوم الأقاويل كمظلات جُلبت لهذا الغرض...

احتاج إلى نَفَس طويل ليكمل جملته من غير مقاطعة. شعر بلذة حين أنهى جملته، من غير أن يمد يده لإسكات مداخلاتي التي عزمت فيها على ثقب حديثه وتفريغه من الهواء. وربما كان مرد انبعاث نشوته، أنه استطاع قول جملة عظيمة - كما بدا له - لا يتفوه بها إلاّ رجل أنضجته حنكة عميقة التجارب، كما يزعم دائماً.

قرَّبتنا هذه القضية من بعضنا، وأزالت شيئاً من الجفوة التي تنشأ بين الرئيس والمرؤوس. دأب على مجالستي، وتعمد تركيب الجمل بصيغ أدبية مبالغاً في تفخيمها. فبعد أن أفنى حياته بين ملفات القضايا ووجوه المجرمين، وتهديدات المحكومين، وغضب المعتدى عليهم، ولهفة المسروقين في

استعادة مسروقاتهم، تنبه فجأة إلى أنه مشروع أديب، ظل الطريق في ردهات الشرطة.

في لحظات انبساط مزاجه، يخرج محاولاته الأدبية ويغلق باب مكتبه جيداً، ويسمعني ما لا طاقة لي على سماعه. فأتملقه بكلمات تخرج من فمي يابسة متخشبة. وأضطر بين الحين والآخر، إلى ترديد جمل الروعة والعظمة، لكلماته التي تخرج من فمه، كصوت احتكاك عجلات عربة تلف مكابحها، فضج حديدها بصرير متواصل.

تفرَّغ في آخر أيامه، لمراسلة الصحف والمجلات بأشعار سكنها الاعوجاج، وتعلقت بها خفافيش الصور الشعرية المستهلكة. لم أر أياً من قصائده منشوراً، حتى ولو على جدران المديرية، حيث تعلق التعاميم والقرارات الإدارية. أخبرني في البدء أن معدَّ الصفحة الأدبية هاتفه وأخبره أن قصائده ستنشر في واجهة الملحق الأدبي (وكانت هذه المهاتفة، مهاتفة تزلّف أراد من خلالها الصحافي، الإفراج عن صديق له، لم يقم بدفع إيجار شقته لسنة كاملة). ثم تدنى طموحه، وأخبرني أن محاولته ستنشر في صفحة القراء. ومع مرور الأيام، أخذ تواضعه في التدني حتى استقر على عدم الرغبة في النشر. فحين مضت ستة أشهر من غير أن تنشر قصيدته الموعودة، تحجج بحساسية منصبه، رافعاً حاجبيه البليدين ارتفاعاً يفوق طبيعتهما:

- تعلم أن عملنا حساس، وقد طلبت منهم عدم نشر أي شيء يخصني، إلا أنهم طالبوني ألا أحرمهم متعة مطالعة ما أكتبه. واتفقنا أن أراسلهم، مقابل ألاّ ينشروا شيئاً!

- ربما وجد في هذا العذر مأمناً، ينجيه من فرن الاستهزاء الذي يحس بأبخرته تنبعث من بين أهدابي. اطمأن إلى هذه الحجة كثيراً، متغافلاً تزلف ذلك الصحافي الذي امتطاه لبعض الوقت مقابل وعود ضبابية، حتى إذا خرج صديقه من بين القضبان، تلاشت وعوده، وترك العميد منشغلاً بالبحث عن مكان لقصائده العرجاء، لدرجة أنه أصيب بلوثة الكتابة. فأصبح يكاتب ويراسل الصحف، من غير الحاجة إلى أن يذكّرني بمواعيد نشر قصائده. وقد خصص أحد الأفراد للقيام بمهمة إرسال مشاركاته التي لا تنتهي. كان دليل لوثته، تفريغه ذلك العسكري الذي غدت مهمته الأساسية إرسال قصائده ومقالاته إلى كل الصحف والمجلات من غير استثناء، مصحوبة بصورة شمسية اعتقلت ملامحه، عندما كان في الأربعين من عمره، مبديةً وسامة لم تعد لصاحبها، بفعل عوامل التعرية التي اجتاحت تلك الوسامة وقوّضتها.

كان يبحث عن شيء من خلال النشر لم يفصح عنه. إلاّ أنّ الأقاويل تمددت في المديرية، متحدثة عن هذا النهم الكتابي:

- يرغب في أن ينهي حياته العسكرية برتبة فريق. والكتابة في الصحف تجعله تحت النظر من قبل المسؤولين.

جرى هذا الاستنتاج من فم المقدم أيمن، ولم ينفه أو يؤكده، حينما سئل عن مصداقيته.

لم يكترث العميد إبراهيم بما يقال. وعندما لم تستجب الصحف لمراسلاته المملة، ولكي لا يفرّط في موهبته الفذّة، عبث بكل المحاضر التي تمر عليه، حيث غدا متيّماً بإعادة صياغة البلاغات، والمحاضر؛ بأسلوب أدبي، مغيباً جزئيات

وتفاصيل كثيرة، غالباً ما تكون ذات دلالات مهمة في عملنا.

تحولت ممارساته إلى سخرية، نستملح بها في أوقات فراغنا (تحديداً أنا والمقدم أيمن). وكان أيمن ينعته بالرجل المدمر.

يمر في الحياة بمزاج عكر في أغلب الأحيان، وكأن عروقه شحنت ببارود وكاز، يكفي احتكاك بسيط به، لإحداث حرائق لا تنتهي. هذه المزاجية المتقلبة، أبقته مأموناً من الاحتكاك. ولمعرفته بهذه الخصلة في شخصيته، وخشيته من فقد محبة من حوله، بقي متأرجحاً بين السلاسة والجفوة. فأمن بها من التقلبات الإدارية المجتاحة مواقع الضباط. وعوّض عن تقلبات مزاجه، بعمل متواصل ودؤوب، متخلصاً من التذمر والشكوى من طول ساعات العمل. وبهاتين الخصلتين، صعد عالياً ولازال يشتهي قفز رتبة اللواء لرتبة فريق مباشرة، من غير الحاجة إلى الانتظار الطويل، الذي يمكن أن يقطعه انتهاء الخدمة قبل أن يصل إلى بغيته، أو يدق اسفين رحيله من قضية تدمر كل ما بناه. وأغلب الظن، أن اهتمامه الزائد بهرب هذه الفتاة، يعود إلى خشيته من أن تكون هذه القضية، هي القنطرة التي تتهشم تحت قدميه، قبل أن يصل إلى تعليق رتبة فريق.

ظل يصعد إلى الأعلى وهو في مكانه، كشجرة فتحت لها الأرض شدقيها، لينمو من الأسفل والأعلى. لهذا أصبح أيمن يشير إليه بـ(الباقي وجهه). وتحولت من إشارة إلى مسمى، تناقلته بقية أقسام المديرية، وإن كان البعض يستخدم هذه الصيغة في أوقات معينة بمواربة، بنية أخرى تبتعد كثيرا عنه.

انقرض كل زملائه الضباط. وتحولوا إلى خردوات تتزين بلمعان رتبها العسكرية في انزوائها المظلم وتذكر لمعان مناصبها وحضورها، حينما كانت على رأس العمل. إلا هو أنهك كتفيه برتب عسكرية ونياشين وأوسمة، ولم يخُر أو يتنحَّ بسببها.

مربك في تصرفاته، ولا تتوقع في أي جهة يمكن أن يبحر مزاجه. في الآونة الأخيرة، طفح سلوك مستحدث على حياته، لم يكن سائداً في شخصيته. لم يعد يحمل كلام الناس أوزاناً ثقيلة تذهب بأصحابها إلى الدرك الأسفل من اللوم أو العقاب، بعد أن كانت هذه الوسيلة، هي باب السعد الذي جلب له الأوسمة والنياشين، التي تقدمه على من هم في رتبته. أصبح يجد أنفاقاً في الأحاديث المظلمة تؤدي إلى شوارع حسن النية. وبسبب هذا السلوك المستحدث، قام بتمزيق المحضر الذي تقدم به الضابط، لإدانة محسن الوهيب، في تعديه على السلطة واتهامها بالفساد والتخاذل، حين جاء لمتابعة فقد ابنته الهاربة من قبرها.

أظنه فقد شهية الدهشة. تسيل سنوات الخبرة من سالفيه الأبيضين عكرة غير مستساغة، وكأنه لم يعد رجل شرطة، بل تحول إلى عامل دهانات، مهمته تبدأ برؤية هيكل البيت المليس، ودهنه بالدهانات المتوفرة، من غير الحاجة إلى استشارة من أوكله بإتمام هذه المهمة.

كان ملف القضية أقرب إلى يده مني. قلّبه على مهل، كخبير خرفانٍ طُلب رأيه في موازنة ميزانية الدولة. أمضى وقتاً غير قصير في تصفّح ذلك الملف، الذي جلس عليه ساعات طويلة يعيد صياغته. وكمن أنهى مهمة شاقة، وضع خطوطاً

حمراً على بعض مقولات من تم استجوابهم، (حين قرأتها فيما بعد، وجدتها مقولات معطوبة بمفردات الظن والشك والأقاويل). أوصاني من علٍ:

- تتبّع هذه الخيوط.

لعنت هذه القضية التي جعلتني مرتهناً إلى وصاياه مباشرة. ولعنت نفسي بسبب تملقي واستحساني قصائده الركيكة، التي من الممكن أنها حفزته إلى تقريبي منه كثيراً. هذا الاقتراب حماني من تقلبات مزاجه العكر. تشعر أن الملل أصابه من السير في طرقات القضايا الجنائية. غدا مخزناً مليئاً بكل الخردوات التي يمكن إعادة تصنيعها وتحويلها من حالة إلى نقيضها. ولولا رغبته في الوصول إلى رتبة فريق كما يزعم أيمنُ، لارتضى أن يُقذف كبقية الخردوات السابقة. يؤمن أن الحياة أردية مختلفة الألوان، وفي كل مناسبة ترتدي فستاناً وتواريه لتعيد موضته في زمن آخر...

- الجريمة واحدة، لكنها تغير فساتينها في كل مرة. ومهما تغيرت الأردية، يبقى الجسد هو الجسد.

بعد أن خط خطوطه الحمر قلب ملف القضية، من غير أن تبتعد مقولاته عن التوقعات المحتملة لأي حادثة جنائية. رفع بصره تاركاً نصفه لي والنصف الآخر يجتث الفراغ المقابل له (كما هي عادته حينما يريد إلقاء الأوامر):

- بعد موافقتك على تسلم القضية، أنصحك أن تنصت جيداً لما يقوله العامة، ففيه جزء من الحقيقة.

- يا سيدي، المحاضر لا تحرر بكلام العامة.

أفلتت من بين شفتيه ضحكته الساخرة على الدوام:

- اتبع نصيحتي إن أردت النجاح، ففي عملنا، نحن أشبه بمن يلتقط أعيرة نارية من الهواء.

كدت أسقط اعتداده بآرائه، حينما طافت بمخيلتي جملة:

- فاقد الدهشة كائن ميت.

(٨)

انقلب الحي فجأة لهذا الهروب الذي وجد له المحققون تفسيراً منطقياً، يتلاءم مع سيرة الميتة الشابة. وضاق الحي بسيارات الشرطة ورجالاتها. وتجمهر الناس على بوابة مقبرة الأسد. الكل يرغب بالوقوف على قبر تلك الفتاة.

ووجد أهل الحي أنفسهم في قلب الحدث. الكل يسألهم، وهم يجيبون كيفما أتفق. وغدا ذلك الحي الكئيب مرتعاً للفضوليين، ورجالات المباحث، وبعض الصحافيين الطامعين في الحصول على سبق صحفي.

حي ألف حديث الموت. وتشبَّع وجدانه بالجثث العابرة أزقته صباحاً ومساء. ذاكرة الجزع تبلّدت. وفجيعة الجسد المنتهي، لم تعد تتشعب في دهاليز قلوب قاطني الحي.

الصِّبية ألفت رؤية جثامين الموتى. وتخلّت النساء عن مد أعناقهن من النوافذ، لمشاهدة موكب الجنازات اليومي. واحتفظن بدموعهن، لما يمكن أن تحدثه الحياة اليومية، من متغيرات تكدر أحوالهن أكثر من جثمان يوارى الثرى. وتقاعس كثير من رجالات الحارة في السير خلف الجنائز. واكتفى بعضهم

- من صادف جنازة عابرة - بمد أيديهم صوب النعش في مسيرة قصيرة، والانزلاق إلى بيوتهم، كالأسماك الصغيرة الهاربة من فخاخ القبور الفاتحة أفواهها على الدوام. .غدا جمال العجيلي ضجراً من الجنازات العابرة نافذته الوحيدة المطلة على الشارع، والمقابلة لبوابة المقبرة تماماً. توقف عن السير خلف الجنازات منذ سنوات:

- الجنازات التي سرت خلفها تكفي لإدخالي الجنة. . .

انطلقت هذه الجملة الطائشة من بين فكيه، ككرة أراد بها قاذفها، أن يعوض خسارة فريقه في الوقت الضائع. فلقيت استهجاناً وسخطاً. كادت جملته تلك، تنهي حياته، وتغلق على أنفاسه بالشمع الأحمر في زاوية من زوايا المقبرة المجاورة لمنزله. فحينما تلفظ بجملته السافرة تلك، قفز في حلقه عبدالله زيني:

- ليس بعد مقولتك هذه إلاّ إعلان كُفركَ، فأنت لا تحضر صلاة الجماعة، ولا تنتهي من شرب المسكرات، ولم ترتدع بتغافلنا عنك.

يمتلك جمال العجيلي هياج كلب لم يدرب جيداً، فسرعان ما أصيب بحرقة ألهبت طيش الشباب، الذي نام في كل أوصاله وبقي عالقاً بلسانه:

- أفعل كل المنكرات وأنا يقض لأهل بيتي، أما أنت فملتزم بالمسجد في الليل والنهار، وزوجتك ملتزمة بمغادرة البيت حال خروجك مباشرة.

كاد رده هذا يكلفه حياته. فلم يتنبه إلا بارتطام حجر ثقيل

على هامته، أبقاه أسبوعاً كاملاً تحت عناية الأطباء، وشهراً كاملاً لاسترضاء عبدالله زيني، ليسقط عنه تهمة القذف الموارب. ذلك الحجر مكنه أيضاً، فيما بعد، من اقتفاء كل جنازة عابرة، ومجيباً لكل نداءات مؤذن المسجد المجاور لبيته، من غير أن يجرؤ على إظهار امتعاضه من الجنازات العابرة نافذة بيته.

لم تفلح الجنازات اليومية المتجولة في أزقة هذا الحي، في نفض اللامبالاة التي استوطنت قلوب أهله، وتعيدهم للاهتمام بالقبور التي تبتلع يومياً نفساً كان ينفخ بالونة الحياة بكل قواه.

إلاّ أن هروب جليلة من قبرها، انفجر كقنبلة، تصدعت لها قلوب الكثيرين، وتحولت إلى سلوى تحرك ركود الحي الميت. وتحولت المقبرة إلى متنزه يتزاحم أهل الحي للتنعّم بالوقوف فيه.

وأغلقت بوابة المقبرة بسبب هذا التكدس، عن استقبال موتى جدد. وظل الحي مزاراً لرجالات الأحياء المجاورة، وتربصات العيون المبثوثة.

هذه ثاني مرة تغلق مقبرة الأسد في وجهي، وأنا في أشد الحاجة إلى دخولها.!

(٩)

ها هي مقبرة الأسد تغلق مرة أخرى.

الأماكن كالأشخاص تتواشج بينك وبينها ألفة، أو عداوة.

ومقبرة الأسد هي العدو الذي طعنني من الخلف مرتين.

أعرف مواقع أربع مقابر وأسماءها في جده: مقبرة أمّنا حوّاء، ومقبرة الأسد، ومقبرة الصبان القديمة، ومقبرة الرويس.

رضخت مقبرة الصبّان، لشهور عديدة، لاستقبال الحياة بدلاً من الموت. وعندما وجدت أن طعم الأحياء له لذة تفوق لذة العظام النخرة، رضيت مسايرة من أراد لها أن تتزين بأنفاس السمار. فبعد أن شبع موتاها موتاً تذكّرتهم قاطرة الطفرة. وجاءت الحياة إليهم، حاملة تغيراتها وتقلباتها، مزودة بخصال طفرة جينية من الجشع، والخسة، وقلة المروءة؛ خصال مقيتة اكتسبت حرفية عالية عما كانت عليه، على رأي فواز. جاءت هذه الصفات مجتمعة في عربة واحدة، وفي موعد معلوم. ونزلت إلى المدينة تعيث فيها فساداً كما يحلو لها. جاءت كضمائر حية لعصر البنكنوت، فأفسدت ذمماً كثيرة. وفي مداهنة مكشوفة، أزيل سور مقبرة الصبّان، ونشطت البلدية في سفلتة

أرضيتها، وتحويلها إلى موقف للسيارات المغادرة إلى اليمن، وجزء منها إلى مقهى يستريح فيه المسافرون المغادرون أو القادمون. وقد هيأت - البلدية - الموقف، بصورة لا تشي أن هذا المكان كان مرتعاً للموتى. فقد دكّت عظامهم وسفلتت جلودهم. ومنحت الموتى تكرّماً منها، فرصةَ مسامرة روّاد المقهى في نكاتهم وأمانيهم لسنتين... بقيت ليالي طويلة، أشارك زملائي السهر على رفات أولئك الموتى، ونتبادل النكات الماجنة والضحكات العارية. كنا نعلم أننا نضع أحذيتنا في بطون وعلى هامات أناس غدوا رميماً. لم نكن لنجرؤ على فعل ذلك، لو لم تهادن البلدية في تحويل أجسادهم إلى أرضية، لا تثير حفيظتنا، ولا تحرك لحظة ندم في دواخلنا. ففي مراحل الشباب، تركض المخيلة إلى المستقبل، أكثر من انجرافها إلى الحنين أو التقديس. لم نكن مكترثين أين نضع أقدامنا. ويبدو أن هناك من ترك أصلابه أو أخواته، وديعةً لهذه المقبرة المستباحة، اشتاط غضباً من فعلة البلدية. فتصاعدت الشكاوى في اتجاهات مختلفة، لحماية عروق الموتى، من دعس أقدامنا اللاهية، وسماعهم بذاءة حياة جديدة.

أذعنت البلدية، وسارعت إلى رفع الحرج عن كاهلها، بإعادة سور المقبرة إلى ما كان عليه. إلا أنها لم تكشح الإسفلت، وأبقته مطبقاً على أنفاسِ أولئك الموتى. لم يعد أحد يعرف أين دس عظام أبيه أو أمه، لكنّ كلاً منهم تنبه إلى أن العربة التي قدمت محملة بثروة الطرفة، جلبت معها وحوشاً مجهرية، لا تُرى بالعين المجردة.

كانت مقبرة الصبّان أول مقبرة أتعرف إليها، كملجأ لوأد

الملل. ولم أكن قد فقدت أحداً من أفراد أسرتي. ولم أكن مهتماً أين أضع قدمي. فكل الطرق صالحة لنزقي.

ظللت لوقت طويل لا أعرف من هذه المقابر إلاّ أسوارها. أقف في أحيان، متغلباً على خوفي، أتربص من خلال شقوقها، بذلك الفضاء المتسع لرؤية قبور، حملت حدبتها بتماسك، وظلت فى مواجهة حياة شحيحة، تنثرها أصوات غربان أو حداءات عابرة، وفى أحيان، عصافير هاربة، من ترصُّد صبية هائمين فى الشوارع، حيث تهرب فوق بعض الأشجار المتناثرة على حدود تلك المقابر. وكنت أستبشر بالقبر الذي تنبت عليه شجرة أو عشبة، حيث لا تنبت الحياة إلا فى الأرض الطيبة (كما يقول أبي).

تعرَّفتُ إلى مقبرة الأسد منذ خمسة وعشرين عاماً أو تزيد، حين ماتت أمي - رحمها اللّه، وأتوسل إليكم أن تدعوا لها بالمغفرة. فخلال عمرها المديد لم تؤذ إنساناً قط -. كانت مشاعري متبلدة حيال موتها. فبعد أن عبرت أزمة قلبية حادة ونهضت في جسدها حياة فائرة، ذوت فجأة كريحانة نزعت من غير قصد. كان همي مواراتها الثرى، من غير خوض مغامرة دخول القبر بصحبتها. تمنيت ساعتها لو أن أبي بحالة صحية جيدة لينهض بهذه المهمة بدلاً مني؛ ولأنها الحالة الأولى التي أكون فيها مسؤولاً عن جثة، أخذت تطوف شوارع جدة بحثاً عن قبر يستضيفها، من غير أن يتلطف القبارون بفتح أبواب مقابرهم، أصابني الحنق، وأخذت أصرف اللعنات في اتجاهات كثيرة، وأظنها لم تصب قريباً أو بعيداً. وتحول حزني على فراقها إلى أمنية التخلص منها!!

استبقتُ الجنازة بحمل أوراق الدفن إلى مقبرة الأسد. كان يقف على بوابتها غلام، يعلق على بوابتها ألعابه الصغيرة، ويزيل رشحاً مدراراً - هلّ من منخره - بيده المتسخة. حتى إذا تلعبك المخاط بين أنامله، استعان بكم قميصه ليتخلص من تلك الورطة التي ترامت أطرافها، وفضحت سوء لياقته، في التخلّص من المواقف المحرجة. وحين طرقت الباب، اخترق جسدي كاختراق مسمار معاكس. سألني بصلف:

- ماذا تريد؟

- حارس المقبرة.

- انتظر هنا. (لم تتغير لهجته حادة وصارمة)

ودفع الباب وسار إلى الداخل بخطوات ثابتة، كمن يعرف طريقه تماماً. وغاب داخل غرفة منزوية، ليظهر رجل بقيت ملامحه جافة في ذاكرتي، وقد وقف إلى جواره ذلك الصبي، الذي لم يكفَّ عن بذل محاولات إضافية للتخلّص من جريان أنفه. وقبل أن أفتح فمي ردد متضجراً:

- ليس لدينا مكان لجثة مقبلة.

خطرت ببالي ساعتها مقبرة الصبّان، وهي تبتلع موتاها، وتخرج لمسامرة رواد المقهى. جاءت إلى خاطري مصطحبة كل الأراضي والمخططات التي تتمدد على طول مدينة جدة وعرضها، متهيئة للعمران، وأن الأرض تغلق منافذها بخرسانات، لا تقبل موتى أو أحياء، كامرأة استؤصل رحمها وألقي إلى حيث لا تعلم. وجال بخاطري أن ثمة قراراً ممهوراً يعدُّ الآن لتمريره على المواطنين، يقضي بلف الموتى في أكياس

القمائم وقذفهم في حاويات النفايات.

تجمع حنقي أسفل لهاتي. ولم يعد أحد بعيداً عن لعناتي... كنت ضعيفاً ومنكسراً: - .... حتى الأرض أخذت تتبرأ من أجسادنا. ماذا يحدث لو أن رجال الأعمال حوّطوا كل الأراضي، ولم يعد هناك مكان لدفن ميت؟.

كل إنسان في مكانه مَلك. هذا القبّار اللعين، الذي لا يساوي قرشاً خارج أسوار المقبرة، ها هو يُصدر فرماناً عسكرياً، ويمضي غير آبهٍ بشيء.

منحني ظهره، وجر قدميه، عائداً إلى غرفته، فصحت به:

- لكننا بلغنا بالجثة إلى هنا.

لم يلتفت. سار صوب غرفته كقائد واثق من قراره:

- كان عليك أن تأتي قبل أن تحمل جثتك.

- أرجوك، نحن في عز الظهيرة، والمتوفية توفيت بالأمس، وكل ما أخشاه أن تتعفن قبل أن تصل إلى قبرها.

- هذا لا يعنيني. اذهب وابحث لها عن قبر في مقابر أخرى.

ودلف إلى غرفته مطمئناً، بينما ظل الصبي ينظر إليّ بشيء من العدائية. وحين منحته ظهري، قذف بحصى في اتجاهي، واختبأ داخل تلك الغرفة المنزوية.

وقفت حزيناً أمام بوابة المقبرة، مترحماً على الأحياء الذين سيأتون ولن يجدوا مكاناً يستقبلهم (هكذا كنت أتصور).

وتضخمت الصورة الكاريكاتورية، فانفلتت من مخيلتي:

تحشر جثث لأقاربي وجيراني داخل أكياس النفايات، ويقذف بها في الحاويات، تمهيداً لمجيء سيارات البلدية التي تطوف الأحياء، لحمل الموتى والنفايات معاً... ثم إلى المحرقة. رائحة شياط لجلود نضجت واستوت. وغربان تموت قبل أن تنقم نتفة من لحم ميت...

فزعت لهذه الخيالات. وحين هدأ حزن أبي، وكنا متجاورين نقرأ الفاتحة على قبرها - في زيارة لاحقة -، حدثته عن تصوراتي تلك، فضحك موصياً إياي:

- عليك أن تكون رجل بلدية...

- رجل بلدية...

- أقصد موظفاً وظيفة مرموقة بها. فالمستقبل للبلدية، فهي التي تمنح الأرض للسكن وتصريح البناء وإدخال الكهرباء، ومواراة الموتى. كل شيء بيدها!

بقيت جنازة أمي، في ذلك اليوم رهينة المسجد المجاور لمقبرة الأسد، ريثما نجد لها مكاناً يؤويها. وانتشر الأهل والأقارب في اتجاهات مختلفة، بحثاً عن قبر شاغر. ومع صلاة العصر، كان أحد أقاربي، يبارك لي حصوله على مكان، تم تهيئته منذ وقت قصير، في مقبرة أمّنا حواء، لرجل رفض الموت. فبعد أن وصل إلى قبره، فاق من غيبوبته، لاعناً تشخيص طبيبه الذي لا يفرق بين الغيبوبة والموت.

أعدنا صلاة الميت على أمي. واتجهنا بجنازتها إلى

المقبرة، وثمة ارتياح جارف يسكن داخلي.

حملت إلى مقبرة الأسد ذكرى وخيمة وسيئة، تذكرني دوماً بوجه ذلك القبّار الذي وقف في وجهي بصلف، مدّعياً أنه لا يوجد مكان داخل المقبرة لاستقبال جثمان أمي.

والآن، وأنا أحقق في قضية مسرح جريمتها، مقبرة الأسد، شعرت برغبة ملحة، لأن أوقف قبّارها موقف الذل. كنت عازماً النية على أن أكون صلفاً معه أثناء الاستجواب، خصوصاً وأن مدونات المحاضر عبرته من غير تمحيص في مقولاته. كنت أستحضره في مخيلتي ذليلاً، وهو يقف معتذراً لجثمان أمي، ولرجائي المتكرر بأن يرحم جسدها من التعفن. عبرتني نشوة داخلية متراقصة، كلما تذكرت أني سأنتصر لجثة أمي، التي تركها ذلك القبّار الفج، خارج القبر، من غير أن يرف داخله بلحظة رأفة. أو أن يقدّر المشيّعين الذين طالبوه بتمنٍّ يقترب من الاستجداء، فصك أذنيه عن توسلاتهم.

غاصت هذه النشوة العارمة في داخلي، كجمرة منطفئة، حينما أخذت أراقب المقبرة من إحدى الشقق المطلة على مقبرة الأسد... من هناك، علمت أن القبّار الذي أبحث عنه، لأعلق على مسامعه كل التحقيرات التي أحملها له، قد مات ودفن داخل المكان الذي قضى جُلَّ عمره قبّاراً وحارساً له. وخلفه في مواراة الموتى، شفيق (ذلك الصبي الذي حصبني، وتوارى داخل الغرفة المنزوية، فيما كانت يده، تهرب من تلعبك مخاط، لم يحسن التخلص منه).

(١٠)

تقع مقبرة الأسد بين سوقي باب مكة وباب شريف. تقبض عليها البيوت كحبة لؤلؤ، بقيت ناصعة، بعيدة عن يد السماسرة. بقيت كمعدة حديدية، تسحق عظام موتاها، حتى إذا أصابتها التخمة، توقفت عن البلع قليلاً، لتعاود ازدراد ما يقدم إليها من أجساد طرية ومطالبةً بالمزيد.

ظلت مقبرة صامدةً بسورها العتيق، في مواجهة التغيرات. ولم تستسلم وتقدم عظام موتاها للدك والسفلتة، كما فعلت مقبرة الصبان. وأمام صمودها، خسئت طموحات تجار كثر، في تحويلها إلى متاجر تدر أرباحاً سنوية، بدلاً من بقائها في نقطة حيوية، ليس لها من مهمة، سوى استقبال موتى، يمكن لجثثهم أن تتوارى في أي جهة من الأرض، أو أن تُدس في أكياس النفايات، وتحرق في محارق البلدية.

وجعل قربها من أحياء ذات كثافة سكانية، تربتها مهوى الأجساد التي ترجلت عن صهوة حياة طويلة أو قصيرة. فكلما سقط غصن من تفرعات تلك الأسر المحيطة بأسوارها، أسرعوا الخطى لبوابتها، ودسّوا جزءاً منهم هناك، وعادوا إلى منازلهم

متخففين من جسد أثقل كاهلهم. ولتهافت الأجساد المتتالية، لم يكن من وسيلة لمد أطرافها، الا باستحداث مقابر وقتية، يتم إحلال الموتى الجدد، في ضيافة موتى بليت عظامهم، وغدوا رميماً ينتظرون الساعة.

هذه الضيافة الجبرية، رفضها عثمان الناعم. وقبل أن يموت، أمسك بشفيق (ابن أخيه)، محلّفاً إياه إن خطفت أنفاسه، ألا ينزله ضيفاً على أحدٍ من رقّاد المقبرة. وقاده من يده موصياً إياه:

- هنا، في هذا المكان، شِقَّ لي جزءاً من الأرض ولحِّدني جيداً وأهِل التراب علي، التراب كثيراً. وأوصيك أن تشبع قبري بالماء... في كل يوم، اسكب جراباً على عظامي.

ولم يخلف شفيق عهده الذي قطعه لعمه. يقف يومياً في منتصف النهار، ويسكب جراب الماء على قبر عثمان الناعم. ويعود إلى غرفته مطمئناً لتنفيذه الوصية بحذافيرها. وإذا صادف حضور جنازة، وهو لم يتمّ إشباع قبر عمه، يهملها حتى يفرغ من إنجاز عهده وواجبه اليومي...

تخلى شفيق عن عهده في يوم دفن جليلة، ومشى دامعاً يحمل مساحته أمام المشيعين، ساقطاً إلى داخل قبر قديم. كانت أذناه مصغيتين تماماً لتلك الجملة التي فرت من فم عبداللّه زيني:

- لم تتمتع بجمالها وشبابها بعد.

فوافق قائلها بهنهنة عظيمة:

- نعم لم تتمتع بشبابها بعد.

وبكى واستبكى الحاضرين، وهوى إلى باطن القبر كدلو يعرف طريقه تماماً. فأطل عليه أبوها هامّاً بالنزول، رفع شفيق يده صاداً تهيؤه:

- أنت لا تقدر يا عم محسن على رؤيتها في لحظتها الأخيرة، دع أحد أخوتها ينزل معي.

نفر أبوها مغالباً بكاءً حاداً أخرجه كصيحة ديك عقر بصوته ليلاً دامساً:

- لو كنت على وشك الموت سأوسّدها، فمن أغلى من جليلة؟

ولم يقدر على التماسك، فأجهش باكياً وجسده معلق نصفه الأسفل في ظلمة القبر، ونصفه الأعلى تقاسمته نظرات المشيعين المشفقة، وضوء النهار الهارب من ظلمة القبر، خشية أن يدس سهواً مع الجثة.

جذبه شفيق إليه، والتصقا ببعضهما باكيين، بينما تعالت أصوات المشيعين:

- اتقوا الله، ما شاء فعل.

هب هواء صاف خال من الأتربة، وأزاح غطاء الجنازة المسجى على شفا القبر، فتصايح بعض المشيّعين:

- استروا الجثة.

أعاد زهير وصالح تثبيت الغطاء، فتدخل عبدالله زيني:

- أنتما أخواها احملاها وادفعا بها إلى القبر. فتعاونا لزحزحة الجثة. وامتدت معهما الأيدي، لدفعها إلى داخل القبر، وتراجعت على عجل مع سماع صوت تعالى من بين المشيعين:

- لمس المرأة حرام، ولا يحملها إلى قبرها إلا أهلها، فلا تمدوا أيديكم!

انفصل شفيق وأبوها عن تلاصقهما، وتناولا جثمانها الذي نكس بزاوية حادة:

- عم محسن هذا رأسها ترفق به.

وكسفينة سحبتها دوامة هوجاء ولم تجد سوى إطلاق نفير استغاثة، هوى محسن الوهيب داخل القبر واعتلى نحيبه. فأهمله شفيق، وتلقف الجثمان بذراعيه بكل حنو، موصياً من تجمهر على فوهة القبر:

- ادفعوا بها رويداً رويداً.

وتساقطت وصايا المشيعين تصبّر أباها المنهار، الذي اتخذ من يده اليمنى مسنداً لرأسه، وتهاوى داخل القبر في بكاء طويل، تاركاً المهمة كاملة لشفيق. فوسدها مرقدها، مكوماً تربة القبر أسفل جذعها، وفاكّاً أربطة الكفن عن وجهها ووسطها وقدميها. كان يفعل كل شيء وكأنه انتدب وحيداً لهذه المهمة، تاركاً أباها يطلق تبريكاته وبكاءه في آن:

- ليبارك الله فعلك ياشفيق.

أنهى شفيق مهمته، والتقط محسن الوهيب من أسفل القبر، ودفعه للأعلى، ليتلقفه المشيعون كقطعة قماش بالية

ومبللة. ولم يبخلوا عليه بالكلمات المواسية، مهوّنين عليه مصيبته. وانبرى بعضهم بتذكيره بأجر المحتسب. وربما أراد شفيق أن يبشره بمآلها. فحينما أغلق قبرها وهم أن يهيل عليها التراب، رفع صوته واصفاً جنازتها بأخف الجنازات التي دفنت بالمقبرة، وأن جسدها كان يتراقص بين يديه كتراقص الحوريات. وادعى أنه عندما حل أربطة كفنها، أنارت بسمتها الجهة التي قلبت إليها. وفاح من جسدها طيب له عرف الجنة. !!

لم يدم وصفه كثيراً، فقد خانته رباطة جأشه، فبكى. وأكمل عمله باكياً. قام بمراسم الدفن باكياً: أطبق عليها دفتي القبر، وأهال عليها تراباً ناعماً. وصب الماء على قبرها، كما لم يفعل مع ميت سبقها.

ولم يكتف بذلك، بل اصطف مع أهلها لتقبل العزاء فيها. ولفعلته تلك، اصطف بقية الجيران. وتحولت المقبرة إلى عزاء وبكاء متبادل.

ومع اكتشاف هربها من القبر، ندم الكثيرون على وقوفهم في صف العزاء.

(١١)

وجدوا لفافة الكفن منزوية في عمق القبر، عالقةً بها خصلات من شعرها الكستنائي الطويل، وما زالت رائحتها ملتصقة به. أكدت رائحتها الندية الفواحة من ثنايا الكفن هربها. علّل المحقق استنتاجه بقوله: «لو أنها بقيت بعض الوقت، لتخمرت الرائحة، وشابها ما يشبه انتشار رائحة نتن البول القديم».

وكان الاستنتاج المبدئي المنساق لمقولة الهروب، أن أسوار مقبرة الأسد، أسوار منخفضة، مكنتها من القفز إلى الشارع العام.

هذه الفرضية قابلها سؤال تشبث في مكانه كمسمار صدئ، غرسته فوهة العقيد نبيل تركستاني (كأول محقق استلم القضية، وعزف عن المواصلة فيها، بعد أن أمضى سنوات عمره مطارداً المجرمين على اختلاف أوصافهم وفاكّاً عقد جرائم غامضة عديدة):

- لو صح هروبها، فهل تهرب عارية، في حي يعيش حياة نمل، يتبادل سكانه حالات اليقظة على مدار اليوم.

تمادى العقيد نبيل في وضع حواجز أمام هربها منفردة، بأسئلة متسلسلة على هامش القضية:

- كيف لها أن تزيح غطاء القبر، وهي الضعيفة القصيرة؟

- لا يمكن أن تهرب في وضح النهار، لخطورة اكتشافها من خلال الحارس، أو شرفات العمائر المحيطة بالمقبرة. وإذا كان هروبها ليلاً فهل بقيت داخل القبر أم خارجه؟ يبقى السؤال: متى هربت، ومن ساعدها على الهرب؟

كان كل محقق في هذه القضية، يضع أسئلته من غير أن يجد عنها إجابة، أو يبحث ميدانياً عن إجابتها. تناوب على هذه القضية ستة ضباط. كان آخرهم النقيب سعيد الزهراني، الذي لم ينس ترك أسئلة اضافية لم تحل:

- ما هي أسباب هربها؟ وهذا السؤال يقتضي معرفة علاقتها بأفراد أسرتها. فربما وجدت في منزلها خطراً يهدد حياتها، فقررت الهرب.

- وإذا أهملنا فكرة هروبها، تنفتح أمامنا احتمالات عديدة، كأن يكون غب على الأب والقبّار موقع قبر المتوفية. فربما تكون في صف آخر، أو قبر مجاور.

تمخضت كل تلك الأسئلة في نهايتها عن خلق تعقيدات عسيرة، أخرت سير التحقيق، وذهبت به إلى تعرجات لم توصل إلى شيء يذكر. وفي سبيل فك لغز هذه الفتاة، تحمّلتُ على عاتقي مهمة حمّلتنا سخط أهالي موتى مقبرة الأسد وتعنيفهم، حين قررت اللجنة المكلفة بمتابعة القضية - برئاستي - التيقن

من القبر الذي دفنت فيه. وتم فتح أربعة قبور، ثلاثة منها تحلل أصحابها وفار من جثثهم نتن بغيض على الروح. ولم يقدر على التأكد من جنسهم الذكوري سوى القبار شفيق. أما القبر الرابع، فقد كان لطفل تآكلت أطرافه، ونز لحمه دهناً كثيفاً غطى عظامه. وبقيت جمجمته تفاخر النمل المنتشر ببقائها متماسكة وعصية على القرض.

وكانت النية مبيتة (لدى فريق البحث)، للبحث عن الميتة الشابة في قبور اخرى مجاوره، إلا أن هاتفاً شديد التوبيخ، وصلني آمراً بالكف حالاً عن العبث بحرمة الموتى.

حاولت تجاهل الأمر، ومواصلة نبش صفين متوازيين لموقع دفنها، على ان أسكب أعذاري كدواء لتطبيب خواطر من غضب من فعلتنا. كنت عازماً على ذلك، إلا أن تنبيهاً جعلنا نسرع بقطع مهمتنا، والالتفات إلى طرق آمنة، تجنبنا الغضب الذي تولّد لدى سكان الحي.

لم نكن نعلم بما يدور خارج أسوار المقبرة. في البدء، كانت عيون بعض الساكنين تتبع عملنا من خلال شرفات المنازل المطلة على ساحة المقبرة. ويبدو أن هذه العيون سربت خبر نبشنا القبور إلى بقية الأهالي. لم نتنبه لتكاثر المطلين علينا من العمائر المحيطة بنا. بعد تلقّي الأمر، حملت إلينا الحجارة المقذوفة من خارج الأسوار نذير شؤم. فقد هلت بكثافة، تنبئ أن غضباً محموماً يغلي في الخارج. وزاد من خشيتنا، تزايد الصيحات والتهديد بدفننا أحياء، إن لم نكفَّ عن العبث بحرمة الموتى. جأر صوت حاد وجهوري:

- أمن أجل ساقطة تنبشون قبور المؤمنين؟

وارتفع الهياج، وأخذت الحجارة تصلنا من كل جهة، كالمطر الذي خرج لاستجلابه أتقى عباد الله.

لم يخرجنا من هذه الورطة، سوى القبار شفيق، حيث تقدم فريق البحث حاملاً لفافة كفنها، وملوحاً بها للمتجمهرين:

- قبور موتاكم مصانة، أنزلوني لأجلب لفافة كفنها وقياس عمق القبر وبعده عن الأرض.

كان المتجمهرون في حاجة لأي حديث «يفسخ» تلوّن غضبهم، ويزحزح يقينهم لهاوية الظن، ليصدهم عن حماقة مواجهة الشرطة، تلك المواجهة ذات الثمن الباهظ. سرنا بين عيونهم الجائعة والمتشهية مضغ أي غضب حتى لو كان فاتراً. انطفأت حمحمتهم. وتواصوا بالابتعاد عن طريقنا، فيما حرصت بعض الأفواه المختبئة خلف المتجمهرين، على تأكيد غضبها، بإلقاء قاذورات أفواههم خلسة.

اضطررت إلى نفي فتح أي قبر للرد على مساءلة رسمية وصلتني من العميد ابراهيم العامر، معللاً بأن ما حدث كان معاينة قبر المتوفية ووضع سيناريو لهروبها. وتم إرسال هذا الرد للإمارة، كمحاولة لتهدئة غضب المطاوعة الذين تبرعوا بالشكوى إلى الجهات العليا، وحثهم على صيانة حرمة مقابر المؤمنين.

عادت فكرة هرب الفتاة الشابة من قبرها، تسيطر على فريق البحث، بتأكيدات لا تقبل المحاجة. بت على يقين أن أحداً ساعدها على الهرب. أزاح لها غطاء القبر، وجلب معه

ملابس لتستتر بها. وتولى مهمة إخراجها من المقبرة بطريقته.
فمع من هربت؟

محَّصت كل أوراق القضية، بحثاً عن الشخص الذي يمكن أن يكون قد ساعدها على الهرب. وفي كل مرة أصطدم بما يخيب توقعاتي.

(١٢)

أعياني تتبُّع خيوط هذه القضية. فليس فيها خصم واضح المعالم، وليس فيها طريق يمكن أن أسلكها، لأصل إلى نتيجة تهدئ عجلة المسؤولين، الحريصين على إغلاق هذا القبر، الذي انبعثت منه رائحة نتن، يفضح سوءة حديقة المجتمع المثالي.

قلَّبت ملف القضية للمرة (لا أعرف تحديداً كم هي المرات التي فعلت فيها هذا الفعل). في كل مرة أتجاوز الخطوط الحمر التي وضعها العميد إبراهيم العامر على مقولات من تم استجوابهم. كانت مقولات مفككة، أدلى بها بعض من تربطهم صلة قرابة أو جيرة...

تحولت هذه القضية إلى أداة ضغط دائم على المسؤولين بسبب معاودة الصحافة ذكرها بين الحين والآخر، وغدوت أتلقى مهاتفات يومية تستفسر عن مسارها. ومع ظهور كل فتاة مختفية أو هاربة، تهل خاطرتي بتباشير العثور عليها؛ فتيات عديدات تغيبن عن بيوتهن. بعضهن تم العثور عليهن لدى أقارب، أو صديقات، أو عاشقات مللن من عشقهن، فعدن لبيوتهن بحجج واهية. وبعضهن تاهت خطواتهن في الصحاري والقفار، وانتهى

مآلهن إلى الموت في الخلاء.

تمنيت لو أن الأمر على ما كان عليه سابقاً، حيث تدفن القضايا في أدراج الشرطة، كالموتى الذين لا معزين لهم. تمنيت ذلك، لولا أن الصحافة تمكنت من مد أطرافها - هذه الأيام -، وأخذت تنشر القضايا الجنائية وتحولها من جثث في المحاضر إلى قصص تقرأ. وهذه القصة تحولت إلى قضية، يتابعها مئات آلاف، بصيغ وأقاويل شتى، وإن تركزت في أذهان الكثيرين بصياغة: الفتاة التي هربت من قبرها.

خرجت صحيفة اليوم بملحق عن هروب الفتيات. وفردت في صفحة منه، استطلاعاً مطولاً عن جليلة تحت عنوان مثير: الهاربة من قبرها، تكشف عجز الشرطة عن اكتشاف طريقها.

قرأت التفاصيل بشيء من الاستغراب. فكل الاستطلاع قائم على مقولات ليس هناك ما يؤكدها على أرض الواقع.

- ابتكرا هذه اللعبة ليهربا معاً، رأسها الصغير ليس فارغاً كما كنا نتوهم بل متخم بالحيل.

لم يكن الحدث مناسباً لما تلفظت به رقية شعبان (جارتهم من الجهة الخلفية). إلا أن الأحداث تولد حكاياتها لتستقيم في أذهاننا. جملتها تلك، استمطرت أقاويل مضت منذ عشر سنوات أو تزيد. وعلى الرغم من قِدَمها، استعادت النسوة مغارزهن وبدأن في تزيين حكايات بالية، كي يُلبسنها سيرة جليلة.

كان الحدث فائراً. جعل كل الكلمات قابلة للخروج والانزلاق من الأفواه، لتبرير تلك الحادثة الغريبة. فبعد أن شيع جثمانها، وأقيمت مراسم العزاء، انفجر خبر هربها من القبر،

لتتوالد الحكايات صاخبة كنزهات الصيف السريعة البراقة.

قفز وجه العميد العامر في مخيلتي كقط مشاغب على الدوام:

- أنصت جيداً إلى ما يقوله العامة، ففيه جزء من الحقيقة.

غدا ملف القضية متخماً. دونت فيه كل التحريات التي جمعت من أفواه المستجوبين، أو من العيون المبثوثة في الحي. وكون المتوفية امرأة فقدت، نشطت المخبرات في جمع سيرتها من أفواه جاراتها كما لم ينشطن من قبل. كلها أقوال تتبخر في الهواء، ميزتها الوحيدة أنها تعفّر سيرة المتوفية بغبار لم يعد بالإمكان تجنب استنشاقه. مقولات عاقر كإبرة لا تحمل خيطاً. تدخل وتخرج في البزة من غير أن ترتقها.

كنت أبحث في ركام المقولات عن خيط يقودني إلى الشخص الذي ساعدها على الهرب.

(١٣)

- أنصت جيداً إلى ما يقوله العامة ففيه جزء من الحقيقة.

علي أن أتخلص من الفوقية التي أحملها تجاه الآخرين. ففي كل مقارنة تنشأ في داخلي بيني وبين من أحدثهم، أكتسب نرجسية طاغية، معتداً بنفسي اعتداداً عظيماً، تدفق فملأ كياني. ولم أجد من تَصريف له، سوى شق قنوات جرى ماؤها لروحي غدقاً صافياً: ونبتت في مجراه أشجار باسقة، ثمارها يقين خالص، بأني لم أُقدّر حق قدري.

استللت هذه العظمة التي تتراءى لي، من مقولة فواز:

- يحتاج العظيم إلى أن يؤمن أنه عظيم ليقنع الآخرون بعظمته.

لا تزال جملة العميد إبراهيم، تتمدد في مخيلتي، على الرغم من انتقاصي له، وجزمي أن السنوات التي أمضاها في دهاليز الشرطة، جامعاً للرتب الغسكرية، لم تفده كثيراً في إنجاز عمل مفيد في حياته:

- انصت جيداً إلى ما يقوله العامة ففيه جزء من الحقيقة.

حملت نفسي على التواضع بمشقة لكي أتبع نصيحته. أعدت قراءة ما خُطَّ تحته بالخطوط الحمر بعناية فائقة، محولاً رسم سيرة متكاملة للفتاة الهاربة:

* * *

أقاويل تمّ تثبيتها في محاضر القضية

الخطأ الأول

فاحت رائحتها قبل سنوات مضت، فجأة تحولت إلى لبانة يتلهى بها النسوة في مجالسهن، ويداري الرجال عن فعلتها بقولهم:

- اللّه يستر على ولايانا.

لم يكن رجل هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رجلاً حكيماً. كان أقرب إلى العُته منه إلى الحكمة. فحين قبض عليهما، لم يرضِه سوى ترحيل محمود إلى السجن العام والاتصال بذوي جليلة لاستلامها من مركز الهيئة. ومن هناك تعفّرت سيرتها وأصابها العطب. ولم يكن أمامها من ملجأ تلجأ إليه لمواجهة طوفان الأقاويل، سوى الدخول في العبادة ونسيان الماضي. لكن هذا الماضي ساكن في أعماق كل من يعرفها. فيفور كلما حاول أحد الاقتران بها. وتكون أقرب الجمل على ألسنة من حوله:

- تتزوج بفتاة ضُبطت مع رجل وصل إلى مفاتنها من غير جهد.

رواية حسين المقسومي

أسباب انحرافها

نشآ معاً. يكبرها بخمس سنوات. تعلق بأهدابها منذ أن كانت صغيرة. أحست بثقله كأرض تبحث عن جبال تثبت روعها. كانا يسرقان من بعضهما البعض، لذةً خدرة بتقابل عيونهما. وحين توغلا في عمرهما، لم يعد بالإمكان تخبئة كل تلك المسروقات.

عبرت أيام فرض الحجاب بمشقة، فهاجسها كان يعكر فرحتها بهذا التغير الطارئ. تهيج هواجسها متسائلة: كيف لها أن تخبئ وجهها عن ضوء عينيه اللتين تمنحانها التجدد والحياة. تلك الغلالة التي غلفت كل جسدها، جعلتها تكتشف فوائد النوافذ في البيوت المغلقة. فمع دخول الليل، يكون وجهها مشرقاً تحت نظراته المتوهجة.

وتمادياً في إشباع نهمها به، فكرت أن تستدعيه إلى داخل البيت. وظلت تعمل لتحقيق هذه الرغبة لشهور. فحين يأوي كل شيء لحلمه، تفيق هي لتجدد حلمها به، بنشر حديد نافذتها الخارجية من أقصى أطرافه.

وعندما لم يعد يطيق بعداً عنها، فاتح أباها برغبته على بوابة المسجد قبل أن يأتي بذويه لخطبتها. صدم الأب لطلبه ونظر إليه متعالياً:

- أنسيت من أنت حتى تتقدم لخطبة ابنتي؟

- وماذا ينقصني يا عم؟

- أبوك لا يزال أجنبياً، وأنت متجنّس حديثاً. . .

- أبي سكن هذه المدينة منذ خمسين عاماً.

- دع عنك هذا، فأصولك لا تزال أجنبية. فكيف لك أن تطلب فتاة قبيلية من أصل سعودي صرف؟

- وهل ذكر الرسول الجنسية السعودية أصلاً ومنشأً، كشرط لقبول الزوج؟!

- أتسخر مني يا قليل الحياء؟

ومضى يلعن كل من سهّل تجنيس من لم يدخل في الجغرافية السعودية.

اكتشف (محمود) فجأة أنه غريب. فأبوه الذي قَدِم إلى البلد منذ خمسين عاماً، لا تزال الأرقام الرسمية تعامله كأجنبي. وذريّته التي لا تعرف أرضاً سوى هذه الأرض، هي نبات وضع في أصيص، عليه أن يزرع جذوره في تربته عاجلاً أو آجلاً.

رفض أن يدخل عليها من النافذة التي أنجزت نشر حديدها. طلب منها ملاقاته خارج البيت. وفي الموعد المحدد، كانت تجلس إلى جواره محبورة، وهو يقود سيارة متهالكة منشغلاً بمفاتنها عن رؤية الطريق. طاف بها حول كورنيش جدة. وقبل أن يستقرا في مواجهة البحر، اعترضتهما سيارة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. خرج منها رجل قصير تسيل من وجهه حماقات الدنيا، أنزله من السيارة بجفوة وتنحّى به بعيداً. . .

- من التي معك؟

ارتبك كثيراً:

- أختي!!

فجذبه من ثوبه مبعداً إيّاه عن مقدمة سيارته:

- ابقَ في مكانك...

ومد رقبته إلى داخل السيارة:

- من هذا الذي معك؟

- زوجي!!

فارت في داخل ذلك القصير لذةُ النصر، فتحمس بتسديد لكمة على وجه محمود احتاج معها إلى القفز ليصل إلى بغيته:

- يا فاجر!!

وفي مكتب الهيئة، اجتمع حوله أربعة رجال يتنافسون بهمة أيهما يحظى بلقب القلب القاسي. كان أقصرهم أشرسهم. يضيق عليه الخناق:

- كم مرة ضاجعتها؟

- لم أضاجعها.

- هي تقول إنك ضاجعتها مراراً. إذا اعترفتَ بأنك ضاجعتَها، يمكن تسوية الأمر!!

- قلت إني لم أضاجعها بتاتاً.

- إذا جئتها من دِبر!!

- لا من قِبل، ولا من دِبر، فأنا أحبها وأرغب في الزواج منها.

قفز ذلك القصير ليسدد صفعة على وجهه:

- الآن تريد أن تتزوجها يا كلب!

- أريدها على سنّة اللّه ورسوله، زوّجوني بها.

- كلكم يقول هذا القول عندما تقعون في أيدينا، وإذا لم يقبض عليكم، تعقرون بنات الناس من غير رادع ديني. السجن سيجعلك تكف عن اللعب ببنات الناس.

وحين يئسوا من تثبيت حالة الزنا، سجلوا محضرهم على أنه اختلاء محرّم واقتيد محمود إلى السجن. ونادوا على أبي جليلة لاستلامها. فخرجت من توقيف الهيئة فتاة لا عمل لها في الحياة سوى طريقين: إما ممارسة البغاء، أو الدخول في العبادة، كحل ينسي الناس براءة حب غلّف بكيس نفايات وقذف في برميل قمائم، عبثت به جِراء لا تعرف أن فيه ورداً كان يعد فتنة لليلة عرس، تنهي لوعة طويلة.

رواية إبراهيم الديني
(صديق محمود أخذ منه الحكاية
حينما كان يزوره في السجن)

خروج جليلة

كان لها مخرج سري، قامت بهد جدار منزلهم المطل على الشارع الخلفي، ووضعت له ديكورا يظهره كتحفة تزين بها غرفتها، وكانت تتسلل من هذا المخرج ليلاً، لمقابلة من تختاره من شباب الحارة.

نميمة سعدية أبو الحسن

نشر الحديد

لم يكن الباب مخرجها السري الوحيد، بل عمدت إلى إيجاد منافذ كثيرة داخل غرفتها التي حبست بها. وانشغلت أثناء حبسها، بنشر حديد نافذتها من أقصى أطرافه. وفي الليل تزيله لتستقبل عشاقها داخل غرفتها بدلاً من الخروج إليهم. .هي أشبه بالماء دائماً تجد لها منفذاً.

نميمة خيرية الجميني

علاقات جليلة

قصصها مع شباب الحارة لا تنتهي، فكل يوم لها علاقة مع أحدهم. ولم تكتف بهذا الحد، بل تعدّت ذلك إلى إيقاع كبار السن في حبائل غرامها. ألا تذكروا الخرف بالحطاب الذي تقدم لخطبتها مراراً، ونذر أمواله لها ولأهلها، وكاد يصل إلى بغيته، لولا أن الموت تذكره، ورحم أبناءه من تبديد ثروته على فتاة لعوب، لم ترحم صغيراً ولا كبيراً.

نميمة رقية صابرين

سلوك جليلة

كانت تتحرش بالرجال منذ صغرها، وتطفح ملامحها بسعادة الدنيا، حينما يضعها الرجال في أحضانهم...

نميمة زينب باموسى

سبب العداوات

عمدت إلى إعطاب هاتف منزلهم، ليظل مشغولاً طوال الوقت، لتوهم كل شاب بأنها كانت تحادث سواه، فأكسبتهم عداوة بعضهم.

نميمة ليلى الظاهري

فقدُها لبكارتَها

تقدم لخطبتها عشرات الشباب، فلماذا رفض أبوها تزويجها؟

ببساطة لأن ابنته فقدت عذريتها من وقت مبكر. وخشي إن زوّجها، أن يفتضح أمرها ويلحقه عارها، كما ألحق العار بأبي يوسف!

وأبو يوسف هذا له أخت تدعى جليلة، كان محسن الوهيب سبباً في مقتلها ومقتل أخيها في ما بعد.

مقولة العجوز مريم بركات

هروبها الليلي

بعد أن فاحت رائحتها، أقامت أمها حضراً صارماً على دخولها وخروجها. وكي تهرب من هذه الرقابة اللصيقة، عمدت إلى النوم عصراً، والاستيقاظ بعد منتصف الليل، لتخرج إلى عشاقها بعد أن تضع في مرقدها وسائد تغطيها جيداً، وتنسل من أحد المخارج التي أعدتها لتكمل الليل مع عشاقها. وفي ليلة احتاجت إليها أمها لغرض من أغراض المنزل، فذهبت لإيقاظها، واكتشفت أن ما يبقى على سريرها مجموعة من الوسائد المغطاة. فانتظرتها لتجدها تتسلل مع خيوط الفجر إلى غرفتها من خلال النافذة، فأمسكت بشعرها الطويل صائحة:

– إذا كان لا بًد من صياعتك، فأحبي بنتاً أكثر ستراً لك ولنا!!

نميمة ثريا أبو زيد

طريقة خروجها

... واللّه إنها كانت تأتي إلى ابني في أنصاف الليالي، وهي مرتدية ملابس رجالية، وتطرق عليه الباب وتقضي معه الثلث الأخير من الليل. وعندما شككت في هذا الصاحب الذي يأتي في مثل هذا الوقت، تلصصت عليهما، فاكتشفت أنها هي. فقمت بطردها، وحذّرت إبني إن لم يكف عن مصاحبتها لأتبرأن منه.

نميمة فاطمة يوسف

في أحضان. . . ؟

عندما اشتعل الحريق في بيت تركي الشمري، استغلت انشغال الحارة بإطفاء الحريق، وقضت كل الوقت في أحضان عشيقها.

نميمة بدرية العجيلي

أسماء لها علاقة بجليلة

لم تترك أحداً من أبناء الحي إلا وعقدت معه علاقة. الكل يذكر علاقتها بمحمود، وغريب، وعمر، وحسين. إنها لا تتورع عن عقد صداقة مع أي رجل، حتى إنها علّقت شفيق القبّار بحبائلها.

نميمة نورة عياش

محض افتراء

كل ما يقال عن جليلة محض افتراء. فاللّه يعلم أنها فتاة مهذبة على دين وخُلق عظيمين. وكل ما يقال عنها غير صحيح. «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين».

قول مدرِّستها ياسمين
في مدرسة تحفيظ القرآن

جليلة العابدة

كانت صوّامة قوّامة.

قول صديقتها حورية خياط

أسباب أخرى للعداوة

جمالها الطاغي أكسبها عداوات كل نساء الحي. ولم تكن تلتفت إلى غمز ولمز النساء من حولها. وكان جميع شباب الحارة تخالجهم أمنية أن تكون زوجة لهم. ومن يكبرها يتمناها لابنه أو أخيه، لكن ماضيها وقف ضدها دائماً.

قول زميلتها في المدرسة فاتن المديني

صلاة وموت

قبل موتها بدقائق، أيقظت أهلها لصلاة الفجر، وذهبت إلى مرقدها ولم تقم.

قول عمتها زينب الوهيب

دهاء البنات

من يقدر على بنات هذه الأيام، فهن أدهى من ثعلب.

قول امرأة عجوز (لم يثبت اسمها في المحضر)

عرج بها!!

روى أحد قاطني العمارة المجاورة للمقبرة، ويدعى خليل الليموني أنه رأى في ليل دفنها ملاكاً ينزل من السماء ويحملها، على ظهره، ويغيب بها في السماوات العليا. فسخر منه جاره عثمان الحسين: أتظنها مريم؟

فتضاحك الحضور. وحين انطلق فمه ليقسم بما رأى، بادره عثمان صائحاً: كيف رأيت وأنت تختلط عليك الرؤيا على بعد خطوات.

فقال متحمساً: وهل تظن الملك عصفوراً، هذا ملك غطى جهة المقبرة كلها!!

ناقل هذه الحكاية

سعيد بن أحمد (مخبر مستجد)

اتفاق على الهرب

نظام القبور الحديث مكّن هذه الساقطة من الهرب، ولو قُبرت في لحد، لقضت على نفسها قبل أن تفكر في مثل هذه الفكرة.

وقد سمعت أنها اتفقت مع عشيقها على هذه الفكرة لتهرب معه.

مقولة لمياء البار

شخص مجهول

حين يراها قادمة يترك كلَّ شيء ويسير خلفها حتى يواريها باب العمارة. كانت تبدي جزعاً مهولاً في مشيتها حتى إنها

حرصت في أحيان كثيرة على اصطحاب أحد اخوتها أو السير مع صويحباتها.

رواية مسري توفيق

كرسي داخل المقبرة

يقولون وجدوا كرسياً داخل القبر. يبدو أن عشيقها ساعدها على الخروج من القبر بهذه الوسيلة.

قول جارتهم خالدة الياني

شخص حاول فتح القبر

كنت في الشرفة أقوم برفع الملابس من على حبل الغسيل، ورأيت رجلاً يحمل كرسياً ويسير بين القبور. بعد أن هبط من على سلم ثبته على الجدار الخلفي للمقبرة، وتوقف عند قبر يحاول فتحه، فثارت زوبعة غبار رفعته عالياً وهوت به على الأرض، ليلتهمه ذلك القبر ويطبق عليه بقوة. فأصابني الخوف وأسرعت إلى داخل شقتي.

مقولة جارتهم ميسون الثتري

ادعاء

أبوها أول من اكتشف أنها هربت من القبر. حين جاء ليقرأ عليها الفاتحة، وحين عرف فعلتها، ادعى أنها سرقت من قبرها لكي لا تمرغ سمعته في التراب، كما مرغتها سابقاً، حين قبضت عليها الهيئة.

مقولة صالح البيار

واتفق مع أخته لمياء في ما قالت

جليلة الطاهرة

بكتها كل الحارة، لطهارتها وحُسن أخلاقها، حتى أن القبّار شفيق لم يتمالك نفسه، وظل يبكي، ولم يقدر على مواصلة عمله، واصطف مع أهلها لتقبل العزاء.

مقولة جابر الباني

فقد بكارة

عندما قبضت الهيئة عليها، كانت قد فقدت بكارتها من وقت مبكر، وأرادت بهذه الحجة أن ترغم أهلها على تزويجها من محمود بعد أن اكتشفت أنها حامل منه. ويبدو أنها هربت لتضع حملها بعيداً عن أعين أهلها والجيران.

نميمة هدى القماش

القبض عليهما

بعد أن رفض أبوها تزويجها من محمود، اتفقا على الهرب، لكن رجال الهيئة قبضوا عليهما قبل أن يبلغا الحدود.

نميمة نجاة الحربي

الجليلتان

رأيت محسن الوهيب يجلس في غرفته كالصنم، أظنه كان يتذكر عشيقته التي ماتت بسببه، أو أنه ندم على تسمية ابنته باسم

عشيقته التي قُتلت. ذرية بعضها من بعض!!

خبر من مقولة الشيخ يوسف الميمن

* * *

أوقفت عشرات الرجال والنساء في محاولة للاقتراب من تلك المقولات المدونة في سجلات القضية، بعضهم تبرأ من المقولات المنسوبة إليه، وأكدوا انها انحرفت عما قالوه انحرافاً كلياً. والبعض أكد مقولاته مع تصحيحات عديدة. أما المخبرون والمخبرات فاحتجوا على تعنيفي لهم لعدم دقة المعلومات التي جلبوها، وأكدوا أن مهمتهم تنتهي بإيصال المعلومة من غير تأكيدها.

في كل تلك المساءلات، بقي اسم محمود يتردد كماضٍ ملوث ارتبطت به الهاربة في مغامرة مبكرة من حياتها. فهل عاد الشاب ليأخذ حبيبته بطريقة لا تثير الشكوك. ولم يكن أمام جليلة هذه المرة سوى إعلان موتها والهرب من الموت للحياة؟

كان هذا السؤال يخالجني، حينما تغلب احتمال هربها من قبرها.

(١٤)

«إنّ كيدهنّ عظيم».

هل تفعلها زوجتي، تدبر مكيدة وتتخلص من الرباط الذي أوثقتها به رغماً عنها. كنت أعلم بعشقها لابن خالتها، ومع ذلك طمعت في استلالها لنفسي. ليلياً تمنحني جسداً بارداً أجوب بساتينه كضال كُتب عليه التيه، فأمعن طَرق المنافذ المحرمة. ليلياً أخرم جسدها كمخرز بيد امرأة عمياء، أقدمت على رتق ثقب صغير. شبقي بجسدها يمدني بطاقة مكنة صنعت للخطوط الطويلة، تتربص بشبقي المنسكب على مفاتنها، تربُّصَ سارق بمسروق. ألمح عينيها، وهي تتأمل منظري، وكأني ذئب جائع حام حول فريسته، وغرس نابه في وريدها حتى إذا استلقت، لعق دمها منتشياً. وكلما حاولت النهوض، مصّ وريدها، حتى إذا خارت قواها ولم يعد بإمكانها تفادي نهش لحمها استسلمت في رقدتها لتشهد تلذذ من ولغ دماءها باشتهاء. في مداخلتي لها تكون خارج اللحظة، خارج اللهاث المحموم، كمن يتأمل مشهداً ليس له فيه سوى تقزز الدماء الملطخة بين جسدي الفريسة والمفترس.

مسجون في هذا الزي، أقفز من مكان إلى آخر، لإثبات حقيقة ضالة. بينما الحقيقة التي أعرفها داخل جدران بيتي، أطمسها وأمعن في تزييفها وإقناع نفسي بأني أخفيت معالمها.

ملعون أنت يا فواز. لا تفتأ من إلقاء أحكامك لتُرينا أنفسنا. فلسفتك للأشياء، جعلتني أقترب من ذاتي، وأتعرف إلى الخلل الذي يعتريني.

نعم، الحياة قائمة على الاجتثاث، الأخذ والتبديل، الزيادة والنقص. شعرت بالامتلاء والزيادة باستلالها لنفسي، ونقصت هي باقترانها بي. اجتثثتُها اجتثاثاً، وكلما أردت استعادة هدوئي، كانت تفيض بوجودها على وجودي.

وهذه الحياة السريعة التي نصمها بالاستهلاكية، تجتثنا، وتترك فجوات اجتثاثنا فاغرة أفواهها. فلا نعود لنقصاننا ولا نطمئن لانتقالنا.

- أليس هذا تعليلك لكوارثنا التي نعيشها يا فواز؟

تنبه صانعو الحياة إلى مواقع اجتثاثنا، وابتكروا كهوفاً أرضية، وأنفاقاً بلا منافذ، كأدوات تهديد لإعادتنا إلى حالة النقص. وساقونا من أقاصي الأرض للسخرة. لم تعد مناكب الأرض كما خلقها اللّه. . غدا كل فعل محرم، وكل حركة مكروهة، وكل نغمة غير مستحبة، مفردات اجتثت من أصولها. وتحولت الفروع إلى أصول، عملية تبادلية قائمة على الاجتثاث. هذه الكارثة التي نعيش فيها من غير تمحيص في كنهها، حتى المفردات الفقهية، توزعت على كل الألسنة. غدا الأطفال

مفتونين بإطلاق الأحكام الشرعية، وأغلقت منافذ المباهج وسعرت الحياة. . . وعشنا داخل سجوننا، علينا أن نسبّح بحمد رعاة الفضيلة أولئك، الذين يدركون أو لا يدركون، أن الزمن أداة اجتثاث ضخمة، نفنى قبل أن نكتشف اللعبة.

آه يا فواز، كنت ألعنك في سري لتموجاتك التي تحدثها في داخلي. أما الآن، فلا ضير من الجهر بما يعترك في داخلي. كلماتك جعلتني أكسر اعتدادي بنفسي، وأجبره في كل حين مقتفياً مقولاتك. أعيش بين الكسر والجبر. فأي جحيم تطبق عليه مفردة الاجتثاث التي تحملها كل هذه الخلخلة؟

آوي إلى مخدعي، تاركاً إياها تتزين، وأسترق النظر إلى ملامحها. أحاول اختلاس داخلها، من غير أن تشعر، ألمحها. تتأمل جيدها ونحرها المنتهي بنهدين ملّهما صدرها من طول حملهما بهذا التوتر والاستواء. هل تكره هذا الجزء من جسدها؟تكره منطقة اجتثاثي لها. ففي هذه الرقعة من جسدها يفور شبقي. أمسك حبل وريدها لأرتوي منها. في لهاثي الأخير، أحرص على مص وريد جيدها، وأترك دليل سعاري ملطّخاً عنقها بلعابي الذي يعلن هزيمتي من الوصول إلى اجتثاثها كاملة. فأسقط عليها كنجم غوى فأحرق نباتها، وأرضها معاً، فتلمّ جسدها، مشمئزة وزاهدة عن مطارحتي ذلك السعار المحموم.

هل تتبل جسدها في زينتها المتريثة؟ وتلقي به في صاج آخر، لتنضج بزيته كما لا تنضج تحت غلياني!

– الجنس هو الداء الذي لن تتخلص منه البشرية

هذا هو التفسير الذي أطلقه فواز حينما أخبرناه - أنا وأيمن - بهذه القصة:

أحدث ضجة عنيفة على بوابة الجريدة. أرادها أن تكون فضيحة مدوية. جمع أطفاله الخمسة وصوب عليهم بندقيته. انتابته حالة من الهستريا:

- سأقتلهم جميعاً!

ابنته الصغيرة معلقة بجذعه، تمسح دموع عينيه ولاتعرف سببا لتهيّجه. قبل أن يكمل تهديده، كنا نقف بموازاته، بعد أن وصلنا تبليغ مستعجل عن الحالة... كان التبليغ يضخ من صوت مرتبك:

- اقتحم رجل مبنى الجريدة يقود أولاده ويهدد بقتلهم جميعاً.

وعلى الفور تحركت ثلاث دوريات إلى مقر الجريدة.

كان رجلاً خمسينياً، حاول إبعادنا، بوضع فوهة بندقيته على رأس ابنه البكر:

- لو اقترب أحدكم فسأبدأ به...

أي جنون هذا الذي يدفع برجل إلى اغتيال فلذات كبده؟ الأطفال في حالة فزع، ملتصقون به، لا يحاولون الفرار. تركوا دموعهم منسكبة وعويلهم يتعالى:

- بابا... بابا

لاتزال ابنته الصغرى تمسح دموعه مرة، وتصلح طاقيته على رأسه، وهو يصيح:

- لا يقترب أحد، سأقتلهم جميعاً!!

تقدم نحوه المقدم أيمن ناس، صوّب بندقيته باتجاهه صائحاً:

- لا تقترب سأقتلك؟

- أنا جئت لمساعدتك.

- أريد الصحافة أن تكتب وتصور مقتلهم؟

- ستكتب ما تريد، ارحم أطفالك الآن، فهم خائفون عليك.

- هؤلاء ليسوا أطفالي. علِّقَتهم في حلقي وهربت مع شاب لم يتجاوز العشرين من عمره.

خيانة.

في كل لحظة ثمة خيانة تحاك على هذه المعمورة.

ها هي جليلة تعود، ورجل آخر دهسته عربة الجنون المسرعة، فسحقت جمجمته، وهو يبحث عن خيط دم يتوازى في قوته مع ماحدث...

الخيانة...

من هنا تجري مياه النتن الأسري، والتفكك العائلي، والجرائم الصغيرة والكبيرة. كلها تأتي في عربة واحدة، وتنقلب في عرض الشارع.

كانت الطفلة الصغيرة لا تزال ملتصقة بصدره، مواصلة مسح دموعه، وتثبيت كوفيته كلما أوشكت على السقوط.

استماله المقدم أيمن بمنحه كلّ الوقت لأن يشتم من يشاء حتى تمكن من مخاتلته وإسقاط المسدس من يده، فاختل توازنه، ومع سقوطه حرص على ألا لا تقع طفلته على الأرض.

رفض المقدم أيمن أن يقوده إلى مكتب التحقيق. استعجل قدوم سيارة الإسعاف، وحمله وأطفاله إلى داخل المستشفى لإنقاذ حالته النفسية من الانهيار الكامل. وبالغ في تدليل أطفاله، مطالباً أطباء المستشفى بالكشف الدقيق على كل طفل على حدة.

قوبل تصرّفه بالتهكم والازدراء، من قبل العميد إبراهيم العامر، حين خرجت الصحيفة في اليوم التالي حاملة عنوانا فضا: رجل مجنون يهدد بقتل أطفاله الخمسة.

انتفض أيمن على مكتبه صارخاً:

- لا أحد يريد أن يطبب الجرحى.. فهذا الرجل طعن في كرامته، ولم يجد منفذاً للتعبير عن جرحه، سوى التهديد بقتل أطفاله...

تمنيت أن أقول له:

كلنا جرحى. ليس شرطاً أن تجد دماءك تسيل على جلدك، ثمة دماء غير مرئية.

تتعرى البلاد في مركز الشرطة. ويختفي المجتمع المثالي تحت قاذورات تصب من كل الجهات. قاذورات تصيبك بالرعب من هول الجرائم المتوالدة والمنتمية لأعراق الفواحش المتباينة: زنا، لواط، تحرشات، اغتصابات، سرقات، مخدرات، مشاجرات، قتل، هروب آباء، هروب فتيات، خيانات، دعاوى

مالية، تدليس، غش، شكاوى عظيمة وشكاوى سخيفة، مجار من العفن طفحت على سطح الأرض، ولا توجد قنوات كافية لتصريف كل هذه المياه القذرة.

يشبّه فواز المجتمع برجل أنيق سار في الطرق الموحلة، رافعاً ثوبه، بينما قدماه مغروستان في الأوحال، تتسلل منهما الفيروسات والفطريات إلى بقية جسده، فتصيبه القذارة والمرض معاً.

أصيب السجن العام بالتخمة. هو المكان الوحيد الممتلئ على الدوام. الذاهبون إلى هذا الطريق بحاجة إلى الترشيد، بحاجة إلى تنظيف صحائفهم من تهمة الجريمة، كي لا يتحولوا إلى أسماك غادرت ماءها، ولم يعد لها من مكان سوى علب لا يتم ختم حفظها جيداً. وحين نعود لاستهلاكها تصيبنا بالتسمم.

تربطني صداقة بكثير ممن يلجون إلى داخل السجن. أجريت تحقيقات متعاقبة معهم. كنت أعد رسالة للحصول على الماجستير. اخترت لها عنوان «أثر السجن على تشكل سلوك السجين». وفي جلسات عديدة، كان السجناء يظهرون كرهاً مبطناً للمحيط الخارجي. ومن ألف السجن لم تعد تطيب له الحياة خارجه، وهذه الفئة تبرر مداومتها على العودة أن الحياة خارج السجن تحتاج إلى سمعة ناصعة، تمكنهم من العيش. إلاّ أنّ صحيفة السوابق السوداء، تعيدهم لزنازينهم، ليعيشوا بسمعة متساوية مع أقرانهم.

ثمة سجناء، لا أرتاح لمحادثتهم بتاتاً. مع يقيني بمرضهم النفسي، الا أنني لا أستطيع حمل نفسي على الحديث معهم. وأشعر ببغض مضاعف عليهم. هم سجناء السفاح واللواط. . .

قدم إلى السجن أستاذاً جامعياً يبحث في أسباب تزايد الشذوذ (السفاح واللواط)، طالباً مساعدتي لمجالسة هذه الفئات. ولم أكن بمزاج رائق لسماع تبريراته، والظروف التي قادت لتنامي ظواهر الجنس الشاذ... قاطعته محتداً:

- ما دمت قد وصلت إلى نتيجة التزايد فلماذا البحث؟

- أنا لم أصل إلى النسب بشكل دقيق، ولكنها ظاهرة جديدة لم يكن يعلن عنها، والآن بتنا نقرأ في الصحف وبيانات وزارة الداخلية (في تطبيق القصاص)، عن مثل هذه الجرائم. كما أني أود الوقوف على الأسباب والمسببات؛ هل هي طارئة بسبب المتغيرات، أم أنها مستأصلة في النفس البشرية، وفي أي مجتمع سواء كان مفتوحاً أو مغلقاً...

- الحياة تسوء كثيراً...

- لالا، الحياة أجمل مما تتصور. ومايحدث، هو نتاج انفتاح وانغلاق، واعذرني ربما يكون موقعك سبباً في رؤيتك هذه.

لم أكن مستعداً لتجاذب الحديث عن رؤيتي. كان داء فواز لايزال يسكنني. منحته سجل تلك الفئات، وكلفت أحد الرقباء بمصاحبته إلى السجن العام لحضور الجلسات معه، تلك الجلسات التي حددت لهذا الغرض...

كان نوال (وهو سجين شاذ لا يرد على من لا يناديه بنوال أو يمنحه صفة الأنثى) أكثر السجناء خروجاً ودخولاً. فما إن يدخل، حتى تخرجه الواسطة قبل أن يكمل الشهر. ونوال هذا، يجيِّش من يصادفهم من أمثاله من السجناء، أو يستقطب أصحاب

المياه الراكدة بفعل السجن، لأن يكونوا زبائنه داخل السجن وخارجه...

أحلت ملفه إلى السجن العام أربع مرات في فترة تسلمي قضايا الحي الذي يقطنه. وفي كل مرة أحاول نهره، يبدي أنوثة طبيعية، تشككني في جنسه أصلاً...

اقترحت ان تجمع هذه الفئات في عنبر مستقل، كي لا يزداد الوباء انتشاراً. وبعثت بمقترحي لمدير السجن. ولا أعرف ماذا حدث لمقترحي.

لم أكن حريصاً على تناول هذه الفئات ضمن دراستي لأسباب تكاثر هذه الآفة الاخلاقية. وحين وجدت رسالة من رسائل جليلة تشير جملتها الفاضحة إلى دعوة أمها لها بممارسة السحاق، عدت أقلّب النتائج التي توصل إليها ذلك الأستاذ الجامعي. كانت دراسته مفجعة حيال انتشار ثلاث آفات جنسية: السحاق واللواط والسفاح، انتشاراً مفزعاً. وكانت الدراسة مقرونة باحصاءات وجداول، تظهر مسببات تنامي النهم الجنسي الشاذ، متخذاً من الأماكن المغلقة نموذجاً. وقبل أن أغرق في مسببات هذا الانحراف الفطري، تبين لي أن الرسالة التي وجدت بين رسائل جليلة، كانت رسالة دخيلة على بقية الرسائل. فالخط والأسلوب مختلفان عن بقية الرسائل الاخرى. وكان المرجّح أنها رسالة احتفظت بها من إحدى صديقاتها.

والذي أكد أنها رسالة دخيلة، وجود رسالتين كتبتهما لمحمود، تشير أولاهما إلى أن صديقة لها، تعاني من استلاب إرادتها أمام النساء، وتهيّجها أمام النساء ذوات البشرة السوداء

تحديداً. ورسالة أخرى تشكو له انحراف بعض زميلاتها في الثانوية وأن إحداهن تقدم على تعريض بكارتها للخدش، بحثاً عمن تلصق به تهمة فض البكارة. إلا أن أمها توصيها بمعاشرة النساء، قبل افتضاح أمرها تحت جسد ذكوري، يدهك سمعتها وسمعة ذويها. لم تكن الرسالتان مفصلتين، حيث تداخلتا بين عشق النساء ذوات البشرة السمراء، وبين النهم الجنسي بالرجال...

كنت أجلس في مكتبي حائراً معظم الوقت، ومحاولاً التملّص من عملي لأقف عليها فجأة. ربما تفعلها في غيابي. تدس ابن خالتها في غرفة نومي، وتمنحه زهرة رغبتها من غير اشمئزاز كما تفعل معي. .في كل مرة أباغتها بزياراتي، يكون مسدسي محشواً برصاص، يكفي لإنهاء ثلاث أنفس دفعة واحدة.

تلقيت بلاغاً يقضي بسرعة التواجد بحي البخارية. شاهد الجيران أحد قاطني الحي، يحمل مسدساً ويقتحم غرفة زوجته... حين وصلت، كانت جثته تجاور جثتها، وصراخ متواصل من طفلتين لاذتا بركن الغرفة بعيون زائغة وصراخ نضب فحيحه.

انتهت تحقيقات هذه القضية، بتوالد حكايات عن خيانة الزوجة زوجها، حيث تلجأ إلى إدخال موزع أنابيب الغاز إلى مخدع الزوجية مع الظهيرة. سؤال عشوائي محشو بالديناميت، انطلق من فم ابنته الصغرى:

- لماذا نغير أنابيب الغاز يومياً؟

ربض أسفل بيته. ومع قدوم عامل الأنابيب، كان مسدسه

ممتلئاً يكفي أن ينهي حياة الخائنين من غير عناء. التحقيقات لم تتطابق مع ذهنية القاتل. فالعامل لم يكن متواجداً في بيته. والسؤال لم يكن كاملاً من ابنته. فقد أسقطت كلمة «لا» من سؤالها. . . وكانت ترى العامل يصعد يومياً إلى بيت جارتهم العزباء والتي تزوجها سراً، فأثار شكوك الجيران، واتهمت فيها امرأة أخرى، أنهت حياتها شائعة وسؤال ناقص.

- هل أنهي حياتي بشك لم أتأكد منه تماماً؟

غلب هاجس الجنس على تفكيرنا. لم تعد ثمة علاقات طاهرة. فالخيانة كالهواء، تدلف إلى داخل منازلنا بمجرد فتح الباب، فواز يتغلغل هنا كثيراً:

- تحول ذاكرتُنا الجنسية كلَّ فعل وكلَّ مفردة إلى عملية جنسية كاملة. . .

حينما استدعت المدينة البدو والريفيين، حدث اجتثاث: تمَّ نقل ثقافة ساكنة إلى ثقافة متحركة، فتحولت المدينة في أذهانهم إلى رمز للفساد والانحلال. والخشية من سلوكها جَعْلَ الثقافة الساكنة تنكمش داخل ذاتها، في أنماطها السلوكية الثابتة، قبعت متخوفة من المتطور والمتغير. كان اجتثاثاً مضاعفاً، حين اصبح العصر أكثر سرعة وتواصلاً، ومع ثورة الاتصالات حدث تقليب وتجريف مهولان في الثقافة الكلاسيكية، والتي لم تصمد بأدواتها البدائية أمام طوفان المتغيرات. صاحبتها رغبة ملحة لدى الكثيرين للتمتع بما حرموا منه ردحاً طويلاً من الزمن. ولكي تُهرب الثقافة الساكنة ذاتها، حملت لواء التحريم، كمقابل رادع، لإيقاف الاجتثاث العالمي. لكل زمن أدواته، وهذا الزمن مكشوف، يحتاج لعري كامل ليعبر عن كينونته. أبونا آدم كان

في عالم مكشوف ولم يكن بحاجة إلى ستر عريه. وحينما دخل إلى الزمن البطيء، احتاج لشيء يتناسب مع اللغز، مع الأحجية المقبلة.

احتاج فواز إلى زمن طويل لإيصال فكرته، التي جوبهت باعتراضات من زملائنا بالمقهى. في كل مرة تُنقض فكرته وتسفَّه، من قبل أحد مجموعتنا، التي تقضي ليلها داخل المقهى، في لعب الورق، أو تبادل الأحاديث العامة.. استخف برأيه حسين أبكر عندما علل تواجدنا داخل المقهى، بالهروب الدائم من مواجهة ملل أسرنا. واتهمه بالعلمانية، حين شجع قيادة المرأة للسيارة. ولم يكتفِ بهذا الاتهام، بل أقسم على مقاطعة مجموعتنا تماماً.

وخسرنا أحمد المبارك، عندما تحدث فواز، أن المرأة شريك مباشر في حياتنا تم تحويلها إلى منطقة محمية، خشية من أن تصوب عليها العين، أو تكون معتركاً للرغبات أو جذبها للفراش في غفلة منها!كل هذه الاحترازات، سورت المرأة داخل محمية كبيرة، خشية أن تظل في شوارع المدينة. فالمدينة (في الثقافة الساكنة)، تحولت إلى عاهرة. كل من سار معها، تلوث بنجاستها. فحدث انغلاق. وكما اجتثت الحياة البدو والريفيين من مواقعهم، بفعل الاحتياج والانتقال من حالة إلى حالة، قاموا بردة فعل عكسية، واجتثوا عنصر التطور من تلك الحياة، ليحولوا كل فعل إلى عادة، وعادة رتيبة مملة، كانتظارهم مواسم الأمطار، أو الإنبات، أو الرعي، أو القنص. فالثقافة الساكنة تسير منتظرة مواقيت معلومة. وهذا ما يفسر أننا نسير وفق ردة الفعل، وليس إحداث الفعل، مع وجود فرضيات لما يحدثه ذلك

الفعل. ومن هنا تولدت العادة والانتظار. هاتان الممارستان لاتصلحان للمدينة المتحركة التي تذهب إلى الحياة. ولا تنتظرها. وبسبب حياة العادة والانتظار. استوطنت حشرات اليأس والخشية في المجتمع. تحول كل شيء إلى عادة: العبادة، العمل، الزواج، الأسرة. الحياة برمتها أصبحت مجرد ممارسة عادة يومية، وأبقينا نساءنا في عادة الانتظار خلف الجدران العالية يبحثن عن منافذ للقضاء على السأم.

وأنهى توصيفه بهدوئه المعتاد:

- وحين وجد القادمون إلى المدينة أنهم مطحونون بين ساكن ومتغير، اختل توازنهم النفسي. ومن غير دراية، أخذ كل واحد يبحث عن منفذ، يطل من خلاله على الحياة.. غير مكترثين بالأداة التي نحطم بها الجدران المحيطة بنا لإحداث فجوة. وليس مهماً بأي الطرق نقتفيها، لنتلصص من فرجات النوافذ.

الذاكرة العارية هي ذاكرة الأصل، ذاكرة الحرية، بينما الذاكرة الحافظة هي ذاكرة الأنظمة والمنع....

صرخ به أحمد المبارك:

- هل تريد ان تمشي نساءنا عاريات لينشرح خاطرك.

- لم أقصد هذا تحديداً. ولو سايرتك في مقولتك، سأقول لك لماذا لا تستعر رجلك أو خشمك أو صدرك حينما ينكشف أي منها. أليست هي أعضاء من جسدك تفتخر بها. وهناك من يفتخر بأعضائه التناسلية أمام النساء.. القضية ليست في

العري نفسه. أنا أتحدث عن عري الذاكرة وتغليفها. الذاكرة الأولى التي صنعت كل هذه الموانع.

لم يطق احمد المبارك البقاء، فانسحب من جلستنا، تاركاً دوره لمن يليه في لعبة البلوت، التي توقفت في محاولة لإسقاط مقولات فواز.. ومن لم يحاول، كان قد شطب على فواز وأدخله إلى مرحلة الإلحاد مبكراً.

منذ أن كنا طلاباً، وفواز لا يرتهن للمقولات الجاهزة. يرفض الانصياع إلى أي أمر، قبل أن يمحِّصه بالحوار والنقاش. مدرسونا مجتمعين يكرهونه تماماً. هذا الكره غدا ثقلاً يسير به في كل منعطفات حياته.

فشل زواجه بعد مضي ثلاثة أشهر. كان يبحث فيها عن امرأة تحتويه. وكانت تبحث فيه عن مكينة صرف آلي، تقتحم به متاجر جدة مجتمعة. ففضل أن يكون عازباً. وكلما أشرنا عليه بالاقتران بإحدى الفتيات قال: أريد امرأة كطبقة لا تعد كلماتي خرقاء حين أتفوه بها...

يمضى الليل يرتشف نبيذاً يصنعه بنفسه. ويصاحب فلاسفة القرن الثامن عشر والتاسع عشر ككانط وماركس وانجلز وأوسفالد. وحينما نجتمع، يفلق رؤوسنا برؤى فلسفية. نمنحه آذاننا من غير رغبة في الاستزادة في أحيان كثيرة.

ليس على وفاق مع النظام بتاتا. فيمازحه أيمن: لو عملت في المباحث لأوصلتني إلى رتبة متقدمة من وقت مبكر...

تعودت سماع مقولات فواز: في أحيان كثيرة يخلخل قناعتي. وأتبنى في كل مرة رؤيته، وأحاول تطبيقها في حياتي

اليومية. والمقولات التي سالت من فمه، وأغضبت زميلنا المبارك، أردت تطبيقها على زوجتي. وحين انتُدبت لتحقيق في قضية الفتاة الهاربة من قبرها، بدأت أبسط نظرته على قصتها.

ووفق نظرته، ربما أجد مسوغاً مقبولاً لهروب جليلة. ليس جليلة لوحدها، بل لهروب الفتيات بعامة؟

ليس هربها منفرداً. باتت الصحف تزودنا بهروب فتيات كثر. حدث اجتثاث، وخلف فجوة مهولة بين المجتمع وطرق معيشته.

حسنا، فتاة لا تريد أن تقع ضحية فخ، حفر في فجاج الأرض. وضاقت طرق الاختيارات. ولم يعد أمامها سوى نفقين: إما أن تدفن في حياة جبرية أو أن تهرب إلى حياة، ستجد انتقالها إليها يحقق لها الامتلاء. وكان خيارها الهرب، لتحمي خطواتها المقبلة من الانزلاق في فجوة، لن تجد فيها إلا الردم...

ثمة وباء يستشري، وثمة حياة يؤخذ منها رحيقها.

العميد إبراهيم العامر في منأى من التهام هاجس القلق. بقي وحيداً في الحياة، بعد أن هيأ ابنتيه بشهادتين جامعيتين. واودع زوجته قبرها منذ وقت مبكر. وأبقى نظره حارساً على خطوات الابنتين من غير شطط، متسامحاً في سلوكهما المدني الجالب للهواء النقي كما يزعم. كنت أصمه سراً بالإباحي، حين أجده حريصاً على مغادرة المكتب، لاصطحاب ابنتيه إلى شاليهات توزعت على كورنيش جدة الشمالي لتمارسا السباحة. أمسك بي من يدي ذات ليلة:

- المرأة مثل الرجل في مشاعرها، فلا تقص جناحيها وهي تعلم أنك تقوم بهذا الفعل. طر معها...

علم أني لم أستوعب جملته تماماً، عندما كنت أستجوب شهود العيان في جريمة جثتي حي البخارية. وهاتفت زوجتي من مكتبه، مبدياً غلظة وجفافاً في ردودي. وما إن أنهيت مكالمتي معها، حتى أطلق جملة طويلة من غير أن يتقاسم نظره وجهي وشيئاً آخر كعادته:

- لو أن النساء عشن حياة طبيعية كما عاشت جداتنا وأمهاتنا، لما اتسعت عيونهن، وبحثن عمن يملأ حفرهن بماء تحرص على التخلص منه كي لا يقفن عاريات تحت مباضع لا تحسن القطع أو الطعن. حتى إذا أنهين عملية سريعة ومقتضبة، شعرن أن الذباب عافهن وأن عليهن أن يتخلصن من نجاستهن.

يومها أحسست أنه يطعنني في زوجتي. هل علم بخيانتها حتى يقول قوله الفج. في كل مرة أكتشف اني أقف في الجهة الخطأ تماماً...

ظلت كلماته تلوب في مخيلتي. ففتحت عليه باب مكتبه بعنف:

- ماذا تقصد بكلامك الذي تفوّهت به قبل قليل...

تمطى في كرسيه كبالون نُفخ أكثر من حجمه:

- كنت متيقناً أنك لن تفهم. المرأة متى ما استطاعت أن تفعل كل شيء أمامك، لن تحتاج إلى الاختباء... ويبدو أن هروبهن وخيانتهن، مرده لسجن أسري يطبق عليهن ولا يفتح

أبوابه مطلقاً... أردت أن أبلغك هذه الرسالة، وأنت تحقق في جريمة تبدو في ظاهرها أنها خيانة... نحن من يقوم بتجهيز عجينة الخيانة.

«نحن من يقوم بتجهيز عجينة الخيانة».

ربما تكون هذه الجملة أجمل ما قالها العامر في حياته على الإطلاق.

موت ودفن وهرب.

كيف خطرت على بال هذه الملعونة فكرة جهنمية كهذه. آه الموتى لا أحد يبحث في ملامحهم عن جرم اقترفوه، وهم مجندلون في حفرهم. من هناك تستطيع أن تتشكل من جديد.

فهل لزوجتي تشكُّلات لا أعرفها؟

وهل تقززها واشمئزازها هروب صامت من سجن لا تفتح أبوابه مطلقاً؟ وهل سيأتي يوم ينفجر فيه صمتها على هيئة فضيحة مدوية، كما فعلت جليلة، وكل النساء الهاربات إلى مضاجع عشاقهن؟

كنت ألعن العميد إبراهيم وفواز معاً مردداً:

- نعم، نحن من يقوم بتجهيز عجينة الخيانة!

(١٥)

جلست كمصوّر غمر فلمه تحت الماء، وأخذ ينتظر انقشاع غبش الصورة. كانت ملامحها تتراقص من تحت ماء الأقاويل شيئاً فشيئاً.

* * *

سمته مهيبة.

ها هو محمود يجلس أمامي مباشرة. استدعيته، فماطل كثيراً قبل أن يستجيب، كان نافراً كصقر وقعت مخالبه في دراعة حمامة، أعدت للإيقاع به من سمائه الشاهقة.

يجلس على طرف المقعد المواجه لمكتبي، بوجه عابس، كالوجوه الملكية المسكوكة على العملات القديمة. تجلس بمهابة التاريخ المزور الذي لا يعنيها اكتشافنا له، بقدر رسوخه في ذاكرتنا. أسدلت غترته على كتفيه من غير ترتيب، يخلخل لحيته الكثة، تاركاً بصره يتلهى بين قوائم الكراسي التي وضعت على الجانب الأيمن من المكتب. وشفتاه تتمتمان بأدعية خفيضة. رغم عبوسه، كان ساكناً خاشعاً، وكأن روحه أنهت مدة عقوبتها، وانطلقت إلى فضاء فسيح، من غير أن يعلق بها شيء،

فيبطئ انطلاقها.

تشير الأوراق الرسمية إلى أنه أودع السجن منذ سنوات، بتهمة الاختلاء المحرم. وغادره إلى مدارس تحفيظ القرآن، فإماماً لمسجد التقوى، فمجاهداً في جبال أفغانستان. وثمة اشارات تسللت من مكاتب المباحث، تشير إلى أنه رجل غير موثوق به أمنياً. لم يحضر دفنها أو مراسم عزائها. أحرقني صمته وجموده. كنت أفكر في طريقة ملائمة لزحزحته:

- متى عدت من أفغانستان؟

- قبل تفجيرات ١١ سبتمبر بشهرين

- ولماذا تذكر هذا التوقيت تحديداً؟

- لأختصر عليك الوقت!

- أي وقت؟

- حصر من عاد قبل التفجيرات وبعدها!

- تقصد التفجيرات الداخلية؟

- لا، قصدت تفجيرات سبتمبر...

- بالمناسبة، ماهو موقفك منها؟

- هل تستجوبني بشأنها الآن؟

- لا، ولكن كونك إماماً وخطيبَ مسجد، أحببت معرفة رؤيتك لها، فرأيك يصبح عاماً وله معتنقون...

- إن قصدت تفجيرات ١١ سبتمبر فلن تكون الأخيرة، وأميركا تستحق أكثر من هذا. فـ«اللّهُ متمٌّ نورَه ولو كره

المشركون. وستذوق هي وأعوانها أحداثاً مماثلة، وقريباً إن شاء الله.

- أراك واثقا مندفعاً.

- لقد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم.

تباطأ الحديث كثيراً. افتعلت تقليب أوراق الملف الذي أمامي. وجهه يهش ضجراً زائداً، وعيناه تمسكان بتحقير متعمد:

- هل علمت بوفاة جليلة.

- الله يتغمدنا بعفوه ورحمته.

- يقولون إنك على علاقة وثيقة بها؟

- ...

- متى رأيتها آخر مرة؟

- ...

- لماذا لا تجيب؟

- اللهم اغفر لنا ولها ما سبق من جهلنا وغفلتنا!

أظن أنه لا يمكن لهذا الحجر أن تزعزعه امرأة، بعد أن استوطن هذه الدعة. أم يكون اطمئنانه هذا، هو اطمئنان من استعاد حقه المسلوب. .كنا نتبادل كلمات شحيحة ونصمت. نحدق في بعضنا في عجلة. ونعاود اختلاس النظر كلص يستعد لسرقة لص...

غرقت في شرودي، فلم يعد من الممكن مفاتحته بشيء. صمتي الثقيل، واستراق النظرات الخاطفة لعينيه، جعله أكثر

استفزازاً وعدوانية:

- ما زلتم تُوْدِعون المجاهدين في السجون الضيقة، وتُلصقون بهم تهم الارهاب؟

باغتني بهذا السؤال. رفع غترته على كتفه الأيسر، متطلعاً في ما حوله:

- أعلم أن أمثالنا يتم التحقيق معهم في غرف المباحث الأرضية، وليس داخل مكاتب الشرطة!

- وهل تظن نفسك من الإرهابين؟

- ...

- لم تجبني؟

- كل من نادى برفعة الإسلام والمسلمين غدا إرهابياً في نظركم.

- على فكره ما هو رأيك في التفجيرات الداخلية؟

- ...

- لم أسمع ردّك.

- لا أعرف سرَّ وجودي هنا. مرة تسألني عن جليلة، ومرة عن الجهاد والمجاهدين ومرة عن التفجيرات. لماذا أنا هنا تحديداً؟

- نحن نتحدث.

- ليس لديَّ ما أقول.

خشيت أن ينحرف حديثنا. تعلمت من مهنتي، أن المتهم يجذب المحقق في الاتجاهات التي تقلل ارتباكه، وتمنحه رباطة جأش، كي لا تنزلق من فمه كلمة تشي بتلاطم أعماقه...

- لا عليك، أنت هنا معزز مكرم. فقط أردنا استيضاح مسألة تعنيك، وليس لها علاقة بجهاد أو إرهابيين.

- وما الذي يعني رجلاً مثلي في مكاتب الشرطة؟

- أنت سجنت قبل سنوات بتهمة الاختلاء المحرم، نريدك أن تحدثنا عن علاقتك بجليلة.

- جليلة!... مضى وقت طويل على ذلك.

وانطلقت عيناه في الفراغ. علي بمباغتته وهو في حالته هذه:

- هل صحيح أنكما اتفقتما على الهرب؟

- كنت غراً وغافلاً حين وافقتها على فكرتها.

- هل أعتبر هذا اعترافاً؟

- اعترافاً بماذا؟

- بأنك هرّبتها.

- أي هرب تعني؟

- جليلة هربت من قبرها.

- وهل يهرب الموتى.

- يقولون إنكما رتّبتما هذه الفعلة، لكي تهرب معك.

انتفض من جلسته مستغفراً:

- لم أظن أن بك من الخرف ما يوصلك إلى هذه الترهات.

وخرج على الفور. كنت في أعلى حالات الاسترخاء، حتى إني لم آمر بإيقافه.

(١٦)

أبدى العميد العامر امتعاضاً لتأخري في الوصول إلى نتيجة. وازداد سخطه، حين علم بأني تركت محمود يمضي من غير أن أضعه تحت عيني. قذف بالقلم المتحرك بين أنامله:

- كيف تركته؟

- حدسي أنه خارج دائرة الاتهام.

- هل تتحرك بالحدس. آه حسناً، قل لحدسك أن يخبرنا مع من هربت هذه الملعونة.

- ... (هذا البالون منتفخ بالنجوم التي على كتفه).

- تقول حدسك. ما رأيك أن تستعين بك الدولة لمعرفة من خلف هذه التفجيرات الموزعة في كل مكان ... هههههههههههههه

- ... (كيف لو تم دفعه بالسيفون، ليختلط بمياه الصرف الصحي؟).

- هي فكرة جيدة. ألا تعرف أن العامة يشيعون أن سرعة الانجازات الأمنية في القبض على اللصوص والارهابين، مردها إلى استعانة أجهزة المخابرات بالسحرة والمشعوذين... تعرف هذا؟

- ... (كيف ستكون حاله لو نتفت شعرات من شنبه؟).

- سحر إيه، وحدس إيه، حلُّ القضايا بحاجة إلى معلومة وسرعة.

- ... (عاد كالكلب المسعور. كيف أشاغله. لا شك في أن الزملاء يسمعون صراخه الآن).

- اترك حدسك لتحل به شؤون حياتك، أو الاستفادة منه بعد أن تخلع هذه البذلة لتجالس المخرفين والعاطلين.

- ... (هل أستطيع أن أبادله شتيمة بشتيمة؟).

بلغ ضيقه حداً، جعله يهذي بكلمات، لا يليق أن تقال من مثله. وأنهى فورة غضبه بالضرب على مكتبه:

- تحرك بشكل صحيح، أو أترك القضية برمتها. فأنا لم يعد لدي الضابط الكفء، الذي أعتمد عليه في القضايا الشائكة.

- يبدو عليه الصلاح الزائد.

- هذا هو مكمن الخطر!

- هل غدا صلاح الناس خطراً؟

- ألا ترى أن كل مصائبنا جاءت ممن يدّعون الصلاح.

هؤلاء يقولون إننا كفرة وأنظمتنا كافرة. ومثل هؤلاء، لا يتورعون عن فعل أي شيء. فلاشك انه هرّبها، وأسكنها في بيته بفتوى شرعية تحلل له ذلك.

* * *

تخيرت وقتاً يكون فيه خارج منزله، مداهماً بيته بقوة قوامها أربعة أفراد. اقتحمنا داره الملاصق للمسجد. كنت أعبث بمحتويات غرفته. ويصلني صوته ندياً عبر مكبرات الصوت، وهو يؤم المصلين صلاة العشاء. وكلما قذفت بقطعة من أثاث غرفته، شعرت أني أنتهك كرامته بفظاظة وعنوة.

بيته ملحق بالمسجد. فقد عُهد إليه بعنايته وإمامة المصلين. تزوج بأخت مجاهد عربي جزائري، حينما كان في أفغانستان. وأخذ يتردد عليها في رحلات متتابعة، حيث لم يستطع إدخالها إلى البلد، رغم المحاولات التي شفع فيها بعض الدعاة.

اكتشفت هذا لاحقاً.

غرفته فقيرة الأثاث. زهدت من أجهزة عديدة: كالتلفاز والثلاجة والبوتغاز. الجهاز الوحيد المتواجد (في تلك الغرفة الممخضة برائحة دهن العود)، جهاز مسجل ترامت حوله أشرطة دعوية ووعظية. ونسقت مجموعة من الكتب الدينية حول سريره ذي المرتبة الوحيدة، وخزانة ملابس، وأدوات مطبخية متواضعة استقرت في جهة ملحقة بالغرفة. أثاث فقير في كل شيء.

يبدو أن بعض المتأخرين عن الصلاة، تنبه لوجودنا داخل

بيته، فأخبروه. فسرعان ما وقف على عبثنا بداره بسحنة، جاهد أن تبدو طبيعية:

- لم تستأذنوا في الدخول إلى بيتي، أم أنكم لا تقرأون القرآن؟

- ...

- ألم يعد في هذا البلد حرمة لأحد؟

- نحن في مهمة ولدينا إذن بتفتيش بيتك.

- التفتيش عن ماذا؟

- أنت تعلم أن قضية هرب جليلة لا زال التحقيق فيه مستمراً، وأنت شخص رئيسي في القضية.

- قل إنكم تبحثون عن شيء في أوراقكم وتتذرعون بهرب جليلة.

- وما يخيفك إن فتشنا بيتك.

- أنتم الخائفون. فمن جاهد في أفغانستان أو ناصح ولاة الأمر غدا عدوَّكم. تتربصون به وتبحثون عن أي شيء يدينه، هنا أو في بلد صديقتكم أمريكا.

- آلاف ممن ذهبوا إلى أفغانستان لم نصل إليهم، وتفتيش بيتك لارتباط ماضيك بجليلة.

- وهل وجدوها بين الكتب أو في الأشرطة؟

- سنجدها.

أشارت يده لنا بالانصراف، وعيناه لا تزالان تمسكان

بتحقير متعمد. أمرت الأفراد بالخروج، مخترقين تزاحم بعض المصلين المتجمهرين خارج البيت، وثمة تعاطف يندلق من أبصارهم مع إمام مسجدهم. اعتذرت له لما أحدثناه من فوضى في غرفته. ومضيت صوب سيارة الشرطة، بينما ارتفعت نبرة صوته:

- قل لمن بعثك: كما أسقطنا دولة الإلحاد وأرعبنا عظمة أمريكا، سنسقط الطواغيت البانية ونرعبهم في مراقدهم.

هممت بالعودة إليه، وجذبه من ترقوته، فمسوّغ سجنه يمكن صياغته بالكيفية التي تبقيه داخل السجن، يبحث عن دود يأكل عظامه، بدلاً من الانتظار الذي لا ينتهي. العميد إبراهيم العامر له فوائد في أحيان نادرة. تذكرته حين لا يحمل مقولات الغاضبين فوق طاقتها. إلا أني لم أمنع نفسي من التفكير:

- من يقصد بالطواغيت البانية؟

لو كان يقصد ما يدور في خلدي، حتماً ستكون نهايته البحث عن كل دود الأرض، ليرحموه من انتظار انقشاع ظلام الغرف المنتنة.

(١٧)

تقع غرفة جليلة في أقصى البيت، من الجهة اليمنى منه. تصطدم نافذتها المطلة على الخارج بمخزن للمواد الغذائية، لا تسمح بالتسلل لقطة هاربة من يوم مطير. شبكها من الحديد الصلب المتشابك بتقاطع على أشكال دائرية ومربعات متداخلة... بينما بقيت نافذة تطل على الشارع الكبير، أغلقت بقطعة حديد كبيرة، ولحمت من جميع أطرافها. فغدت غرفة مظلمة، أقرب لمخزن حبس هواء فاسداً، مبقياً على رائحة أنثوية، تنقشع عتمتها بإضاءة مصباحين جانبيين.

وجدت نفسي أقف في منتصف غرفتها. لا أعرف لماذا أغفل المحققون السابقون تفتيش غرفتها، أو أنهم فعلوا ذلك ولم يدونوه. كان كل شيء في مكانه، كأن صاحبته لم تغادره، إلا منذ لحظات قليلة.

غرفة أثثت بأثاث بسيط ومتنوع. دولاب صنع محلياً، مكون من درفتين بمرآة داخلية. سرير حديدي بسطت عليه مرتبة من إسفنج رقيق. وملاءة بيضاء رسمت عليها أشكال هندسية متباعدة، لونت بلونين: الأخضر الزاهي والرمادي الأشهب،

جدران الغرفة دهنت بطلاء حليبي. استقرت لمبتان في تجويفات السقف المائل للبني المحروق، والذي يشي أن من قام بدهن الغرفة لم يحذق صنعته جيداً، حيث فضحت التوازنات اللونية خبرته.

لا تزال بقايا شعرها الكستنائي الطويل، عالقة بمشط خشبي عتيق. مشط يُقتنى للتفاخر به أكثر من استخدامه في مهمة تسريح شعر كثيف وسلس. قارورة عطر نفد عطرها، وبقيت بلا غطاء. أدوات بدائية مكونة من مكحلة ومرود وحبات خرز متعددة الألوان والأحجام. اكسسوارات رقيقة الحال. مسجل وأشرطة لدعاة معروفين، اختلفت عناوين محاضراتهم: عذاب القبر وأهواله، واجبات المرأة المسلمة، الغناء ومزامير الشيطان، مناصحة ولاة الأمر... سجادة بهتت ألوانها في موضع السجود. سرير غُطِّي بملاءة نظيفة أُتقن كيُّها. دولاب صغير رُصّت به فساتين، ومجموعة من الملابس الداخلية والبجامات، تضوع منها رائحة الأحياء. في أسفل الدولاب حزمت رسائل ممزقة، تقطعت بها حروف حب فاشل... ولا شيء سوى ذلك.

* * *

سُدّت كلُّ الطرق.

لا يبقى شيء كما كان من قبل. ثمة تحريفات تحدث بفعل الزمن. الزمن يستهلك الأشياء كما استهلكنا... ثمة إعادة صياغة لكل حالة. لا يمكن لشيء أن يثب عبر الزمن كاملاً. الحياة قائمة على النقص والزيادة. كل الأشياء تخضع لقانون التغير. الاجتثاث هو لعبة الزمن، ومن الاجتثاث تتولد الزيادة أو النقصان.

- أليس هذا ما تقوله يا فواز؟

علي أن أفكر بطريقة مختلفة. التفكير وفق طريقة الاجتثاث. أن أقف خارج عقلية البحث. أن أستعير أدوات الحفريات الاثرية، وأقوم بترميم هذه السير، التي علقت بها القاذورات والنياشين في آن. .علي استعادة ما سلبه الزمن منهم، أن أقف على الحالة قبل مغادرتها لحظتها الزمنية. . . أشعر أن ثمة أخطاء متوالية حدثت. ففي هذه القضية، لاتوجد إلا فرضية واحدة. وإذا كانت هذه الفرضية خاطئة، فلا بد أن تكون كل الحلول خارج دائرة الصواب.

قررت أن أبدأ بترميم كل شخصية على حدة، علني أعيد ما اجتثه الزمن.

(١٨)

جزء من سيرة محسن جابر الوهيب... أبي المتوفاة الهاربة

بعد أن شُفي تماماً من عشقه، عاد إلى البحر يتجرع من ماء زمزم الذي لم ينقطع من بيته، خشية من أن تعاوده تباريح الهوى... بقيت لديه عادة سرية يقوم بها كل شهر أو شهرين. فمع انتصاف النهار، يتسلل إلى حيه القديم، ويقتعد مقعده نفسه تحت ظل شجرة جليلة. يجلس ملثماً كصبية، خرجت لملاقاة عاشق لم يحضر. يتلفت يمنة ويسرة. وإذا لم يجد أحداً في طريقه، يقفز إلى تلك الناحية المنزوية، بين تلافيف أغصان شجرة السدر، متحمّلاً وخزات الشوك القاسية. وتهل ذاكرته بصورتها وهي تترنح بين ذراعيه، ودمها يشخب من بلعومها، كصنبور ماء فتح بغير هدى. وقبل أن تعاوده الذكرى كاملة، يهرب صوب قاربه الذي يأخذه إلى أعماق بحر، تساوت فيه المواقع:

- لا شيء يقف في البحر ليذكّرك بجرح قديم.

عاد يذرع البحر بمشقة مضاعفة.

حين ابتعد في البحر، اطمأن ذووه إلى نجاته من عشق كاد يخرم عقله، ويتركه مقذوفاً في الشوارع. لكنهم لم يتنبهوا إلى أنه كان يخزن شيئاً من لوعته. لم يعرفوا ذلك، إلا حينما أطلق اسم جليلة على ابنته الوحيدة...

كلنا يشيّد بيتاً في داخله، ويرتبه كيف يشاء. في ذلك البيت الداخلي، نخبئ ما لا نحب أن يكتشفه الآخرون...

كان يسير كصنم تم ترميمه. لا أحد يعرف مواقع تصدعاته إلا هو. ويحرص تماماً على ألا تظهر لأحد ممن جاورهم في سنواته الأخيرة. جيرانه الجدد، يعرفون أنه صياد كموجة نبتت في البحر، وتمددت على الشاطئ، لتعاود سفرها الأزلي.

صياد، لم تعد مهنته قادرة على جلب الكفاف له أو لأسرته. فبعد أن تم منع الصيادين من ارتياد جزيرة سعد المحاذية لقصر السلام، لم يعد بإمكانه التنقل إلى أماكن الصيد البعيدة لكبر سنه، وتحمُّل تكلفة النقل الباهظة التي لا يوازيها دخل رحلة صيد، لأيام داخل البحر، وعلى الحدود الإقليمية.

تحمّل معاناة تردي مهنته لسنوات طويلة، حتى وصل إلى قناعة تامة، بضرورة ترك البحر مسرحاً لشركات الصيد الكبرى، وتوغلها في السوق، وإسقاط الأسعار، لدرجة أنها أرغمت الصيادين التقليديين على بيع «شكات» السمك بعشرين ريالاً وما دون ذلك.

تلفّت حوله باحثاً عن مهنة يسلك دروبها. فوجد نفسه عديم الصلاحية في المهن الحرفية أو الوظيفية. فتوجه لبيع الخضروات والفواكه... ولم تعد أغنيات البحر كفيلة بجلب شيء من لوعة الأمس...

بعد سنتين من ترك البحر، بدأت العائلة تستعيد عافيتها من فقر اختارهم لحضانته سنوات مدقعة، لا يشمّون فيها إلا رائحة البحر، حين يطفر متجشعاً طحالبه.

عقد الحظ معهم صفقة رابحة، حين حوّل بيتهم الآيل إلى السقوط، إلى منجم يخرجهم من ذلك البيت، قبل أن يطبق عليهم سقفه. فقد وقف بيتهم كشوكة قاسية في حنجرة مشروع توسعة كوبري الملك فهد. فتم وضعه ضمن البيوت المزالة، مقابل تعويض مالي مجز.

بقيت هذه المراهنة قابلة للخسارة لسنوات طويلة. فالتعويض وصل، بعد أن تجاوز محسن حافة الكفاف، وأوشك على مد اليد. وقبل أن يفعلها بليلة واحدة، حصل على تعويض غمط فيه كثيراً. كان مستعداً لأن يتنازل عن نصف حقه، مقابل أن يغاث بما لا يجعله مرتهناً للتسول. لذلك لم يدقق كثيراً في مبلغ التعويض. وفي مبايعة عجلة، تمكن من شراء بيتين صغيرين متجاورين قطن أحدهما وأجَّر الآخر إيجاراً شهرياً، ومع هذا بقي متأرجحاً بين الكفاف والسقوط إلى هاوية السؤال والعَوَز.

عبر الدنيا بكارثة واحدة، تلك الكارثة التي حاول تناسيها بقية عمره. فبعد أن نحرت عشيقته أمام بصره، وتعلقه بستائر الكعبة، غاسلاً أدران عشق أوشك أن يلطخ عقله، سن عادات لا يحيد عنها: البيع والشراء وملازمة بيته، وأداء الصلاة جماعة. فسكن خاطره ونزهت سيرته. فلم يستقبل شتيمة واحدة، بعد أن أخذ من أسفل شجرة السدر، وقبل أن ينزلق إلى نهايته. كانت ابنته قد جلبت له كل الشتائم المدخرة، ليسمعها على دفعتين

قاصمتين. تلقى مهاتفة بضرورة الحضور لمكتب هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحي الكندر، ولم يكن على علم بفحوى هذا الاستدعاء. وقد طرأت بباله أن رقة حاله بلغت أحد فاعلي الخير، وأراد أن يسعفه من ذل السؤال. فاستجاب للطلب، وخاطره يحدثه بانفتاح أبواب الفرج. فاستعان بجاره خليل المسعدي لإيصاله إلى موقع الهيئة. وهناك أُغمي عليه، وهو يتسلم ابنته بتهمة تقترب من إدانتها بانحرافها وانحلالها، لخروجها مع شاب، والقبض عليهما بتهمة الاختلاء المحرم. لأول مرة يضع يده في الاستمبر، ويبصم على أوراق الهيئة، متعهداً ألا يترك ابنته على حل شعرها. وبقيت آثار الاستمبر تلطخ يده، كما لطخت ابنته سمعته التي لم يكن خليل المسعدي أميناً على الحكاية، فأشاعها، بمجرد أن وصل إلى الحي، مُزيداً على الحادثة بهارات استملحها في خلق حكاية منحرفة، تجلب العار الذي لا يُنسى.

ولم يتعافَ محسن الوهيب من هذه السمعة كثيراً، ليأتي خبر موتها وهربها من قبرها، كالصاعقة التي لم تنجز مهمة حرق جثتها القديمة.

في اليوم الثاني لموتها، اكتشف غيابها من قبرها. وظل متأرجحاً بين يقين موتها وإشاعة هربها. كان أشبه ببندول ساعة خرِف يقدم حيناً ويؤخر أحياناً.

* * *

حين استدعيته إلى مكتبي وقف ملثوث العمامة، مبدياً ضجراً زائداً:

- ماذا يعني وقوفي الدائم أمامكم؟ يومياً تغيرون المحقق لأقف أمامه سارداً حكاية ابنتي من جديد. يا ناس خافوا اللّه، مللنا من أسئلتكم. وكأنكم تبحثون عن ابنتي بين كلماتي... لو أنها ابنة أحد أعيان البلد، لما تأخرتم عن معرفة من سرق جثتها.

صمت للحظات، وانطلقت كلماته بغير هدى:

- نعم ربما سرقها أحد المتنفذين بالبلد، ليستفيد من أعضائها...

صمت كمن يستجمع شجاعة خانته:

- كل شيء قابل للسرقة الآن. وليس بعيداً أن كل الموتى سُرقت جثثهم من قبورهم، فليس هناك أحد يحرس موتانا. مجرد خرسانات تغلق وتفتح.

وضع وجهه بين يديه، نازحاً دموعاً إضافية، انسكبت من غير أن يحسب حسابها:

- لم أعد قادراً على مواجهة الناس. الكل يبحث عن ابنتي بأسئلة مواربة، كمن يريد أن يدق مسماراً في أرض رخوة.

يضع عيناه في عيني، ربما كان وجهي خالياً من التعاطف مع حالته، فيبحث عن مفردة تستثيرني:

- سأخبرك، رفعت برقية إلى الملك، واللّه لو لم أعرف طريق ابنتي، لأفتحنَّ كل القبور بحثاً عنها... أو... أو...

لم يجد اختيارات أمامه، ليرفع درجة تهديده بما يكفي.

- يا عم محسن، من غير ان تُجهد نفسك ببعث البرقيات، نحن نعمل بجد ليل نهار، للوصول إلى خبر ابنتك،

قل لي: ألا تشك، ولو للحظة في أنها هربت.

قلب يديه. حرك عمامته، وكأنها جبل غرس في قحف جمجمته، وأخذ يعبث بأنامله:

- كيف تهرب وقد أطبقنا عليها درفتي القبر...؟ أنتم تريدونني أن أشك حتى في نفسي.

فجأة أخذ يبكي بحرقة:

- كلكم تتآمرون على سمعتي، بمحاولتكم إقناعي أنها هربت. لكن داخلي يرفض هذا الخبر. لم تكن ابنتي في يوم من الأيام ساقطة...

وكمن يجر حبلاً انتهى بخطّاف معدني علقت أطرافه بكهف ذي فجوات غائرة:

- خطأ واحد جلب لنا العار أبد الآبدين. كانت عجرفتي وعادات قبلية حجرية، جعلتني أدفعها للخطأ. في بداية شبابها، أحبت إنساناً وأرادها زوجة فتمنعت. قلبها الصغير أرغمها لتتبع خفقانه..لم أكن وحيداً في هذه الجريمة. هي جريمة ناصفتني في ارتكابها هيئة الأمر بالمعروف. بعد أن قبضوا عليها، تحولت سيرتها إلى مستنقع بغيض، جلب لنا كل أنواع الحشرات... المسكينة لم تعد طفلتي المرحة. بعد تلك الحادثة، سكنت في داخلها ولم تخرج منها. تحولت إلى عابدة، لتقنع الناس بطهارتها..كم هي مسكينة، فقدت احترامها لنفسها... لم تفعل شيء، كأي بنت أرادت من تحب...

وأجهش بالبكاء، في نوبة هستيرية:

- آه يا جليلة خرجت لحبيبك فقتلك. وخرجت لحبيبك فقتلك أبوك والناس مجتمعين.

زاد نحيبه. نهضت مربتاً على ظهره:

- إذاً، أنت متيقن من أنها لم تهرب؟

- لم أعد متيقناً من شيء. لكن تراودني فكرة سرقة جثتها. وأهذي بها لمن يأتي إلي. ربما وجدت في هذه الفكرة ما يزيل العار الذي لحق بي...

أظنه بلغ مرحلة اليقين من هذه الفكرة، فقفز من مقعده:

- كما قلت لك، بعثت برقية إلى الملك. كنت راغباً أن أذكر فيها كل التفاصيل. لكن الكلفة الباهظة للبرقية جعلتني أختصر، أختصر كثيراً، اسمع يا بني: في هذه الأيام، لم يعد أحد يملك ضميراً خالصاً. ربما سُرقت جثة ابنتي، وذُهب بها إلى أحد المستشفيات لتشليح أعضائها وتوزيعها على مرضى أعيان البلد وأثريائه. فإذا كنتم على دراية بهذه الجريمة وتماطلون في أسئلتكم، فحسبي اللّه ونعم الوكيل.

توجه مباشرة إلى خارج المكتب. تركته يمضى من غير أن أحاول إيقافه. فاستعاد عنفوانه عند باب المكتب:

- أكرر للمرة الألف: رفعت برقية للملك. واللّه لو لم أعرف طريق ابنتي لأفتحنَّ كل القبور بحثاً عنها.

* * *

هل تحوّلت جليلة إلى مقبرة صبّان أخرى؟

هل تحركت ضمائر عجلة الطفرة لتقل الموتى في مقامرة

آمنة، وصفقات تجارية رابحة، بتحول أعضائهم لقطع غيار بشرية سريعة المفعول؟

حاولت أن أستأنس برأي فواز في هذه الفكرة. فأدخلني في تنظير فلسفي كعادته:

- الاجتثاث، لعبة الزمن، قاعدتها أن تأخذ وتعطي. وفي المقابر لايوجد رقيب. تتم الصفقة بيسر وسهولة. عشرة آلاف (أكثر، أقل) تدس في جيب القبّار، مقابل أخذ جثة حديثة الوفاة لتحيى في عدة أشخاص.

وأطلق ضحكته المفخمة المتهكمة:

- ربما تجد الفتاة التي تبحث عنها، موزعة في بطون شخصيات البلد المرموقة... وعيونهم. هذا هو الاجتثاث السلبي!

وأكمل ضحكته المفزعة، كنت أتمنى لو أنه لم يطلقها.

(١٩)

جزء من سيرة سلمى الغنيمي؛ أم المتوفَّاة أو أو الهاربة

امرأة دكت درجات خمسين عاماً بعزم، ولازالت قادرة على ارتقاء مثلها. قضت طفولتها الأولى، في الخلاء بين المراعي والخيام. ومع جفاف الحياة هناك، لجأوا إلى محطة لتوطين البادية. ومن هناك تحرك أبوها، يحملها مع خمس بنات وثلاثة أولاد. ووجد في مكة ملاذاً لخلق طمأنينة، يسكت بها لواعج زوجة، تخشى على بناتها أن يبقين رؤوساً بلا أسقف، فتربت مع أخوتها بين الصفا والمروى. فنشأت بنفس قانعة، لا تعرف من الحياة إلا جانبها التعبدي. وتناسلت أخواتها مستظلات بأسقف صارمة وغليظة. وبقيت هي متمنعة وغير راغبة في الزواج، خشية من أن تجد وجهها، يتلقى الصفعات، كما كان يحدث لأختها الكبرى، التي تأرجحت بين بيتها وبيت أبيها. وخشيت أن تكون كأختها الوسطى، التي انتقلت مع زوجها إلى مدينة شرورة، ولم تعد لزيارتهم، منذ أن اقترنت بذلك الجندي، الغائب في غبار صحراء الربع الخالي. أما الأختان الباقيتان، فإحداهما تورطت مع زوج، يملأ خزانها بالأولاد في كل عام.

ويترك لها مهمة متابعة تفريخه الذي لا ينتهي، ويمضي مسافراً إلى بلاد اللّه، بحثاً عن مخازن يفرغ فيها وقوده الزائد. . . أما الأخت الأخيرة، فكانت أشبه بثمرة تقطف في المواسم، حيث يبيت معها زوجها ليلة واحدة في الأسبوع، ويمضي بقية الأسبوع في توزيعه على زوجاته الأخريات بالتساوي. وقد جعل لأمه ثلاثة أيام، يتخلص فيها من أدران زوجاته الأربع ودناستهن!

وتفرق أخوتها الذكور في دروب الحياة، كل واحد منهم منغمس في عمله، تاركاً رقبته سلّماً يتعلق بها الأولاد، ومتطلبات حياتهم التي لا تنتهي.

كانت تقف على بوابة السلام، تنتظر أخاً لها، اتفقا أن يصليا الفجر معاً، بدلاً من تأدية الصلاة في منزلهما المجاور للحرم من جهة السعي. واحتاجت إلى دورة كاملة لكي تصل لباب السلام، في عادة تعلمتها من أمها، بحثاً عن حصد حسنات مضاعفة، كلما طال مشوار الذهاب لتأدية الصلاة.

راق لها منظره، وهو يقتعد آخر درجة من بوابة السلام، والحمام يغطي جزءاً كبيراً من جسده. وانشغلت يداه بنثر حبوب الشعير لسرب الحمام المكي، وأسارير وجهه تتلألأ. . . كانت تظن أن ما تشاهده منظر عابر ويمضي. وبعد انتهائها من صلاة الفجر، رأت الرجل نفسه، على مقربة منها في حجر اسماعيل، غارقاً في دموعه، ويده معلقة في الهواء، داعياً ومستجيراً بالله. فرفعت معه يديها، داعية أن يكون هذا الرجل من نصيبها. . . ولا تعرف كيف تداخلت الظروف وتشابكت، ليلتقي بها مرة أخرى، كزوجة أمضت معه حياة وادعة هانئة، بالرغم من شظفها. ولم تعرف قصته مع جليلة، إلا بعد أن انفجرت قصة

ابنتها. ولم يكن لديها الوقت الكافي لنبش صدره.

كانت امرأة تقترب من الصفاء، ولا تحمل بيدها حجر لتعكير ماء حياتها. تسلك أيامها منتظرة الغد بيقين، أنه سيكون أفضل مما مضى... وإذا ضاقت حياتها، تذهب إلى الحرم، وتقتعد مجلساً بين الحجر والمقام. تجلس صامتة معلقة يديها للسماء، وعينيها تهل بغزارة. وما إن تنهي كل احتياجاتها بدعوات متواصلة ملحة، تعود لصفائها وهدوئها ويقينها، أن الغد سيكون أفضل مما مضى...

وكما قدمت الحياة سريعة ومباغتة، تشجّرت عائلتها، وتفرعت منحنياتها، كخريطة لحي عشوائي، تفضي كل أزقته إلى شوارع مغايرة لبعضها، وتقود إلى تجمعات داخل أسر، تضيق على بعضها، وليس لها من مهمة سوى التكاثر. هذه الأسر المتشابكة، هلت إلى مدينة جدة، في اليوم التالي لخبر موت جليلة، لتقديم واجبات العزاء، باستثناء الجندي الغائب في صحراء الربع الخالي. وقبل أن تجف أبدانهم من وعثاء السفر، شاع خبر هرب جليلة من قبرها. ففردوا أجنحتهم محلقين في اتجاهات، تبعدهم عن رذاذ العار، الذي قد يطالهم، لمجرد القرب من جثة أنتنت بأسرع مما كان يتوقّع لها. كان زوج الخالة الكبرى، أول الفارين بعد أن ترك وصية في آذان أرحامه:

- الشرف كرصاصة البندقية، متى انطلقت، لا تعود صالحة للاستخدام مرة أخرى.

* * *

جلست أمامي ململة جسدها في عباءة أُسدلت عليها

تماماً، ولم تبن منها شيئاً.

يشع شيء ما من صوتها المتهدج. لم أكن قادراً على قراءة انفعالات وجهها. فعيناها اللتان خبأتهما جيداً خلف حجابها السميك، جعلتني أقف على تشكُّلات صوتها.

هكذا علمني فواز:

- عندما لا تجد منفذاً للوصول إلى وجه امرأة، ابحث في صوتها عن شخصيتها.

أمضى سنوات شبابه، يستمع إلى صوت المرأة من خلال التلفون. وتدرب كثيراً على معرفة نوايا المرأة من خلال كلماتها... غدا خبيراً يلقي نصائحه في هذا المقام:

- غياب الوجه غياب لحضور الشخصية. الحجاب نوع من القطع والعزل. وأظن أننا لا نعرف طبيعة المرأة، لأنها تخبئ وجهها. وبالتالي تحولت إلى كتلة لحم، همنا مضغها من غير الحاجة إلى معرفة قبولها أو رفضها مضغنا لها. بينما يكون الوجه السافر دليلاً صريحاً لمعرفة خبايا النفس، فالروح تخرج متجولة على ملامح الوجه. تقف بين الشفتين. تبزغ من العينين، أو تتراقص على مفرق الشعر. أو تجتاح سهوب الخدين، كراقصة تنبئ بما يعترك في داخلها. يمنع الحجاب اجتثاث الروح، ومبادلتها حالة إنسانية خالصة. لذلك تحولنا كلنا إلى مصاصي دماء، نتشوق إلى امتصاص رحيق الجسد، من غير الحاجة إلى الروح.

ظللت معه وقتاً طويلاً، أتعلم كيف يمكن قراءة روح المرء من كلماته، من غير التحديق في وجه المتحدث. وفي كل مرة،

كنت أحتاج إلى درس إضافي منه، لمعرفة خبايا روح زوجتي، لكنه نفض يده مني، بحجة بلادتي العميقة. هو الوحيد الذي ينكسر أمامه اعتدادي، وأتحول إلى سائل يخشى النهر والتوبيخ!

تكومت داخل عباءتها، حامية أطرافها بجوارب، يبدو أنها جلبتها لهذا الغرض.

لم يوافق محسن الوهيب في البدء على استجواب زوجته. وحين وجدني أتودد إليه، وافق بشرط أن يكون حاضراً معها، فرحبت بذلك.

كانت عيناها، على ما يبدو، معلقتين بوجهه، لتتلقى التوجيهات، بستر الأطراف التي تظهر بفعل الحركة.

تشي تشكُّلات صوتها بأنها تجفف بكاء طويلاً:

- أرجوكم عجلوا بكشف الحقيقة، فالناس أكلوا لحمها ميتة وحية. ولم نعد نطيق سماع ما يتفوه به الناس...

صمتت للحظات، وواصلت البكاء بحرقة:

- طُلِّقت اثنتان من خالاتها، بسبب انتشار خبرها. وهجرنا بقية الأهل، خشية العار والفضيحة.

- هدّئي روعك يا خالة... ساعدينا لنكشف الحقيقة...

- وما الذي أقدر عليه لمساعدتكم؟

- حدثينا عنها قليلاً...

غلبها النشيج وهي تستغفر لها:

- تبدلت كثيراً بعد حادثة القبض عليها. كانت فتاة محبة

للحياة، ودائماً تسرُّ لي:

- لو أن أبي غني بعض الشيء.

أريد أن أسافر. أن أشتري كل ما يوجد في متاجر جدة. كانت تذهب إلى بعض صديقاتها الميسورات، وتعود ناقمة على وضعها. وحين أقول لها: لك جمال آسِر. فترد: ما قيمة الجمال المدفون في العوز والحاجة.

لم يرق لزوجها تسريبها هذه المعلومة فنهرها بجفوة:

- دعي الكلام المعوجّ.

فاعتذرت، ولم تشأ الإكمال. لولا رجائي أن يسمح لها بالمواصلة من غير التعريج على الأحاديث المعوجَّة كما قال:

- أصيبت في طفولتها بحساسية جلدية، أبقتها أسيرة الهرش المتواصل الذي يدمي جلدها. ونصحها الطبيب المعالج، ان تتخفف من ملابسها في معظم الوقت. وعندما كبرت، حرصت على تغطية كل جسدها ليزداد هرشها. وكلما حاولنا ثنيها عن لبس الملابس الثقيلة المستورة تأبى، قائلة: سمعت شيخاً يقول:

- إن كل عضو يتعرى فهو في النار.

قالت جملتها وتنبهت أن حركة يدها صعوداً وهبوطاً تُظهر جزءاً من ساعدها، حيث كان الجورب أقصر مما ينبغي. فأدخلت يديها داخل فتحة العباءة، مطمئنة زوجها ونفسها بهذا الفعل.

- ولم تفلح نصائحنا لها بأنها بين أخوتها...

... حلمت بزواجها من...

تراجعت عن المواصلة، وانتقلت إلى جهة أخرى في الحديث:

... كانت بارّة بنا ...

علمتني أموراً فقهية كثيرة. بعد تلك الحادثة (أنت تعرفها)، لم يعد أمامها سوى الصلاة وقراءة القرآن والكتب...

أظن أنها اقتدت بـ... أنت عارف مَن هو.

تتوقف في كل حديث، حينما يتحرك رأسها باتجاه زوجها:

- كانت في مراهقتها دائمة الوقوف أمام النافذة. كنا ننهرها فلا تنتهر...

خرجت كلماته ساخنة، كمن كان يتآكل من الداخل منذ وقت مبكر:

- ألم أقل لكِ: دعي الكلام المعوج.

ارتبكت كل الكلمات فيما بعد على لسانها، وانقادت إلى الحديث عن العموميات، من غير تركيز أو ترتيب. الشيء الوحيد الذي حرصت عليه، ادخال يديها داخل عباءتها، والبكاء بين الحين والآخر.

(٢٠)

نبذة عن: زهير، خالد، صالح
أخوة الفتاة الهاربة من قبرها

زهير الأخ الأكبر لجليلة، عالق في المحكمة بقضية شيك من دون رصيد.

نضج عوده مع الطفرة تماماً. فأصيب بلوثتها ورغبته في مغادرة حياة الفاقة والعوز. حاول إقناع أبيه بالاستفادة من تعويض إزالة بيتهم القديم، والمتاجرة بثمنه في سوق المقاولات والعقار. ولهذا السبب، قامت بينهما مشاجرات عريضة، امتدت حتى أيقن كل منهما بعدم حصولهما على التعويض، مبعث شرارة اختلافهما، فتصالحا. وتنازل كل واحد للآخر عن أحقاده. ومنح الإبن ظهره للتعليم. وانطلق في متاجرات وهمية، حيث تحول اسمه إلى سجل مفتوح للعاملين الوافدين، ليستخدموه كغطاء رسمي، مقابل تقاضيه مبالغ زهيدة، يجمعها طوال العام وينفقها في الإجازات السنوية بين العواصم السياحية. يضخ وقوده المتجمد في خزانات المومسات المحترفات البغاء. ويعود من هناك مسحوقاً مجففاً كحليب منزوع الدسم.

تزوج مرة واحدة. واكتشفت زوجته أن داخله رخو كأرض طينية شُفطت مياهها للتو. اكتشفت دناءته حين ساومها بين البقاء داخل البيت أو التنازل له عن دخلها الشهري، مستعيناً بلسان بذيء. فاشترت طلاقها برواتب سنة كاملة تبخرت في ليالي السهر والركض في أزقة جدة، بحثاً عمن تذكّره بليالي غانيات المغرب مثلاً. كان شبقاً يرمم مايصادفه ككناس، لا يفرق بين جواهر سقطت على الأرض، وبين قاذورات وضعت في وعاء بلاستيكي. تطليقه زوجته كشف له حمق تصرفه. وظل يبحث عن عروس لها مميزات وظيفية، تبعده عن الارتهان لتلاعب العمال، الذين يسيّرونه معلقاً بمشاريعهم التجارية، من غير أن يغذوه جيداً بما يكسبون من مال.

وفي متاجرة ضخمة، أراد أحد مكفوليه أن يقفز إلى مصاف الأثرياء. فأغراه بأن يكون في الواجهة، مقابل أن يتعهد بتوقيع شيك ائتماني، بمبلغ ستة ملايين ريال، على ان يُسدد آجلا. وأمام شهوة الخروج من عوزه، وضع توقيعه على شيك من دون رصيد، أوقفه في المحاكم أمام خيارين: التسديد أو الحبس.

كان في قفص ضيق. فقد خرج مكفوله بالمال، وترك له الحسرة والتردد على جمعية المعسرين...

غدا كسيف البال، يجتر ذكريات السفريات الحرة، التي منحته فيضاً من الحبور والشعور بالزهو، في مصاحبة الفاتنات اللاتي توّجنه بألقاب ملكية، خسرها دفعة واحدة. وبقي أسيراً لمراسلات متبادلة بينه وبين أولئك الفتيات. يؤجل كل مرة موعد الالتقاء، على أمل أن يمتلئ جيبه مرة أخرى بالمال الوفير، كما

يجب أن يكون عليه صاحب تلك الوعود البراقة. وفي كل الحالات، كان متحسراً على فقدانه نعمة أن يكون طائراً مغرداً في تلك العواصم السياحية.

لم يعد يمتلك من هذه الحياة، سوى حسرته وفراش داخل منزل الأسرة، ومصروف ضئيل يتجشم الأب عناء توفيره. ومع هذا لم يسلم من تحميله تبعة غفلته. فدائماً يردد على مسامعه:

- لو أنك تنازلت لي عن التعويض، لكان حالنا - جميعاً - أحسن مما نحن فيه.

فيعده الأب هازئاً، بالتفكير ببيع البيت الذي يقطنه، حالما يخرج من السجن، كسداد للشيك الذي يجذبه رويداً رويداً، صوب زنازين بريمان.

* * *

خالد محسن الوهيب

خالد، الأخ الأوسط. جاء بعد قَطعتي لحم لفظهما رحم والدته. وهذا هو التعليل الذي تجده أمه مسوّغاً مقنعاً لهزاله الدائم. فجسده مأدبة شهية للأمراض المختلفة. لم يكن هناك شيء صحيح في جسده، سوى بياض بشرته. حتى هذه الميزة، أوشكت على العطب بفعل الحصبة، لولا أن جلده تدارك الأمر، وقام بدفن تلك الحبيبات، قبل أن تسود فجواتها، كدليل ناصع على كونه مجمعاً حكومياً للأمراض. استوطن الربو صدره، منذ أن كان في الخامسة من عمره. وداهمته الحمى الشوكية، حين رغب في مغادرة العاشرة من عمره. وعرفه الجيران من وقت

مبكر، كديك بشري، بسبب سعاله الذي حفر منامهم، وجعلهم يفيقون بحثاً عن وسيلة لردم سعاله، الذي احتاج إلى زمن كي يغادر صدره. وما إن أتموا تسوية ردم سعاله، حتى وجدوه نزيلاً في ضيافة التهاب الكبد الوبائي. وأخيراً تم رهنه لمرض السكري ومضاعفاته.

تورط في هذه الشبكة العنكبوتية من الأمراض، وهو لم يتخطَّ الثلاثين من عمره. وظل في ذهن الجيران، نعشاً يتأهبون في كل حين لحمله إلى الجهة المقابلة لمنازلهم. لكنه في كل مرة يخيِّب ظنونهم، ويخرج من مرض لآخر، بعناد ومكابرة، عجزوا عن غبطته عليهما.

يعرف ردهات المستشفيات، وأنواع الحقن، وأسماء الأدوية، والأجهزة الطبية المختلفة، ويجيد لغات الممرضين والممرضات. فألمَّ بالأردية والفليبينية، والتايلندية، وجزءاً كبيراً من إنجليزية مهشَّمة...

لم تبعده هذه الأمراض الناغلة في جسده، عن قلب أبويه، بل قربته منهما، حتى تحول إلى الإبن المدلل، يحاول أبواه توفير الحد الأدنى من طلباته المقززة.

* * *

صالح محسن الوهيب

صالح، هو الأخ الثالث، أو السلّم الذي يراهن أبوه على إسناده إلى جدار الفقر، والقفز بواسطته إلى الجهة الأخرى. يفاخر به كل جلسائه، كمفاخرة رجل مغمور صافح خادم

الملك. تبقت له سنة واحدة ويغادر كلية الهندسة. وافر التحصيل، حاضر الذهن. تبنته جماعة تحفيظ القرآن كأحد أنجب تلاميذها. كانت تشاغله فكرةُ تركِ كلية الهندسة، والالتحاق بجامعة الإمام محمد بن سعود، ليهيئ نفسه كداعية. وتمادت رغبته في الخروج للجهاد. رغبات شتى عبثت بتفكيره، قلل من عصفها هرب أخته من قبرها. ولكي لا يختل كثيراً، ابتدع نهاية لأخته تتسق مع طموحه!

كان دائم العبادة. اجتمع مع أخته جليلة في حفظ القرآن، مقتديين بصوت الشيخ الحديثي في تجويده، من خلال عدة شرائط اقتنياها، وداوما على الحفظ المقنن بجدولة صارمة.

صالح متيقن تماماً من أن أخته لم تهرب مع أحد. ويذهب يقينه إلى خلق معجزة - خاصة بها - أبهرتني. فيقينه يوصله إلى تقديس أخته. وأنها حصلت على كرامة، بأن غيب الله جثتها، ليحمي جسدها من أن يتفسخ في الأرض، كما تتفسخ جثث الناس!!

* * *

انفردتُ بكل واحد منهم على حدة. كانت ملامحهم متعكرة كثياب سيئة الكي. رجح زهير هربها، معللاً ترجيحه بفساد طينة البنات على العموم، نافياً أن يكون على علم بمن يمكن أن يكون مسانداً لها في هربها. كانت أمنيته أن يعثروا عليها قبل أن يودع السجن، لكي يزهق روحها بيده، ويذهب بعد هذا الفعل مباشرة للآخرة بدلاً من الحبس الطويل والممل.

وصف خالد أخته بالفتاة الحاذقة الكتومة الصارمة. وتتطابق

كرة الهرب مع شخصيتها الباحثة عن الانعتاق من حالة الفقر
لدائمة. وما أقدمت عليه - إن كان صحيحاً - يتطلب تلك
لسمات. ففيها مخاطرة أن تموت بالفعل، لو نسي من اتفق معها
لموعد أو عجز عن فتح القبر. وأنهى حديثه متردداً بين اليقين
ن هربها، وبين ما يتردد على لسان أبويه، من أن شخصاً سرق
جثتها، للاستفادة من أعضائها، خصوصاً وأنها فتاة شابة، لم
شتكِ من أي عارض صحي. وروى من مخزون تجربته
لمرضية، أن هناك أشخاصاً يقتربون من حواف القبور، بسبب
شل أعضائهم، وأن هؤلاء مستعدون لفعل أي شيء، يبعدهم
ن ذلك الانزلاق اليومي.

زمجر صالح غاضباً حين فاتحته بهربها. وأكد صعود
جسدها إلى السماء!!

(٢١)

الرقيب عبد اللّه هلال

أحد كتبة محضر الفتاة الهاربة من قبرها

عبد اللّه شخصية متصالحة مع واقعها، تصالحاً بليداً، لا يوفر شيئاً ذا بال، يحشو به عقله. كل الأمور لديه في ميزانها الصحيح. وما يحدث من حوله، هو نتاج لقدرية أزلية، لا داعي للتمحيص فيها، أو إشغال العقل بما لاينفع.

والنفعية الصائبة عنده، هي المساهمة في جعل الحياة تنزلق إلى حتميتها، من غير اعتراض يؤدي إلى الكفر، ومناصبة اللّه العداء بالاعتراض أو الرفض.

يسميه زملاؤه (نصيبك). يتفوه بهذه المفردة في كل حين. فكل الأمور هي نصيب يصل إليك من غير عناء، أو يصيبك من غير محاولة دفعه.

* * *

العريف ياسر أبو حمد

أحد كتبة محضر الفتاة الهاربة من قبرها

تعفن تماماً داخل مدرسته، ما حمل مدير المدرسة على التخلص من رائحته، التي جلبت مفتشي إدارة التربية والتعليم مراراً، محتجين على تواجد طالب، لا يتناسب عمره مع بقية أعمار زملائه. وكانت الخشية أن يقود الطلاب إلى معرفة ما لايجب معرفته في أعمارهم الدنيا. وإن كانت ثمة خشية مستترة، من أن يقوم هذا الفحل بالتحرش بالصبية الصغار، خصوصاً وانه تم تسجيل محاضر تشكك في سلوكه، حين كان يعمد إلى استقطاب طلاب الصفوف الدنيا إلى دورات المياه، متخذاً من سلطة رئاسته لجماعة النظام، منفذاً إلى تبديد الشكوك على كثير من أفعاله المريبة. وبشق الأنفس، تجاوز المرحلة الابتدائية، بعد ترحيله إلى مدرسة ليلية، ليجد أبواب الشرطة تنتظره، وتقوم بإجلاء معدنه تحت أشعة الشمس، في مهمات لا تخلو من السخرة الذاتية لرؤسائه. تقدم بطلب زواج من أجنبية فرُفض طلبه. كان يبحث عن امرأة تقبل أن تعيش معه، ساترة عجزه المريع في إخراج الكلمات من غير تعسُّر. هذا الشعور الذي انتابه، وجد من يستره له بالقبول بتزويجه من ابنته. فقبل على الفور عرض الرقيب عثمان الملول. وكانت كارثته، أن زوجته تفوقه علماً وتنظيماً: فوجد نفسه مرة أخرى لعبة طيعة بيد زوجته. فكان يخبئ حنقه داخل صدره، باحثاً عن حفرة تستقبل تبرمه الممتد. وبقيت ذاكرته تحوم في مجالها، حينما كان رئيساً لجماعة النظام. فإذا به يتحول إلى عبد بصياغة مبدلة قليلاً. إلا أنه وجد في بدلته ما يعوضه عن هذا الشعور. فحين يكون بعيداً

عن الرتب التي تسومه سوء الخدمة، يتحول إلى كائن شطط، يمارس تبديد حنقه بالصراخ على العابرين من عباد الله. ووصلت إلى رؤسائه عدة شكاوى تفيد بأنه يستغل صغار الوافدين، ويسلب أموالهم، بحجة أنه أحد رجالات الجوازات. إلاّ أن هذه التهمة لم تثبت عليه تماماً فأعيد إلى داخل المكتب. وكلفه رئيسه الكسول، بمتابعة المحاضر التي تصل إلى المركز. وكانت كل محاضره تستند إلى جمل محدودة، حفظ كيف يكتبها، ما يجعل قراءة محاضره متعبة لمن أراد استكشاف المفارقات، أو الخلل في أحاديث من تم استجوابهم.

* * *

رئيس رقباء عائض بن سعيد

أحد كتبة محضر الفتاة الهاربة من قبرها

يصفونه بحمامة المركز؛ وديع ودود لا يتأخر عن خدمة أحد. يقدم نفسه لمن يطلبه. هذا السلوك طمع به الموقوفون والمجرمون. وكاد نفر منهم يفلت من بين يديه، حين كان يقوم بإيصالهم إلى المحاكم أو تسليمهم إلى السجن العام.

وبسبب خصاله الوديعة، عُدَّ شخصية ضعيفة لا تصلح لأن تكون في مكان يستوجب الحزم وتغليب القسوة. فعُهد إليه بعمل إداري، سكن فيه كما تسكن الملفات التالفة. حتى هذا العمل، استُغل من قبل بعض المراجعين، أو زملاء له، في تمرير أو أخذ شيء لايجوز التفريط فيه...

ولأن الطيبين أكلة شهية لمن أدمن ايذاء الناس، فقد ارتأى العقيد نبيل تركستاني، أن هذه الدابة (كما وصفه)، لا تصلح

لشيء. فأوصى بإنهاء خدماته، أو حمله على ترك العمل. وأثناء تبادل التقارير بشأنه، جاءت قضية جليلة، فاستعان به أحد المحققين الذي له صلة مباشرة بأحد الوزراء. وراق له سلوكه وفطريته. فتدخل لإيقاف رغبة العقيد نبيل تركستاني...

وعلمت فيما بعد، أن هذه الرغبة الملحة التى يحملها العقيد تركستاني، هي محاولة لكسر شوكة عائض بن سعيد، لأنه رفض تزويجه ابنته التي طلبها العقيد لنفسه. فتحول هذا الوديع إلى حية، تعرف كيف تلدغ، في أماكن تترك فريستها مخدرة عاجزة عن النهوض.

ويقولون إن عائض بن سعيد استنكف عن أن يصاهر عرقاً ليس عربياً صرفاً. وإمعاناً في إذلال العقيد، نهض ابن سعيد من مجلسه، شاداً قامته وملقياً التحية العسكرية كما يجب، ومتبعاً تحيته بكلمات معدودة:

- سيدي العقيد، لم نتعود أن نمنح بناتنا لغير أبناء قبيلتنا.

وحضر هذه الفضيحة الرائد خالد الموسى، والنقيب مبروك العيسى، اللذان كانا في معية العقيد عند ذهابه لطلب الفتاة لنفسه..ومن فم أحدهما تسللت الحكاية.

* * *

الرقيب ملفي عبيد الله

أحد كتبة محضر الفتاة الهاربة من قبرها

جاء الرقيب ملفي من الريف. جاء يحمل حلم ان يتحول إلى رجل شرطة يفعل ما يشاء من غير أن يُسأل؛ فشيخ قبيلتهم أضاقه الذل والعار، حينما اعتبره منبوذاً، لأنه أقدم على التشبب

بمحبوبته علناً. وكان متجاوزاً عرف القبيلة ومتسامحاً مع أخته بارتداء البنطال فاعتبر ديوثا، وتم نبذه. فحمل أسرته الصغيرة وقدم إلى مدينة جدة. فجأة وجد نفسه داخل طاحونة، ليس له من دفعها إلا السير في دوامتها. نسي حبيبته هناك، خلف عادات قبيلته، وانشغل بتأمين قوت أسرته. وعندما تجاوز عمره الحد الأقصى عرفياً، وجد أنه لا يستطيع الزواج، فانشغل بمتابعة أحدث ما تبثه الفضائيات من أفلام، ترمم شبقه الذي انتهى في زمن العنفوان، حين كانت رؤية امرأة تصيبه بالسعار، ويقضي الليل يقاسم خيالاته، مناظر مختلفة لأي امرأة تعبره أو يعبرها...

عُرف في القسم ممولاً لأفلام الجنس. واكتسب أهمية بهذا التمويل. وتقرّب منه من لايجد طريقاً للحصول على هذه الأفلام. وكاد يفقد أهميته مع البث الهوائي وانتشار القنوات الإباحية. ولكي لايفقد دوره، فقد استطاع استعادة أهميته، بتزويد عملائه بكروت القنوات الإباحية التجارية.

بدأ عمله جندياً مقذوفاً على بوابة المركز، ثم مرافقاً لفريق المداهمات. ومع انتشار المخدرات، وجد نفسه يترقى مع كل مداهمة، يتم فيها القبض على موردي المخدرات، لبسالته في تقديم صدره دون الآخرين. وبلغ به الأمر أن يتبرع بنفسه للبحث عن أماكن هؤلاء الموردين. انتهت بسالته هذه، بطلق ناري استقر بالقرب من عموده الفقري. وتركته يعرج عرجة ينقل فيها خطواته بصعوبة. ولتاريخه الطويل، أبقاه رؤساؤه مسجِّلاً للمحاضر، بعد ان توقفت ترقيته عند الحد الذي بلغه. ولم يعد أمامه سوى البحث عن الكروت المزورة، لفتح شفرات القنوات

الفضائية المحرمة، والتي تقرب له النساء اللاتي ابتعدن عنه، وتبقيه داخل وظيفته التي غدا فيها عديم الجدوى.

* * *

هذه الشخصيات ليست بهذا التهاوي الفاضح. فكلنا نقف أمام بعضنا، مستترين تحت أقنعة، نحملها حين نخرج من أسرارنا. فكل شخصية مجتثة، وحين تقف على أسرارها، تكتشف عمق الاجتثاث الحادث فيها. وهذا يحتاج إلى هتك أسرار كل شخصية، لتقف على ذوات يأخذ منها الزمن ما يشاء، ويترك فجوات اجتثاثه تُملأ بصيغ مختلفة. فنطلق أحكامنا على الأفعال الصادرة أثناء ارتداء الأقنعة. . .

- ليس هناك شخص كامل. . .

هذه الجملة الحقيقية التي نؤمن بها جميعاً وننكرها حينما تُكشف فجوات اجتثاثنا.

دخلوا عليّ منفردين. كان تقطيب وجهي كفيلاً بجعلهم حذرين من التمادي في ازدياد منسوب ذلك العبوس. يلقي الواحد منهم التحية العسكرية بانضباط متناه، ويظل معلقاً في الهواء، كخشبة سُمِّرت من طرف واحد، تهتز كلما أمسكت بها. صورت لهم الجملة كما هي في دفتر المحضر:

حين يراها قادمة يترك كل شيء، ويسير خلفها حتى يواريها باب العمارة. كانت تبدي جزعاً مهولاً في مشيتها. حتى إنها حرصت في أحيان كثيرة، على اصطحاب واحد من اخوتها أو السير مع صويحباتها.

وضعت هذه الجملة أمام عيون الأربعة، وأتبعتها بعدة أسئلة:

- من منكم كتب هذه الجملة؟

- ومن هي الشخصية التي كانت تتبع المتوفاة في حياتها لتصيبها بالذعر؟

- من هو مسري توفيق؟

نفى جميعهم أن تكون الجملة سبق وأن مرت بهم. وأبدى كل واحد منهم حجته بأن الخط ليس خطه. ساعتها تذكرت العميد العامر، ذلك الأديب الذي اكتشف موهبته متأخراً. فتحركت إليه:

- سيدي، ثمة جملة لا أعرف أصلها. أريد معرفة الشخصية التي كانت تتبع الفتاة الهاربة من قبرها. فربما تكون تلك الشخصية طريقنا للوصول إلى من ساعدها على الهرب، أو أن له صلة باختفائها.

تناول المحضر، وأعاد قراءة الجملة بتأمل:

- نعم، أنا من قام بصياغتها بهذه الطريقة، لأن العريف ياسر كتبها بشكل معفوس. ولم أقدر على كتابتها إلا بهذه الصورة ولا أذكر انه كتب اسماً.

- حسناً، يمكنني أن أعود للأصول.

ضحك ملء فمه:

- مابين يديك يعتبر أصولاً. فأنا أمزق المحاضر التي أعيد صياغتها.

- ولكن هذه الجملة مهمة، ويمكن من خلالها اكتشاف من كان يتبعها.

أصابه الغليان في درجة أدنى مما هو مسجل لدرجة الفوران:

- تبحث عمن يتبعها وهي حية؟ أنا أريدك أن تبحث عمن هربها من قبرها.

زادت حدة نبرة صوته:

- تصلني أخبارك. فقد سمعت أنك قمت باستجواب الطبيب الذي كتب شهادة الوفاة. إضافة إلى صف الضباط الذين كتبوا المحاضر. بينما محمود لايزال طليقاً، لا نعرف له مكاناً. أظنك بدأت تخرف مبكراً.

- أحد أصدقائي في الاستخبارات أشار إلى ان محموداً ليس ممن غادروا البلد، وأنه يختفي في مكان ما.

- أنت تتحرك بشكل خاطئ.

- أنا أقوم برسم القضية من جميع الجهات. وبقي لي شخوص أخرى سأتدبر أمرهم.

بملل مضاعف:

- ما زلت تبحث في سير الشخوص؟ أنت أشبه بمن يمشط شعر أكرد بيديه، ألم أقل لك إنك أشبه بمن بسط خيوط

الأرض مجتمعة لغزل كوفية صغيرة. أنا مضطر إلى إشراك المقدم أيمن ناس في هذه القضية.

- ولكن.

- أرجوك أطلع المقدم أيمن على جميع التفاصيل، واشتركا في حل هذه القضية عاجلاً، أو أتركاها حتى نستعين برجل كفؤ من أحد المراكز الأخرى.

(٢٢)

محمود تيسير الويل

المتهم الأول في قضية الفتاة الهاربة من قبرها

اختفى فجأة. كل الأماكن تبرأت من رائحته. قال المصلون إن آخر مرة صلى بهم صلاة عشاء الليلة التي داهمت فيها الشرطة منزله. ترك كل شيء في مكانه، واختفى. ولم يعد له وجود البتة.

أنكر أهله أن تكون لهم صلة به. وكانوا على استعداد فوري للتبرؤ منه رسمياً لو استدعى الأمر، أو طُلب منهم فعل ذلك. هم مستعدون أن يمحوه من ذاكرتهم، مقابل أن تظل حياتهم هانئة يسيرة من غير تقلبات عنيفة. أمه الكائن الوحيد الذي أبدى انزعاجاً لتغيبه. وبقيت تؤرجح دموعها كلما طرأ ذكره. تخلت أسرته مجتمعة عن الالتصاق به. ولم تعد فخورة بجهاده الذي استمر (خمس سنوات في جبال أفغانستان وسنة في الشيشان ومثلها في البوسنة). ذلك الجهاد حوّل بيتهم إلى خلية تنصت دائم. ولم يعُد يرُق لأخواته تزمته، وإبعادهن عما تستلذ به صديقاتهن من المتع البريئة. فقد أغلق كل الأبواب أمام

شبابهن. وظل يفتح أبواب جهنم أمامهن، كلما فكرن في العيش كبقية صديقاتهن. له أخوان أحدهما أقلع عن إيغاله في التزمت، بادئاً بتشذيب لحيته، ليجد الطريق سهلاً للإيغال في البعد عن الجماعة التي احتضنته، متمنية له السير على خطوات أخيه المجاهد الفذ كما يصفونه. أغلق الباب دون أمانيهم. فأقبلت الدنيا عليه بزينتها. فأوغل فيها بلا رفق. ابتعد كثيراً عن دروب البارود والتفجيرات، سالكاً طريق التجارة والمرابحة في البنوك، من غير ان يوخز ضميره تحريم فوائد البنوك الربوية التي طالما تشاجر مع زملائه في العمل لارتهان رواتبهم في البنوك. تلك الأحكام الفقهية التي نافح بها، لم تعد توخز ضميره أو تعرقل خطواته الحثيثة في المعاملات البنكية المختلفة. وانطلق في مشاريعه، متخلياً عن اسم عائلته، كي لا يجد نفسه حائراً أمام أحدهم، حين يسأله عن صلة القرابة التي تجمعه بالمجاهد والإمام محمود تيسير الوابل. أما أخوه الأصغر فعاش متحسراً على تخلي أسرته عن الطريق المستقيم. وظل قريباً من المسجد، يهرش رأسه لاستنباط فكرة تقربه من الوصول إلى رأس أي كافر لا يؤمن بالله ورسوله. .وانزلق كثيراً حين ربضت مخيلته على أفكار أن البلد كافرة بأسرها، فتشعبت همته لسلوك طرق الجهاد الخارجية والداخلية. . .

محمود، الشخصية القوية داخل البيت، بث أفكاره في كل جهة يتجه إليها. كان حريصاً على نقاء أسرته من رجس الدنيا، فانقاد له جميع أفراد أسرته لحلاوة لسانه وطراوته، وامتنعوا عن كل الموانع التي يراها تزج بهم في جهنم. بقوا على حافة الدنيا، لعلهم يهوون مجتمعين إلى قاع الآخرة متحللين من دناسة

الأرض وما فوقها. كان إدمان أبيه سماع الغناء، المعضلة التي تربك وجوده داخل البيت، وباتفاق ضمني سرى بينهما من غير أن يتفوها به. فمع مقدم محمود من سفراته التي لا تنتهي، ينسل الأب إلى مخدعه، يسترق السمع لغناء أساطين الطرب، من خلال سمّاعة تنتهي بسكب كل الأغنيات في أذنه، منفرداً في غرفة نومه، التي هجرتها زوجته تضامناً مع ابنها فغادرت غرفة الزوجية إلى مكان لا توجد فيه مزامير الشيطان. وشيء آخر استبطنته، حفّزها لهجرانه، ولم تبح به صراحة، وإن كانت لاتخفي تنعُّمها بالتحلل من الواجب الزوجي الذي أرهقها، وفجر ماء الحداء بين فخذيها ثماني مرات، كادت تفقد حياتها مع خروج ابنها الأصغر.

لم تسجل جوازات المخارج خروجه من البلد. كان الاحتمال الأقرب، تسلله عبر منفذ حدودي، والتوجه إلى جهة غير معلومة.

(ثمة تقارير سرية وصلت إلى العميد العامر، ترجح احتمال انتقاله إلى العراق، ليحمّلني بدوره مسؤولية تقاعسي في القبض عليه قبل أن ينفجر في مكان آخر).

حين رآني سفك تهكمه على مسامعي:

- قلت لك: مثل هذه النوعية لا تعدم الوسيلة من الإفلات من بين الأصابع. وما يدريك أن يكون قد تسلل بجليلة عبر الحدود، ونحن لازلنا نتخبط في اتجاهات مختلفة مرتهنين لحدسك.

- أنا على ثقة تامة بأنها لم تهرب معه...

رد متهكماً: بحدسك طبعاً

- سأتدبر الأمر.

- تتدبر أي أمر، وتلك الملعونة قد فعلتها، وتركتنا سخرية لمرؤوسينا، وللصحف التي لم تكف عن نبش سيرتها بين الحين والآخر.

- أظن أن هرب محمود ليس له علاقة بالفتاة، بل بسبب...

قاطعني بفجاجة:

- أنت لازلت تظن وتخمّن وتُعمل حدسك، وأنا أتلقى اللوم والتقريع.

- أمهلني بعض الوقت. فلازلت أتتبع خطوات محمود. أظن أنه لم يغادر البلد بعد. فهناك دلائل.

فار كإبريق شاي لم يتمهل ليصل درجة الغليان. كان على استعداد أن يفور عند أي درجة كانت:

- أي وقت، وأي هباب؟ مضى وقت طويل وأنت كمن يبسط خيوط الدنيا ليغزل كوفية... أنت في حاجة إلى من يعمل بعقله وليس بحدسه...

- ...

- أيها الضابط المحترم، سأخبرك بتقرير سري وصل إلي.

سكت للحظات متشفياً مني، وهو يلاعبني كقط خبيث:

- من المتوقع أن يكون محمود في العراق...

- أنا على ثقة أنه لايزال. . .

صاح محتداً قاذفاً بأوراق تجاوره في الهواء:

- اصمت، لا أريد أن أسمعك. . . أفهمت.

وارتمى على كرسيه كبالون ضخم، فرغ من الهواء دفعة واحدة. .مع انتهاء فورته، ساح زبد شدقيه بين زوايا فمه فهدأ، وربض على كرسيه، كدجاجة خشيت على بيضها أن يفقس قبل الأوان:

- ما رأيك في صديقك المقدم أيمن؟

- ما به؟

- سأشركه مع اللجنة التي ترأسها، علّناً نتخلص من هذه القضية في أسرع وقت.

- كما ترى. . .

ألقيت التحية العسكرية وخرجت. لعنت في تلك الساعة، كل ما في هذه الدنيا: زوجتي، وجليلة، ومحمود، وفواز، والعميد إبراهيم، وأيمن.

كنت في حاجة إلى أن أمزق شيئاً ما، بدلاً من أن أُمزق روحي.

قفزت صورة زوجتي إلى مخيلتي وهي تتأمل جِيدَها، وتمرر أناملها على نحرها بشيء من الضيق. هل بقي لعابي يذكّرها بدناسة الاجتثاث؟ عليّ أن أحشو مسدسي جيداً!!

(٢٣)

أراد المقدم أيمن الاحتجاج على تكليف صف الضباط بصياغة المحاضر. فدخل من باب الإشفاق على العميد إبراهيم العامر تجشم إعادة صياغتها:

- يا طويل العمر، هذا عمل مضاعف. فلو اختصرنا الأمر من البدء، وألزمنا أناس مقتدرين على سرعة الكتابة مع حسنها وعدم إهمال ما يقال.

كان مزاج العميد رائقاً، سمح لأيمن الاقتراب منه كثيراً:

- لو أردنا فعل ذلك، فسوف نقذف بثلاثة أرباع العسكر... دعها تمر.

- ولكن أخطاء التدوين لا حصر لها...

- من يعرف الكتابة، يكتب رده بنفسه.

- المشكلة تكمن في عدة زوايا. أولاً من يدون المحضر، غير مدرب على وضع الأسئلة. وإذا كان مدرباً، وهذا نادر، فإنه غير قادر على صياغتها، بحيث تضيق المساحة على المتهم...

- صف الضباط هم المسؤولون عن هذا، فهم يتركون عملهم لسواهم!

-الزمهم بذلك.

- فعلت ذلك مراراً، لكن من غير جدوى. ألا تراني أسوّد كل تلك المحاضر؟

- ولكن إعادتك لها، يحولها إلى قطع أدبية، تصلح في المدارس، وليس محاضر تثبت بها الوقائع كما هي.

تضخم رأسه، وحلّق منتشياً (ربما التقم طعم أيمن كحوت لا تعنيه حيل الصيادين المحدودة. ومضغ الطعم على نواجذه، من غير التأثر بالسخرية اللاذعة، أو التنبه للاتهام الصريح، بأن فعلته تذهب بروح الحقائق التي يضيعها بالصور الأدبية). واكتفى بترديد:

- دعها تمر.

* * *

رفع فواز نظارته السميكة من على عينيه، وقربها من فمه، زافراً هواء حاراً في حدبتها المقعرة:

- نختصر الحياة بمفردات على شاكلة: دعها تمر.

هذا الاختصار، هو المعضلة الوجودية لحياتنا. فحين يجد الفرد (أياً كان موقعه)، عدم مقدرته على العيش وفق اختياره الحقيقي، ولا يستطيع قول رأيه الحقيقي، ويجد الأشياء في حالة ذوبان، كل الأشياء تختلط بعضها ببعض، كاختلاط الخاص بالعام، عندها يصل الفرد إلى قناعة الرأي الواحد، إلى ثقافة القطيع، ويصبح من غير المجدي، أن يقف ليحتج، أو يعترض،

أو يصلح، لأنه سيجرف أو يدهس. فهناك طوفان من البشر الذين يتدفقون بأخطائهم، ويتفقون على صياغتها وقبولها كأمر واقعي، وتصبح جملة: «دعها تمر»، إشارة حقيقية إلى وجود تراكمات من الأخطاء الفادحة، التي تخلق العشوائية، وتربك السير، وتجعل المنافذ غير الرئيسة، هدفاً للسير والخروج من اختناق اجتماعي لن يفك.

فواز لعنتي الكبيرة. كلما اقتفيت أثره، قادني إلى كارثة أعظم. لم أعد أستطيع تتبع مقولاته، وربطها في سياقات فكرية، تمكنني من رؤية الحياة بالوضوح الذي يراه. فكثير من الأحيان، أجد كلماته تتناقض. كنت أريد اكتساب جولة واحدة معه، فأخذت رؤيته الأخيرة منطلقاً لمجابهته:

- فواز، كيف تجمع بين مقولتين مختلفتين في آن؟*

ربما فتحت شهيته للسخرية مني، أو لتدريب عقليته للقفز من جهة إلى أخرى:

- أنا أؤمن بأن الإنسان كائن متطور، وفي كل لحظة من وجوده هو في شأن. الإنسان جزء من إله، والجزء يحمل صفة الكل. فما أكون عليه الآن، بالضرورة سأكون مختلفاً عنه بعد لحظة من الزمن، لأن الزمن أداة تغيير مهما كانت ضئيلة. وهي التي تثبت اللحظة التاريخية، لكنها لا تثبت الحياة. لا تثبت الكائن الحي. لأنه ينتقل مع الزمن بمواصفات تستحدثها اللحظة، وهي صفة المتغير. والمتغير ليس بمفهوم المتناقض، بل بمفهوم المتطور. هذه هي صفة الكائن الحي والمجتمع الحي. ألا ترى أن مجتمعك يموت لأنه اختار السكون؟!

هو كالأرضة التي نخرت قوائم عرش سليمان. . . مطمئن لبطئه. فالنتيجة أن يصل إلى سعيه، حتى وإن كان متأخراً!

هل غادر حقاً محمود إلى العراق، أم أنه توجه بمسروقاته صوب اليمن مثلاً؟ فهناك يستطيع أن يبدل اسمه، ويعيش متلذذاً بحبيبته التي لن تتوجع، وتبحث عن سبب لتتحلل من واجبها الزوجي.

محمود، هذه الشخصية الصوتية التي تبدي قناعة صلبة، لن يقوى على الابتعاد عن تلك الصورة الفاتنة التي شاهدتها لجليلة. أظنه الآن يجثو على ركبتيه بين فخذيها، ليبدأ في أداء واجب مقدس لديه. وتطالبه تلك الملعونة بسد ثغراتها، كي لا تتسرب منها لحظة لذة طاغية. . . أجزم في ذلك، أحتاج إلى شيء مادي يؤكد ذلك؛ فحدسي لايخيب!!

استدعيت أربع شخصيات، لمعرفة بعض التفاصيل، التي تم تدوينها في المحاضر المختلفة، والتي تناوبوا على تسجيلها.

أربع شخصيات ذات نمط واحد، وشكل واحد، ويقين واحد، ولسان واحد. وكأني جلبت ورقة كوتشينه للنوع نفسه. الاختلاف في المواقع فقط. وهذه الملاحظة، جعلتني كمن يبحث عن الفروق الخمسة.

توقّع فواز (أو الفيلسوف كما نطلق عليه) منذ وقت مبكر، ارتجاج حالتنا، وفقدان بصمة الروح المتفردة. يأتي إلى المقهى متأبطاً كتبه ومجلاته. يجاور شيشته. ويغرق بين كتبه، من غير أن يلتفت إلى صخبنا، وصرخاتنا المتوغلة في أسماع كل منا. يبدأ بالسلام ومصافحتنا، ويغيب في قراءته واجترار دخان شيشته

إلى نهاية السهرة. لم تتغير عادته كثيراً. يبادلنا الحديث، إذا وجه إليه أحدنا سؤالاً. أما إذا أهمل، فإنه يبحر في كتبه إلى آخر السهرة، وكأنه قبطان، مهمته إيصال سفينته من نقطة انطلاقها إلى عمق البحر، وبعدها ليس مهماً الوصول. تبقى يده اليمنى معلقة، تشير للنادل بتغيير رأس الشيشة، من غير أن ينطق بكلمة، مرتشفاً شاياً أسود، حتى غدا مراً مهما تمت تحليته. لا يرد إلا عندما يُسأل. اكتسب هذه العادة. بعد إمطارنا إياه بالسخرية. فقرر اتباع قاعدة: «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلام».

احتد النقاش ذات ليلة، بينه وبين مجموعتنا، التي تقضي الليل مجتمعة في مقهى يقع داخل المنطقة الصناعية. أراد تثبيت نظرته عملياً، فأجلسنا أمام التلفاز لثلاث ساعات متوالية، طالباً التعليق على ما قيل، من خلال البرامج المتعاقبة. كانت ملاحظاتنا وإجاباتنا متقاربة تماماً. قام بتدوينها كما نطقت. ومع انتهائنا من قول ملاحظاتنا، اكتفى بمط شفتيه، وتثبيت نظارته في موقعها، وانطلق لتأكيد رؤيته:

- لو لاحظتم أن كل من تحدث في التلفاز، كانت آراؤهم متناسخة، ومفرداتهم متقاربة، مع اختلاف المواضيع التي تطرق إليها الجميع. ولو لاحظتم أيضاً تعليقاتكم، ستجدونها تحمل السمات نفسها: التقارب، استخدام مفردات محددة، التفكير في اتجاه واحد، الإيمان المطلق بما يقال. هذه هي الكارثة التي تقتل المجتمعات. ثمة مشكلة تولدت في بنية المجتمع. نحن صور واحدة تم استنساخنا، حتى لم يعد لدينا فوارق جوهرية. نتحدث بلهجة واحدة، وصيغ واحدة، ويتجه تفكيرنا اتجاهاً

واحداً. يحدث هذا مع الفوارق الجوهرية في شخصياتنا، وفي حالتنا المعيشة المختلفة. إلا أن خطابنا واحد... هذا الوضع، سيقودنا إلى الهلاك.

دوَّنت مقولته هذه وتطبيقه كما فعل معنا. وتقدمت بها كمشروع تتبناه الشرطة، كجهة معنية بسلامة المجتمع وأمنه. «فعلت ذلك رغبة في اكتساب سمعة حسنة لدى رؤسائي». وفي اليوم التالي، وجدت ورقة أسفل مكتبي، كتبت بخط أنيق، ووقعت من العميد إبراهيم العامر:

- أتظن نفسك مصلحاً. دع ما لا يعنيك وتنبه إلى ما يعنيك.

أخذت أتتبع مدى تطابق جملة فواز مع من حولي. وفي كل مرة، لاتبتعد مقولته عن تأكيد نفسها.

حين عرف بقصة الفتاة الهاربة من قبرها، لم يرفع عينيه من بين دفتي كتابه، بل أطلق جملة مع الدخان المنبعث من فمه المزموم:

- حين تخلق سجناً كبيراً، على الناس أن يتدبروا كيفية الهرب.

(٢٤)

نحن ثلاثة أصدقاء نعبر حياتنا متقاربين: أيمن، فواز وأنا. وتحيط بنا ثلة من الأصدقاء الهامشيين.

أفكار مشتركة تجول بخاطرنا. ثلاثتنا عبرنا المراحل التعليمية متلازمين، وافترقنا دراسياً بعد المرحلة الثانوية. توجه أيمن إلى دراسة القانون وعبر الجامعة حاملاً البكالوريوس. ووجد أن شهادته لا تصلح بصورة فعلية لتمكينه من الوقوف كمحامٍ ومدافع عن الآخرين. فأسبل طموحاً زائداً لمواصلة دراستهِ في التخصص نفسه، عل الزمن ينشط، لدفع الحياة للأمام، وتحقيق أمنيته.

يرى اعوجاجاً مهوّلاً في المجتمع. وحين نجلس معاً في المقهى، تنفتح شهيته للحديث (بعكس فواز). يرد كل المشاكل إلى غياب الحرية، بجملته التي تحصن بها من وقت مبكر، وهي من الأمصال الفكرية التي حقنه بها فواز:

- فقد الحرية يفقدنا المساواة. والمساواة تفقدنا العدالة. وضياع العدالة يجعل الظلم شخصاً مجسداً...

حين نكون ثلاثتنا معاً لا يحتاج إلى استثارة. يكمل إطلاق

أفكاره، وإن لم نطلب منه ذلك. يرى أن العدالة لا تتحق إلا بالمحو. المحو كتابة جديدة للحياة. كما يفعل النسيان معنا. فالنسيان عملية محو، كي لا تتشبّع الذاكرة وتنفجر وتحولنا إلى شظايا تالفة لا تصلح الا للنفايات... نحن مقذوفون في النفايات بفعل التثبيت!

يرى أيمن أن المحو والكتابة هما الوسيلتان للتغيير، بينما يرى فواز أن الاجتثاث ونوعيته هما المتحكّمان في التغيير ونوعيته.

حينما حصل أيمن على الماجستير، أقمنا له حفلاً بهذه المناسبة. قال له فواز أبو نقطة:

- سوف أشتري لك روب المحاماة، ليعرف البعض أن هناك روباً غير روب الأطباء!

فضحك أيمن:

- تعرف أن الحياة تتغير، بينما لازلنا نقف جامدين. من المفترض أن ارتدي ثوب المحاماة من وقت مبكر، إلا أن الجملة التي لم يغادرها أصحابنا تقف حيال هذا.

- أي جملة؟

- غياب المحامي في بلادنا ينطلق من مقولة «إن لصاحب الحق مقالة». وهذه جملة تفترض في المتهم الدراية بالقانون، بينما غياب القانون يكاد يتلاشى من ذهنية الكثيرين. فمعظم المواطنين ليسوا على دراية بالقانون. كما أن المقولة مقولة فقهية قيلت في زمن كانت الحياة بسيطة وغير معقدة.

كان فواز مهيَّأً للدخول في تعميق الظواهر التي تعبرنا:

- نعم، مشكلتنا فقهية. فحين يتعطل الاجتهاد ويقف عند استلهام فترة زمنية محددة، تتحول الحياة إلى متحف، كل شيء فيها جامد. لذلك فالمحو هو الوسيلة الأمثل لإعادة تصنيعنا كي نتلاءم مع واقعنا...

اعترض فواز برفع يده، ولم ينتظر أن نمنحه فرصة الكلام:

- لا زلت مصراً على أن لا حلَّ إلا من خلال عملية الاجتثاث؛ اجتثاث الأفكار المغذية لبنية فكرية غدت بالية وغير قادرة على التواصل مع الأفكار المستحدثة دينياً واجتماعياً.

يخشى الأصدقاء كثيراً تحليلات فواز. ويظن بعض الطارئين علينا من الأصدقاء أنه يتخفى خلف متابعة تجارة أبيه، بينما موقعه في جهاز المباحث متقدم، يقوم باصطياد ضحاياه، بتقديم آراء تفتح شدقيها على اتساعهما، لتلتهم المنزلقين في تأمين على أفكاره أو مساندتها. توقف الأصدقاء في مرات كثيرة عن التمادي معه في تشريح المجتمع أو إظهار التأييد له في مهاجمته الأخطاء المنتشرة في كل مكان. أحس بتخوفهم، فكان يصرخ فيهم:

- عندما تخاف من قول رأيك، فأنت لاتستحق أن تعيش... حينما خلقنا اللّه خلقنا أحراراً... حرية مطلقة. وعلى الجميع أن يحافظ على هذه الهبة من غير نقصان.

وكلما تمادى في ذكر عيوب النظام، تراجع جلساؤه عن موافقته. ووصل حداً من القنوط، جعله يردد متهكماً:

- باتت البلد تخشى أن تهرش رأسها!

تأتي كلماته كمثقب يعمق الحفر ليصل إلى العصب والعظم معاً، فمع تطاير ألسنتنا بأحداث العنف، كان مستريحاً لوجهة نظره:

- هل تعرفون لماذا ظهر العنف؟

بسط هذا السؤال كطبق مشهيّات، لم يتركنا نقلّبه كثيراً:

- السبب إطلاق القوة بدون حرية. فعدم وجود تكتلات تصنع لها قوة، وتكون أداة ضغط سلمية، تفضح الممارسات الخاطئة، يؤدي بالأفراد إلى اختيار القوة، لمقارعة قوة السلطة. فغياب هذه التكتلات في ظل غياب الحرية يولِّد العنف، هي لعبة اجتثاث متبادلة، كل قوة تريد اجتثاث الأخرى لتحل محلها، هذه هي المسألة.

يستأنس أيمن (مثلي تماماً، لكنه أكثر مقدرة على فرز شخصيته من أن تتلون بشخصية فواز)، بمقولات فواز، الذي سكن الكتب، بعد أن أكمل دراسته العليا في كلية الآداب قسم الفلسفة بجامعة القاهرة، وحصل منها على شهادة الدكتوراه، تلك الشهادة التي بقيت حبراً مبروزاً يزين به جدار أحد صالونات منزلهم. واستند إلى أعمال أبيه هرباً من روتين الوظيفة (وحقيقة الأمر أن تخصصه عديم الجدوى في سوق العمل لدينا). فبقي وفياً لكتبه وتتبع أعمال أبيه العقارية. ورغم افتراقنا الفكري، بقينا كثلاثة مفاتيح في سلسلة واحدة؛ فواز يقترب من الإلحاد كثيراً، وأيمن يعيش ببنود وقوانين مكتوبة وغير مطبقة، وأجد أني بينهما شخصية هزلية متأرجحة، حينما أتحول إلى آلة تنفيذية للسلطة،

من غير أن أتزود بمبادئ قانونية، أو عمق فلسفي، وموقف حر لا يرتهن للمتطلبات العسكرية. هكذا يراني فواز، وغالباً يجابهني بجملة حادة:

– أنت رأس آلة حادة مهمتك الوخز. يمسك بها الأطباء والممرضون ويعرفون أين يغرزونها. وبدورك تعرف أين يلقوز بك بعد انتهاء مهمتك.

هذا الاستخفاف جعلني دائم التقرب إليه، ومهادنة أفكاره، عله يمحو فكرته عني ذات يوم! ولم أكتف بذلك، بل حرصت على الحصول على درجة الماجستير ونيل الدكتوراه كي يكفّ ضغطه الفكري عن التدخل في اختياراتي!

منذ أن كنا شباباً تركض في أوردتنا الحياة، كان أيمن يقف وسطنا، يحب شخصيتي ويعشق فكر فواز. وحينما حصل على الماجستير في القانون، جال بشهادته بحثاً عن عمل يقتنع به، فلم تنجح كل خطواته. وفي مجالسه، اجتمع عليه كل الأصدقاء، لإقناعة بالاستفادة من السماح لأصحاب الشهادات العليا بالانضمام إلى الأمن العام. وافق، ليس لاقتناعه بمقولاتنا، لكن لحاجته إلى دخل يسيّر به حياته الخاصة.

وجدته بعد شهور من انضمامه، يقف على مكتبي بزيه العسكري ضاحكاً:

– ها نحن نجتمع مرة أخرى. وحظي الرديء العاثر أن تكون صديقي طوال العمر من المدرسة، إلى العمل، إلى المقهى...

صمت للحظات، وانفجر ضاحكاً:

- تحولنا إلى مثقبين للسلطة، على رأي فواز.

كان عمله دائماً محل انتقادات الزملاء، حيث يتهمونه بتقوية شوكة المواطنين. فما إن يستلم قضية من القضايا، حتى يفند للخصوم حقوقهم والطرق الواجب اتباعها. تم استدعاؤه من العميد إبراهيم العامر بسبب تلك الشكوى وأوصاه:

- أنت هنا رجل أمن وليس محامياً تنبّه لهذا الأمر!

طرقت عليه الباب، ودخلت إلى مكتبه المزين بصورة طفليه هيفاء وتركي:

- تصور أنك ستشاركني قضية الفتاة الهاربة من قبرها.

- من الذي أشركني معك؟

- لا يوجد أحد في المديرية يقرر إلا هو.

قال ضاحكاً:

- الباقي وجهه!

- نعم الباقي وجهه.

- يبدو أنه لم يتلقَّ القرار بعد.

- أي قرار؟

- سأذكره لك لاحقاً.

وحين قلب ملف قضية الفتاة الهاربة من قبرها، صاح بجنون:

- هيئة الأمر بالمعروف مرة أخرى.

- وأين هي الهيئة؟

- لكي تعرف سبب الداء، فتش في محيطه.

- ها أنت تستعير شخصية فواز، محيط إيه يا أيمن؟

- هذه الفتاة ضحية من ضحايا التعسف وعشوائية الإصلاح، في مجتمع لا يغفر بتاتاً وخصوصاً في مسائل الشرف. فالفتاة التي دبرت فكرة هربها من القبر، هي فتاة ماتت بفعل أرعن. فحين تم القبض عليها والتشهير بسمعتها، لم يعد أمامها إلا طريقان: إما الهرب من السمعة السيئة بالانغلاق التام، أو الانفتاح التام الذي يصل إلى درجة البغاء. وفي تصوري أن الذي حمل الفتاة على تدبير مثل هذه الطريقة الذكية للهرب مع من تحب، إنما جاء انعتاقاً من المجتمع الذي لا يغفر.

- أظن أني قلت لك مثل هذا القول في المقهى.

- ولو تحدث أي مواطن فسيقول القول نفسه. ألسنا نُسَخاً واحدة، على رأي فواز؟

صمت للحظة، ونفث هواءً فاسداً انحبس في صدره:

- هذه الهيئة دولة داخل دولة، وإن لم تُقلَّص صلاحياتها، فسنجد أنفسنا في حرب بين دولتين، نكون نحن ضحاياها!

- الهيئة تقوم بدور إصلاحي ومهم... وأراك متحاملاً عليها.

- متحامل عليها؟ سأريك الحالات التي حولت إليَّ من الهيئة. كلها كان يمكن حلها بالنصيحة، من غير إدخال أصحابها إلى أنفاق الجريمة...

- لا لا، هذا تحامل واضح. فلولاها لرأيت المجتمع يتفسخ كسمكة وضعت تحت أشعة شمس حارقة.

- تخشى المجتمعات الخائفة والمهزوزة من التغيرات والتقلبات، وتبحث عمن يبقي تجمدها. هي تخشى الحركة، وترغب في البقاء متجمدة... أنظر إلى بقية المجتمعات، هل تفسخت لأنه لا يوجد لديها هيئة أمر بالمعروف؟.

- اسمح لي، هذا رأي فيه شطط وغير منصف.

- أتمنى وجود دراسة تتبع الحالات التي تم القبض عليها من قبل الهيئة. أظن أننا سنخرج بنتائج كارثية... تصوّر كم أسرة تم تقويضها من خلال حلولهم العوجاء. سترى ساعتها أن رأيي صائب تماماً...

- ذهاب الثلث مقابل الثلثين جائز...

- ذهاب الثلث من قبل الدولة ووفق أنظمة، وليس من قبل أمزجة أفراد، ليس لهم من تهيئة للإصلاح، سوى بشت ومسواك...

- لا تنظر إلى الشكل وإنما إلى الهدف. هم فئة تبحث عن صلاح المجتمع.

- يكون دورها إصلاحياً، حين يكون أفرادها ملائكة ليسوا عرضة للضعف البشري الذي ينتابنا جميعاً. وأرى أن الأمر (سواء كان نهياً أو معروفاً)، لا يقتضي أن يمتلك صاحبه سلطة تنفيذه، تنفيذ يتعارض مع سلطة الدولة، التي يجب أن تكفل حرية الفرد..ولأن صلاح الأمة في جميع أفرادها، جعل اللّه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقترناً بالجميع، وليس بأفراد

معينين، أو هيئة أفرادها ليسوا ملائكة.

- أصبحت تتحدث كفواز. ما الذي تود الوصول إليه؟

- عندما يكون الأمر والنهي من حق الجميع، لا يعود من صلاحية الفرد تنفيذ ما يراه صائباً، وإنما تتحول المسألة إلى تناهٍ.

- وماذا يعني التناهي؟

- التناهي يعني وجود خطابين للنهي. فكما يحق لهيئة أن تنهى يجب أيضا أن تُنهَى.

- دعنا من هيئة الأمر بالمعروف، وقل لي: كيف تنظر إلى القضية.

- أشك في أني سأواصل معك البحث في هذه القضية.

- لماذا؟

- هيئة الأمر إياها، تقدمت بطلب محاكمتي بحجة مساندتي لحالة قاموا بالقبض عليها. فرأيت أن الضرر يفوق الإصلاح، فأخليت سبيل المتهمين.

- وعلى أي أساس تخلي سبيلهما؟

- على أساس جوهر الإسلام، ردع الضرر الأكبر. دع هذا الموضوع الآن. كيف ستتحرك في قضية الفتاة الهاربة من قبرها؟

- هي قضيتنا معاً الآن.

- لا لن أشاركك.

- أرى أن تتابع خيط إمكانية بيع جثتها. عليك أن تراقب

القبّار. فربما امتهن بيع الجثث الطرية، مقابل الحاجة إلى المال.

- كنت عازماً على استجواب القبّار.

- الاستجواب يمنحه فرصة التحرّز...

- سأجمع عنه معلومات قبل استجوابه.

- حسناً...

- أريدك أن تحدثني عن قضيتك مع الهيئة.

- سأحدثك لاحقاً، نلتقي في المقهى.

ونهض عن كرسيه متوجهاً إلى دورة المياه.

(٢٥)

تلقى أيمن ناس بعد ثلاثة أيام، قرار الفصل وعدم صلاحيته للعمل، لتجاوزه حدوده الوظيفية، فحاول مراجعة الشريط المسجل، الذي قدمه رئيس فرع الهيئة، كدليل إدانة وحجة دامغة، على سعيه لتعطيل الحدود، وتشجيع الحكم بغير ما انزل الله. باءت كل محاولاته بالفشل. ولم يستطع التأكد من صحة المادة المسجلة. تحرك في اتجاهات مختلفة، للطعن في الدليل المستخدم ضده. كان آخرها خطاب تظلّم، جاء رده معنّفاً إياه، وطالباً منه الكف عن إرسال أي شكوى لأي جهة. فأهملت أقاويله المنثورة في كل الجهات التي طرقها، من احتمال أن تكون المادة المسجلة ممنتجة لتحقق إدانته. ونفى أن تكون محاجته مع رئيس فرع الهيئة، فيها شيء مما جاء به قرار الفصل. انتهى به المطاف لاستراحة مواساة، تقدم بها العميد إبراهيم العامر بالطبطبة على كتفه:

- احمد اللّه أنها انتهت بفصلك، ولم يتم تحويلك إلى القضاء. !

حين وقفت على رأسه مواسياً هزئ من كل شيء، وردد

جملته الأثيرة، مع زيادة لفظية تتناسب مع وضعه:

- فقد الحرية يفقدنا المساواة، والمساواة تفقدنا العدالة، وغياب العدالة يؤدي إلى السقوط الأخلاقي، وتغليب القوة.

التقيت به في المقهى، كان في حالة غليان وتذمُّر زائدين لم أعهده يسير بهما معاً.

- ما الذي حدث بالضبط.

- أتذكر جملة فواز؟

- هو كالماكينة التي تضخ الهواء، فأي جملة تقصد؟

- حين تخلق سجناً كبيراً، على الناس أن يتدبروا كيفية الهرب.

- دعنا من هذيان فواز، واخبرني ما الذي حدث بالضبط؟

كنت أسأله، وفكرة الهجرة تخامر مخيلته بإلحاح.

* * *

أحبا بعضهما منذ الطفولة، كان كل واحد منهما يحفر في أعماق الآخر خدوداً من الوله، وأنفاقاً من الأحلام، لحياة اتفقا على تأثيثها بالحب. وفي غفلة مباغتة، قوضت حياتهما دفعة واحدة. وفقدا بعضهما في مراهنة خاسرة، أراد منها أبو البنت اكتساب وجاهة اجتماعية، وأنبوباً واسعاً يضخ مالاً بمصاهرة شخصية متنفذة في المجتمع، يكفي أن تشتهي، لتغدو شهوتها أثراً بعد عين. انتقلت كتحفة باهظة الثمن لقصره الفخم. مسّها في ليلة العرس، وبقيت بقية الأعوام الأخرى محطة لتجريب

فحولة رخوة. وبمثابرة المحاولات المدعومة بأقراص التهيج الجنسي، تنتج ثمرة تقوم بجمعها في أحشائها، وتتخلص منها بعد معاناة طويلة. رحل من عمرها واحد وعشرون عاماً. وقد حصدت أرضها الخصبة ثلاثة أبناء، اختارتهم للسلوى، وكأجر مدفوع مقدماً لحرمانها العاطفي. مل منها بعد أن وجد أرضاً جديدة للحرث؛ فتركها كالشاة المعلقة التي لم تذبح، ولم تنزل من سارية مذبحها. التقيا في أحد المراكز التجارية، وتبادلا أرقام الجوال سراً. وعرفت انه تزوج أخيراً، ولديه طفلان لايزالان في مراحل طفولتهما الاولى. وبعد عدة اتصالات، قررا أن يرى بعضهما بعضاً، كان بينهما قرار أن ينفصل كل منهما عن حياته الزوجية، ويجتمعا مرة أخرى.

بحثا في تجوالهما عن مكان عام ينزلان به، لتناول وجبة الغذاء. وبسبب مراجعات طفيفة لاختيار المكان المناسب، وجدا سيارة الهيئة تعترضهما، وتقودهما إلى مركزها بصحبه فريستين أخريين: واحدة بسبب التأخر عن أداء الصلاة، والثانية اشتباه في كون الرجل مخنثاً. .أبقيت هاتان الفريستان في المركز للتأكد من كون الرجل مخنثاً (ولا أعرف كيف يمكن التأكد من هذه الحالة). وانتهت الأخرى بتعهد بأداء الصلاة حالما يرتفع الأذان مباشرة. وتم تحويل الرجل والمرأة إلى مركز الشرطة، لترحيلهما إلى السجن العام، من خلال محضر أعده رئيس الهيئة بنفسه.

وصلت بهما سيارة الهيئة إلى مركز الشرطة، وصادف وجود أيمن كضابط مناوب. دخل عليه موفد الهيئة كمن حقق نصراً مجيداً:

- هذان الشخصان، (قبحهما الله)، متزوجان، ووجدناهما

يهمان بارتكاب الفاحشة.

- في الشارع؟

- لا، كانا في السيارة، وكانا يبحثان عن مكان لمزاولة الفاحشة...

- في مكان خالٍ أو منزوٍ؟

- لا، كان في شارع التحلية.

- يعني في الشارع العام.

- نعم...

- وكيف عرفتما أنهما يريدان فعل الفاحشة؟

- امرأة متزوجة ورجل متزوج يخرجان معاً، ماذا يريدان غير الارتماء في أحضان بعضهما.

وقف مندوب الهيئة، مطالباً المقدم أيمن، بالتوقيع على استلام القضية، لكي يمضي لشأن بيته. فتمهله، واتصل مباشرة برئيس هيئة المركز:

- يا شيخ، وصلني تقريركم بخصوص المرأة والرجل المتزوجين، وأرى يا شيخ أن سجنهما ينتج عنه ضرر فادح أكثر من ردعهما...

- هذا ليس من اختصاصك، والشارع هو الذي يحدد الضرر.

- ولكن يا شيخ...

كان صوته محمَّلاً بتشنج مرتفع:

- أنت لست جهة قضائية بل منفذاً، وعليك أن تقوم بواجبك من غير تدخل!

- ولكن يا شيخ

جاء صوته زاجراً:

- قلت لك نفّذ!

تخلى المقدم أيمن عن هدوئه. وتساوت نبرات صوتيهما:

- أريد أن أخبرك بأنني درست القوانين وعلى دراية تامة بالتشريع الإسلامي...

قاطعه بحدة:

- دع درايتك في رأسك، ونفذ ما يصلك!

-أنتم بهذا تتعسفون في استخدام السلطة المخولة لكم. عليك العودة إلى نظرية البراءة الأصلية، والتي تذهب إلى تأكيد أن كل الأعمال مباحة، مالم يأتِ تحريمه بالقرآن من غير تأويل. فهل ورد في القرآن شيء عن الاختلاء المحرم...

- أولاً أنت ليس لديك علم شرعي. ولست مخولاً للفتوى. ثم هل نترك الناس حتى يمارسوا الرذيلة على مسمع ومرأى من بعضهم؟.

- درء الشبهات صيغة من صيغ الخوف التي أردتم بها إضعاف الدين، وتحويله إلى جماعات تفتيش وتجسس. والأصل بالحديث الشريف «كل أمتي معافى إلاّ المجاهرين». فمتى ما حدثت المجاهرة، فلك الحق أن تقوم بدورك. لكن ليس من حقك أن تتجسس على شخص، لم تبدر منه فاحشة بينة.

- ووجودهما معاً في السيارة، أليس مجاهرة بالمعصية؟

- السيارة كالبيت. فليس من حقك أن تدخلها إلا بإذن، وإن لم يؤذن لك فأمض. لكنكم تحشرون أنفسكم في كل شيء، وتحولونه إلى فسوق وجريمة، وبهذا الفعل تحولون البلد إلى بؤر لفعل المنكرات، وتخلقون مجتمعاً باطنياً يتحلل بسرية تامة... أنتم لا تجعلون الناس يعيشون بصورة سوية. ولو أراد هذان المتهمان فعل الرذيلة، لتوجها إلى أقرب بيت ومارساها، من غير أن تعلم... دعوا الناس في المحك. فإتيان المنكر هو امتحان وتمحيص، لينبلج الإيمان من الإدراك في الوقوع في المعصية...

- ماذا تقول؟

- لن تستطيعوا بمراقبتكم محو المعصية من الأرض. المعصية هي الكفة الأخرى للميزان.

- قولك هذا يوقعك فيما لا تحب!

- سأقول لك أموراً كنت راغباً في إيصالها لأحدكم.

- نحن لسنا في حاجة لأمثالك...

- أمثالي، وهل أنتم أنبياء؟ أليس فيكم المخطئ؟ أنا رجل مسلم مثلي مثلك. كما تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فإن لي دورك نفسه...

- يبدو أنك جديد في عملك، ولا تعرف مصدر قوتنا..مرجعنا يا سيد...

- أعلم. وأعلم أيضا أن مصدر القوة هو الحق.

- هل تقرب لك المقبوض عليها؟

- هي ليست من أقاربي كما يذهب سوء ظنكم دائماً. وحديثي منصب لمصلحة العام، وليس لمصلحة قضية شخصية.

- أنت رجل سليط. ويبدو أنك متعلمن، وممّن يسعون لدمار الإسلام والمسلمين.

- أنا أحاجّك وأنت تشتم.

- أمثالك يجب معاقبتهم، وعدم تركهم في المواقع التي تعطل شرع الله.

- هل تعاقبني على مناصحتي لك. أليست القاعدة الفقهية تنص على: لا عقوبة إلا بالنص. فهل الاختلاء فيه نص صريح غير مؤول؟.

- أنت تناصحني! نفّذ ما عندك وليس لك في الأمر شيء.

- لست رئيسي المباشر حتى تأمرني. والذي أود قوله إن الركض خلف الناس ليؤمنوا هو ضد الإرادة الإلهية. فاللّه جعل الإيمان حقاً اختيارياً، ومسألة شخصية (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر). اللّه منحهم حق الاختيار. والإيمان حق خاص وليس عاماً، فليس من حقك أن تجبر إنساناً على أن يكون مؤمناً. هذا على مستوى العقيدة، فما بالك على مستوى الحياة المعيشة، فهي أولى بالحرية والاختيار...

- هل قمت بحفظ هذه الكلمات وجئت لتسميعها؟ من قال لك إن الإيمان ضد الإرادة الإلهية؟ أم انك من الجماعة الساعية لهدم دين اللّه؟ نعم أنت كذلك.

- أولاً، قلت: إن الركض خلف الناس ليؤمنوا بالقوة هو ضد الإرادة الإلهية، وأضيف أن اللّه كفل للإنسان الحرية الكاملة بنص صريح. ولكنكم جئتم واستعبدتموه بتأويلات قاصرة. فالحرية أساس مهم للإيمان. ففي ظل غياب هذه الحرية، ليس هناك معنى للإيمان، أو الحكم أو أي شيء.

- وهل تريد أن تشيعَ الفاحشة لكي نكون مؤمنين؟

- بفعلكم هذا، أنتم الذين تشيعون الفاحشة. فهذه المرأة ستقضي عقوبة السجن، ولن تجد أحداً يقبل بها بعد أن تخرج من سجنها. فأين ستذهب؟ ستفتح داراً للدعارة، أو تبيع جسدها غير مكترثة بعقاب، لأن حياتها وسمعتها دمرتا تماماً. فكم امرأة دفعتموها لمثل هذا الفعل... وحرية الخطأ مكفولة للإنسان مالم يجاهر بها...

- ماذا لو كانت زوجتك هي المقبوض عليها؟

- سأتجاوز عن قصديتك في توجيه هذا السؤال. وأقول لك: لو أنها زوجتي، وعافت أن تعيش معي، واختارت شخصاً آخر، سأطلقها. الحياة ليست إكراهاً. فلو أن كل امرأة منحت حق رفض زوجها، من غير انتقاص لكرامتها وعفتها وشرفها، لما حدثت الخيانة الزوجية، ولما حدث الزنا أصلاً.

- الآن، أيقنت بعلمانيتك، وأنك ممن يحب أن تشيع الفاحشة في البلد.

- أحدِّثك عن حرية الإنسان في الإسلام، وتحدثني بتهم جاهزة... أنا أقول الحرية، حرية الفرد في اختيار حياته. هل تعرف أن القاضي العز بن عبد السلام، أفتى ببيع حكامه

المماليك. وحجته أن من يحكم لابد وان يكون حراً. ولأن حكام المماليك كانوا عبيداً، فقد أفتى ببيعهم ليصح حكمهم. ولايمكن أن يكون الحاكم حراً، والمحكوم عبداً، لأن ذلك لايستقيم، لأن الشيء من جنسه. فالحاكم الحر عليه أن يحكم أحراراً، والحاكم العبد عليه ان يحكم عبيداً. . .

- أنت تشير إلى ولاة الأمر، وهذا أمر لا يُسكت عنه بتاتاً.

- أقول لك: أنا ابن النظام، وأنفذ قراراته، فلا تزايد عليّ بتخويفي. . . أسألك: أين أنتم من تكبيل حريات الناس من غير نص مؤول؟.

- أترك الفلسفة والتاريخ. كانت الأزمان الغابرة طاهرة ونقية، حينما كانت خالية منكم، يا من تنادون بالحرية باسم الإسلام، بينما قلوبكم مليئة بالحقد على الإسلام والمسلمين. . . أنت علماني متأمرك ماسوني.

- ماهو الجامع بين كل هذه التهم. . .

- تعطيلك حدود الله. . .

- سامحك الله. هل تريدني التلفظ بالشهادتين لتسمع قولي بعين الحق؟

- لا أريد منك شيئاً، فقط حولهما للسجن هداك اللّه. . .

- يا شيخ تحويلهما للسجن فيه أضرار على أشخاص كثر: على أطفالهما وأزواجهما، وأصهرهما، وأسرهما وأقاربهما، خلق كثيرون سيتضررون، ليس الآن فقط، بل في المستقبل أيضاً

ستطارد سمعتهما أولادهما، وخصوصاً البنات، لن يجدن من يتزوجهن. يا شيخ، أسألك باللّه، أن تدفع كل هذه الأضرار بالتسامح وغض الطرف. ولك في رسول اللّه قدوة حينما أراد تغييب الزانية بأمره لها أن تكمل حملها، وأمرها ان تكمل الرضاع. كل هذا الدفع كان يريد به أن تغيب بين الناس. ولم يرسل معها أحداً ليأتي بها، وهي زانية وليست مختلية... سألتك اللّه يا شيخ أن تتريث. كما أن فعلتهما لا تستوجب كل هذا. يكفي الرعب الذي يعيشان فيه الآن...

- قلت لك نفّذ أبرك لك.

- يا شيخ لم يزنيا... حتى الزنا احتاط له الإسلام بأربعة شهود عدول.

- قلت لك نفذ أبرك لك.

اشتط أيمن غضباً، وأغلق سماعة الهاتف بتصرف أرعن، وأمر بطرد رجل الهيئة. وقام من وقته بتقطيع المحضر وإخلاء سبيل المرأة والرجل، وانتظر هبوب العاصفة بقلب بارد.

* * *

حين جلسنا في المقهى، مصغياً لسرده وقائع ما حدث بينه وبين رئيس فرع الهيئة، لمته على حدته، وتعريجاته المستفزة:

- لم تكن مناصحاً بل مستفزاً.

صمت للحظة، وتطلع إلي:

- تعرف أني لست نادماً. فقد أنقذت سمعة أسر كثيرة من

الفضيحة. كنت أتمنى لو أني أستطيع القيام بالفعل نفسه مع كل النساء اللاتي وقعن تحت هذا الضيم...

تنهّد بعمق:

- لو عاد الزمان، وكنت من تسلم قضية جليلة، لأطلقت سراحها على الفور، من غير الحاجة لاستدعاء ولي أمرها. ولما احتاجت إلى أن تدبر هرباً من قبر ضيق.

- الأمر ليس كذلك يا صديقي.

(٢٦)

شعرت بنشوة مفاجئة، أكسبتني ثقة بنفسي.

لا زالت قضية أيمن التي فصل بسببها، تلوب في مخيلتي، وتلك المرأة، التي لم تنس حبيبها، بالرغم من الأطفال المعلقين في رقبتها، وذلك الرجل الخمسيني، الذي وقف أمام الجريدة، مهدداً بقتل أطفاله، وهذه الفتاة التي هربت من قبرها، وعشرات من قصص الخيانات الزوجية التي تُسجَّل يومياً في المحاضر مفرِّخة جرائمَ وقضايا جنائية تنتهي بأصحابها إلى داخل السجون بقلوب مدمرة تتشوق إلى اختراق عتمة الزنازين ومعاودة سعارها.

- هل الحب يصنع الجريمة؟

وجها جليلة وزوجتي لم يغادرا مخيلتي. يبزغ وجه زوجتي كعلبة مفتوحة تبحث عن غطائها على الدوام كي لا تتعفن محتويات أعماقها غصباً عنها. أما وجه جليلة فيبزغ كعلبة مختومة، تدحرجت من مخزنها ولم تقبل أن تكون علبة قابلة للفتح بمفتاح لا تعرف كنهه وتترك له حرية العبث بمحتوياتها معرِّضاً إياها للتعفن الداخلي جبراً فتفتقت مخيلتها عن خطة مذهلة، لتهرب بجسدها من أجل الوصول إلى المفتاح الذي

تشتهيه بعيداً عن أعين من أراد استلابها حبَّها. يقولون إن الحب الأول لا يموت.

تمنحني زوجتي ليلياً جسداً بارداً، وعيناها تتربصان بشبقي المنسكب على جيدها. ألمح عينيها، وهي تتأمل منظري، وكأني ذئب مفترس انقضَّ على فريسته. حتى إذا خارت قواها، استسلمت لرؤية ذئب تلذذ بولوغ دمائها باشتهاء، بينما هي تقف، كمن يتأمل مشهداً ليس له فيه سوى تقزز الدماء الملطخة بين جسدَي الفريسة والمفترس.

كنت أقود سيارتي، وأنا أهيئ نفسي بتغذية عقلية، لكي تستوعب الأمر الذي قررت تنفيذه. هيأتها لأن تتخلى عن أنانيتها، قبل أن تجرفني أو تجرفها فضيحة تقود إلى عار لا يمحى.

جملة أيمن تتمدد في فضاء ذاكرتي:

- لو أنها زوجتي، وعافت أن تعيش معي، واختارت شخصاً أخر سأطلقها. الحياة ليست إكراهاً. فلو أن كل امرأة مُنحت حق رفض زوجها، من غير انتقاص لكرامتها، وعفتها، وشرفها، لما حدثت الخيانة الزوجية، ولما حدث الزنا أصلاً.

دخلت عليها وهي تتزين. كان دخولي غير معتاد في مثل هذا الوقت. رأيتها أجمل مما كنت أراها من قبل. ركض إبليس في أوردتي:

«لاشك في أنها كانت تتهيأ لاستقبال ابن خالتها، حبيبها الذي تزدريك من أجله».

اتسعت ابتسامتها لرؤيتي، وأقبلت نحوي لتحتضنني:

- مجيئك على غير العادة!

- أظنه لم يسعدك.

- كيف تقول هذا وأنت حياتي؟

عاد إبليس يتدحرج ككرة دم متخثرة، توقفت في مجراها، تنازع ضيقاً اعترى تدحرجها، حتى إذا استطاعت توسيع مخرجها، عادت مندفعة إلى الأمام، بعد تحللّها من تخثّرها قليلاً:

- لماذا تتزينين في مثل هذا الوقت؟

- منذ عرفتني وأنا أتزين لك في كل حين.

(عليّ أن أتخلّى عن ملاعبتها. فأنا هيأت نفسي للتخلّص من جريمتي الأولى حين استللتها لنفسي، وقطعت شريان حبّها بابن خالتها).

- رحاب، يمكنك طلب الطلاق إذا أردت.

- ...

ألقيت بجملتي بتصويب مباشر:

- ما زلت تحبين عمر؟

كأنها أصيبت عميقاً. تهاوت بجواري صامتة، فاتحة عينيها على اتساعهما. غاصت في أعماقها كثيراً. ربما دمعت عيناها.

وحين طال صمتها، ألقيت قنبلتي الثانية بحرفية مقاتل أدمن الطعن:

- أحببتك من أول مرة رأيتك فيها. وكنت أنانياً حين خطفتك ممن تحبين. كنت أعلم بعلاقتك به. والآن أقول لك بكل صدق، أنا مستعد لتطليقك، إن كان لا يزال راغباً بك.

- ...

- لن أندم حين أجدك مع من تحبين.

ارتمت في حضني تجهش بالبكاء، حاولت أن أدفعها عن صدري، فأمسكت جسدي في عتوّ:

- لن أتركك. أنت كل دنيتي. من غيرك سأموت حتماً...

- وحبك القديم؟.

احتاجت إلى وقت كي تخرج كلمات باكية:

- لم يكن حباً. كان عهداً بين امرأتين أمي وأمه. وحين كبرنا، كنا كالأخوة لا نشعر تجاه بعضنا، إلا بمودة الأخوة. فلا تدع أوهامك تسيطر عليك... واللّه العظيم أنت أول رجل أحببته وآخر رجل أحبه. فلا تقسُ عليّ... أحبك... أحبك.

وأخذت تلثم ما يصل إليها من وجهي... شعرت بعبثية هذا الموقف وسطحيته، إلا أني وجدت نفسي منساقا في مماحكة طفولية، تثبت عبثية طفل مدلّل...

- وماذا عن ازدرائك لي أثناء المضاجعة؟!

- أنا!!

- نعم أشعر بتقززك يطفح من بين عينيك.

صمتت تعالج عسر خجل اعتراها فجأة. كانت تتحدث وبصرها منسكب في الأرض تماماً:

- ليست لديّ خبرة في الجنس. وأنت تقوم بأفعال تربيت على أنها مقرفة. كنت فقط أتعجب من أفعالك. ولكنني لا أتقزز...

رفعت رأسها بنصف ضحكة، ودم الخجل يتوزع على وجنتيها:

- ... أُصدقك القول إنها تمتعني. فقط لعابك السائل على جسدي، يذكرني بمقولة قرأتها لكاتبة مصرية، تصف هذا الفعل بأنه مقرز... أعدك أن لا أبدي استيائي من أي فعل تفعله.

انفرج ثغرها عن ابتسامة واسعة:

- إذا أردت أن تتأكد، فأنا في كامل زينتي.

وأطلقت ضحكة غنج مشبعة، وهمت بخلع فستانها. قررت أن أخرج إبليس من أوردتي وأتنفس بعمق.

(٢٧)

سلمان الغلف - بكالوريوس طب
الطبيب الذي كتب شهادة وفاة جليلة

ظل في كليّة الطب، حتى أوشك أن يتحول إلى جثة محنطة في غرف التشريح. نسيه التوفيق في طريقه العابر بكل الطلاب، الذين أبقوه في ذاكرتهم، كقيمة يخرجونها حين يرغبون في السخرية، أو ضرب الأمثال بالمتقاعسين. فقط في هاتين الحالتين، يستحضرونه من ذاكرتهم، ويفرغون أفواههم من الضحكات، حين يستلهمون ذكرياتهم معه، جالبين كل التوبيخات التي حصدها، حينما كانوا معه. ولم يكن أساتذته أقل من طلابهم في استحضاره، كأنموذج مقابل للإصرار والرغبة في قطع المشوار زحفاً. قلة من الأساتذة، يقدرون مقدرته العقلية الفذة، كما يصفونها، ويرون أن اللغة الإنجليزية تكبح انطلاقته وتجعله يسير حجلاً.

ولتأخره الطويل، التحق بزملائه في مجال العمل، ووجدهم يتقدمونه في السلّم الوظيفي. ولدرايتهم بتقاعسه المديد، فقد وجد نفسه يتلقى التعليمات منهم، مع إصرارهم

على وضعه في منزلة دنيا دائماً. أصابه الملل من أداء الأدوار الصغيرة. وارتضى أن يقوم بهذه الأدوار. فلم يعد لديه ما يخسره، أو يحقن همته بالالتحاق بزملائه في المناصب القيادية. يؤدي وظيفته - في أي موقع - برتابة وملل. ويستكين أينما وضع، كحجر ثقيل ورطب، متخلياً عن الشكوى أو التبرم. يمارس عمله كما ألف وجوده داخل أروقة الجامعة. الفرق، أنه ظل متقداً بإصراره داخل الجامعة، بينما في وظيفته فترت همته، وبلغ مرحلة التكلّس.

أبقته سنوات عمره الطويلة التي أمضاها في الجامعة، أعزب، وغير مكترث بإكمال هذا الجزء المتهدم من شخصيته. ولم يستجب لنداءات كثيرة لترميم هذا الجزء، بالرغم من تغزُّل إحدى زميلاته به علانية، ومحاولتها الركوب على ظهره، للوصول إلى القفص الذهبي، قبل أن تمضي إلى الآخرة وهي عذراء.

* * *

استغرب لاستدعائي له، وخرج مبدياً استغراباً من وسائل تحقيق رجال الشرطة وطرائقهم أظنه تهكّم من سلوك هذه الطريق في بحثي عن الحقيقة في سرقة جثة جليلة أو هربها. أظنه فعل ذلك!

- هل تذكر جليلة؟

- من جليلة؟

- فتاة توفيت قبل سنة من الآن، كتبت لها شهادة وفاة؟

- وهل تظن أننا نحمل صوراً وسجلاً لمن نقوم بالكشف عليهم.

- سخريتك عالية، يبدو أنك اكتسبتها من الجامعة.

- لم آتِ إلى هنا لتذكّرني بسنوات الجامعة.

- أعتذر، فقط أردت أن أستفسر منك عن الكيفية التي تقوم بها لتثبيت حالة وفاة.

- يعتمد الأمر على نوعية الوفاة. فإذا كانت جنائية، فلها طريقة. وإذا كان المتوفى توفي في بيته من غير ريبة، فالأمر لا يتعدى كشفاً روتينياً.

- كيف يكون روتينياً.

- الموت يُعرف من سحنة المتوفى وجلده. غالباً يكون جلده مزرقّاً وجامداً ومتخشّباً.

- في كل الحالات؟

- في أغلبها.

- ألا يمكن أن يمثل شخص دور المتوفّى ليوهم الطبيب بذلك؟

انفلتت سخرية من فمه:

- نعم، يحدث هذا في الأفلام. أما الحقيقة فلا، لأن هناك إجراءات تتم للتأكد من حالة الوفاة.

- في كل الحالات؟

- نعم، في كل الحالات.

- تبقى سؤال واحد.

- تفضل...

- هل يمكن أن تؤخذ جثة من القبر ويستفاد من أعضائها؟

- أيضا يعتمد على حالة المتوفى، والاستعدادات المجهزة لنقل الأعضاء.

- مثل ماذا.

- تواجد طبيب ومكان مجهز وحافظات لنقل الأعضاء.

نهض من كرسيه كغزال وجد منفذاً للهرب من فخاخ سيئة الإعداد. كان فمه يلوك جملة فهمت منها أنه يسخر من تفكيري بهذه الهيئة.

* * *

تلقيت مكالمة مقتضَبة من العميد العامر:

جدّ جديد بشأن محمود وعندما أتأكد تماماً سأوافيك بخبره.

صمت للحظات، وواصل أوامره:

- عليك أن تجدّ في البحث بعيداً عن محمود. حرّك قضيتك في اتجاه آخر.

وأغلق سماعة الهاتف من غير أن يستجيب لاستفساراتي. ما الذي حدث لمحمود حتى يأمرني بتحريك القضية في جهة أخرى؟

هؤلاء الكبار يتحركون كالريح، ولا يستقرون على حال، وليس مهماً لديهم أن تُعرف موعد هبوبهم، وفي أي اتجاه يمضون.

إذاً، لم يعد باقياً إلاّ هو. . . ذاك الذي هلّل الكثيرون لنجاته واعتبروه معجزة. أراد اللّه بنجاته أن يثبت قدرته.

(٢٨)

ما زالت صورته تقف في مخيلتي، كبحر يأبى الانبساط:

- لقد سرقوا ابنتي من قبرها، ويحاولون إقناعي بهربها...

أخوتها افترقوا حول هربها وموتها. وكل الأقوال الأخرى افترقت، كافتراق الريح في أحراش غابة متماسكة...

شاعت قبل سنوات، حكاية فتاة، هربت مع حبيبها عبر المنفذ البحري، وارتضت أن تكون داخل حقيبة سفر. تقاذفتها أيدي الحمّالين، وحشرت بين أكوام العفش الثقيل، ليكشف أنينها وجودها. فأخرجت من الحقيبة، إلى زنزانة صغيرة لاستجوابها عن فعلتها. كانت مؤمنة بهربها، وعلى استعداد أن تعاود الكرة، لو تمكنت من النجاة من قبضة ذويها مرة أخرى...

هل وضعها محمود، ذلك اللعين المختبئ في مكان ما، في حقيبة سفر هو الآخر؟ وتحمّلت بدورها أوجاع الترحال لتصل إلى غايتها. أو أن التي تهرب من قبر، يمكنها أن تتحمل وجعاً هيناً في حقيبة ربما لا تحشر بين أكوام عفش متراكم.

كثفت البحث عن محمود. إلاّ أن استدعاءً وصلني من العميد العامر قلب القضية رأساً على عقب. وبجملة مختصرة ومقتضبة هدَّ جبال الاحتمالات التي أقمتها:

- قُتل محمود في العراق، عليك تغيير طريق بحثك كما قلت لك سابقاً!

فعلها ذلك اللعين. مات هو الآخر، أم توارى داخل الجماعات الإرهابية المنتشرة في العالم، كي يظهر من جهة لا أتوقعها، من أجل أن يسخر مني أو يزدريني بتينك العينين الصحيحتين؟

هل هرّبها من بيت أبيها ثم هرب منها؟ أم اصطفاها لنفسه وعبر بها الحدود ليعيشا في أي بقعة ناشراً خبر مقتله في العراق ومنهياً ملاحقته ومبقياً لنا لغز الفتاة الهاربة نتسلّى به ونلام عليه أيضاً!

أجدني حائراً تماماً، ومشتتاً. حتى إني بدأت أفتعل الأشياء، لتقودني إلى تصورات وأحكام مفتعلة...

هذه القضية الجامدة الصلدة، عليَّ أن أدحرجها في اتجاهات مختلفة. علي أن أقفل فرضية هربها، لأضع فرضيات أخرى، تمكنني من القيام بدور المرمم، وفق الحالة، وليس تلبيس الحالة... هذه هي ذهنية رجل الآثار. قلة هم المفتنون بإعادة تشكيل الخلق. وحين يكون المرمم باحثاً عن إحلال الماضي في الحاضر، يكون كالقائد المهزوم، الذي يبحث عن شهود عيان ليمسحوا العار عن جبينه...

محسن الوهيب، هذه الشخصية التي تلونت، ولم يعد همها سوى البحث عن شهود عيان، ليزيحوا عن جبينه ماء

الفضيحة الذي اغتسل به مرتين. . .

وقف أمامي في آخر مرة منكسراً:

- لا أعرف لماذا أثق أنك ستغسل وجهي من هذا العار. . .

الفضيحة هي اللعبة التي يبحث عنها المجتمع، لإراقة شرف أحدهم، ومقارنتها بفضائحهم السرية. نحن نمارس لعباً مختلفة. وحين نفتر من ادائها تكون سمجة. لكي أستغل تشوق الجميع في أداء ومتابعة هذه اللعبة، ولكل لعبة قانونها الذي يخلق التشويق، عليّ معرفة قانون هذا التشويق، وليكن السؤال هكذا:

- لماذا لا يكون هناك اتفاق مبرم بين القبّار وجهة ما، لأخذ جثث المتوفين ونقلها إلى جهة طبية، والاستفادة من أعضائها، ثم إعادتها للمقبرة، ودفنها من غير أعضاء. أو أخذ الأعضاء من المتوفى، في ظل وجود أشخاص مدربين على هذا العمل ومعهم أدواتهم اللازمة. . . أو بيع الجثث على طلبة الطب كما يحدث في الأفلام المصرية!

تستقيم الافتراضية بهذه الصورة: يقوم القبار بهذه المهمة، وحين تم اكتشاف غياب الجثة، تحرك مع المبلِّغ كشاهد إثبات، وبهذا يبعد عنه التهمة. . . وربما دأب على تغيير قبور من يتم اجتثاث أعضائهم زيادة في الحرص.

- حرّك قضيتك في اتجاه آخر.

أي اتجاه يمكن أن أسلكه. كل تلك الشخصيات التي

استجوبتها كأمواج كسولة لا توصلك إلى عمق البحر. جثمان أمي ما زال مقذوفاً في زاوية من المسجد المجاور لمقبرة الأسد، والأهل والأقارب يبحثون لها عن قبر بين مقابر مدينة جدة، وذلك القبار يقف كصنم عنيد لا يلبي توسلاتنا. هل عليّ أن أعود متوسلاً ذلك الصبيّ الذي غدا قباراً للمقبرة، أن يدفن هذه القضية ويُريحني!!

إذاً ذلك المتسخ، (الذي رأيته في صباه ومنخره يهل ويتلعبك مخاطه بين أنامله فلا يجيد التخلص منه) سيكون المسلك لمعرفة طريق الفتاة، والتأكد من هربها أو سرقة جثتها.

استأجرت شقة تطل مباشرة على صحن المقبرة، وتكشف التحركات المنزوية في جوانبها. وأخذت أتتبع ذلك القبار ليلاً ونهاراً.

إن ما ضايقني في هذه المراقبة، أن برفقتي وكيل رقيب فج التصرفات، وأغبى من سمكة. وكلما نهرته عن فعل، أتى بأسوأ منه...

- ياعطية التزم بالأمر

- أعدك أن ألتزم في المرة المقبلة.

ويأتي في كل مرة بشيء نكر. .عطية جاء من قرية نامت في أعلى المرتفعات الجنوبية الجبلية. أمه الزوجة الثالثة لأبيه، وترتيبه الأسري بين أخوته السادس عشر (كنت أدعوه لويس السادس عشر). يقسم أنه لا يعرف بعض أخوته (شكلاً وإسماً). واصل الذين نزلوا إلى الأرض بعده العد ليبلغوا ربع المائة. تربى كما تُربى الماشية. مقذوف مع بقية أخوته في دار كبيرة، يلقى

عليهم الأكل والنصائح. فمن أراد أن يمسك له بشيء مما ألقي أو يتدبر أمره منفرداً ووفق اختياره من غير توجيه أو وصاية. وجدته يشاركني مراقبة القبار، لأكتشف حمق عقليته ورداءة تصرفاته. فقررت أن أريحه وأريح نفسي من عنت التوجيه الدائم، إلا أنه ذكّرني بموقفي المنكسر مع فواز. فاتحته بسوء حيلته، فأبدى استياء عكّر وجهه:

- دائما أقوم بعملي بتفانٍ ظانّاً أني أقدم عملاً كاملاً، وأكتشف من حكم الآخرين، أني أقف في الصف الخطأ!

مثلي تماماً، أجد نفسي أقف في الصف الخطأ. علّمني تقريعي له وردُّه، أن الآخر هو الذي يمتلك اليقين في حكمه، ليس لأنه يقين، بل لأن الحكم نابع منه. ولو حكمنا، سنكون ممتلكين اليقين نفسه من الآخر. ولن نتردد في القول: إنه على خطأ.. أحكامنا ليس شرطاً أن تكون صائبة. الشرط من أين ينطلق الحكم. هكذا هي اللعبة يا فواز، وليس الاجتثاث.

شعرت بزهو حين وصلت إلى هذه القناعة.. أبحث عن أي شيء أقوض به آراء فواز؛ أبحث عن نصر داخلي يبعدني عن سخريته المُرّة!

وبدأت، من مقر مراقبتي للمقبرة، في تسجيل الملاحظات:

كان يرتاد بوابة المقبرة مجموعة من الوافدين. يدلفون إلى داخلها ويغيبون لفترات زمنية متباعدة، ويخرجون وهم يتبادلون الوداع مع شفيق...

قفز عطية في إحدى المرات بغنجهية محاولاً اكتشاف طبيعة دخولهم وخروجهم، فكاد ينسف كل ليالي المراقبة، لولا

أن تنبه لفداحة الخطأ الذي قام به. فحينما داهمهم منفرداً، اكتشف أنهم مجموعة من الباعة، يزودون شفيقاً ببعض البضائع النسوية والعطور، فرتج عليه الأمر، وأسرع بمطالبتهم بإظهار الإقامات، مدعياً أنه رجل جوازات. كان أحد الباعة مقيماً بصورة غير نظامية، فاحتار كيف يتصرف معه، وزادت حيرته حين مد له - المخالف لنظام الإقامة - بمائتي ريال مقابل تركه. فاحتار في الأمرين، وقرر أخذ المائتين، لكي لا تنكشف طبيعة عمله، ووقف أمامي معتذراً:

- كلما تمنيت إنجاز عمل يروق لك، أفاجأ بأني أقف في الصف الخطأ. .كما تقول.

- قلت لك، لا تفعل شيئاً إلاّ حينما آمرك. . . أفهمت.

- أعدك بذلك. . .

كان فعلاً غبياً دفع شفيق إلى تقليص أفعاله، والتخلف عن خروجه الأسبوعي إلى عمق المقبرة، بشيء من الاحتفالية تظهر على هيئته وملبوساته.

يظل شفيق في غرفته لوقت طويل، لا يخرج منها إلا في ثلاث حالات: إذا حضرت جنازة يستقبلها، ويقوم بمهمته على أكمل وجه. وله خروج يومي يتزامن مع القيلولة حيث يقوم بملء جراب ماء، ويتجه إلى جهة معلومة، يصب الجراب بتمهل، موزعاً ماءه على القبر كاملاً ومعتنياً بالشجيرات النابتة على ذلك القبر. وله خروج أسبوعي يختاره الأربعاء أو الخميس، ويكون بعد صلاة العشاء. يلبس فيه لبساً فاخراً ويتحرك إلى جهة قصية داخل المقبرة.

قررتُ زيارة غرفة شفيق، ولكن بصفة لا تكدره، أو توصل إليه شرارة الاحتراز. تحينت الفرصة الملائمة لهذه الزيارة. حضرت عدة جنازات، وحرصت ألا يلمحني بتاتاً. وزيادة في الحرص، كنت أتلثم لثمة لا تبين ملامحي، تبقي عينيّ مبحلقتين في وجوه المشيعين. في ذلك الجو، كل الأفعال قابلة لأن تدفن في الذاكرة، من غير أن تقلب الظنون. في زياراتي المتكررة إلى الجثث التي تدفن يومياً، عرفت تحركاته أثناء الدفن. وحين توثقت من عادة فعله، استغللت ظهور جنازة، وتسللت إلى داخل غرفته بينما كان منشغلاً مع معاونيه، بفتح قبر، لاستقبال الجنازة التي وقف أهلها حولها دامعين.

غرفة غارقة في الرطوبة والظلام. يتسلل إليها ضوء شحيح مختصر، كزيارة أمير لمناطق الأحياء الفقيرة. الظلمة تتغلب على ضوء النهار الساطع. أسدلت ستائر غامقة على منافذ النور الخارجي. وانبسطت على الجدران صور عتيقة، تعرفت إلى صورة عثمان الناعم (عرفت لاحقاً أن الناعم ليس لقبه)، الذي احتجزته الصورة، بفكيه العريضين وشاربه المحفوف وذقنه الكث. واستقرت أريكتان متقابلتان لكل منهما ملاءات مشجرة الألوان، وفي مواجهتهما استقر دولاب أُغلقت دفّتاه بمواربة، كنقاب فتاة لعوب، تبحث عمن يعمق النظر في جمالها. لم يكن إغلاقاً محكماً، استجاب لجذب يدي بيسر وسهولة. دولاب احتضن تلفازاً وجهاز فديو، تجاورهما مجموعة أفلام عربية أغلبها أفلام عاطفية، وحقيبة ملابس رثة مفتوحة. حين رفعت غطاءها، فاحت منها روائح عطور نسائية مختلطة، كوّنت رائحة عبقة ودبقة في آن. وفي سترتها العلوية، بقيت زجاجة عطر

محكمة الإغلاق، يجاورها غطاء إضافي للزجاجة نفسها، وعلبة صغيرة احتوت على خصلة سميكة لشعر كستنائي، وبقايا أظافر مطلية، وصورة لفتاة في غاية الجمال، تجاوزت السابعة عشرة من عمرها أو كادت. تآكلت أطراف صورتها، وبهتت ألوانها السفلية، من كثرة الإمساك على ما يبدو. وفي دولاب الملابس، تناثرت ملبوسات رجالية يسيرة بينما بقي الجزء الأكبر محتوياً على مجموعة فساتين وإكسسوارات فضية، وقطع ذهبية تنوعت أشكالها ومواضع لبسها. وعدد من تلبيسات لأسنان ذهبية وعمود ذهبي ترشح بدهن نتن الرائحة، وأنواع من البخور.

كنت حريصاً على مغادرة الغرفة، قبل أن يصل أحد، ويراني داخلها. في عجلتي تلك، تعثرت بسلك كهربائي امتد من غرفته إلى عمق المقبرة، حيث تتجه أقدام شفيق أسبوعياً. حين خرجت، كان المعزون يتقاطرون للوقوف في صف العزاء. ولمحت شفيقاً يتناول مبلغاً من المال من أهل المتوفى، ويدسه في جيبه الأسفل. ويردد بكلمات خاشعة تدرب عليها من كثرة قيامه بهذا الدور:

- عظم اللّه أجركم، وأنزله اللّه منازل الأبرار الأتقياء.

ومع اصطفاف أهل الميت لاستقبال المعزين، تناولت يد أولهم معزياً فتبعني من حضر الدفن. شعرت بهواء منعش يلفح وجهي وأنا أقف خارج المقبرة.

بقي وجه شفيق يتلألأ في مخيلتي. صورتان اعتركتا، كل منهما تطارح الأخرى لتبقى مسيطرة. صورته حينما كان غلاماً يقف لاعباً أمام بوابة المقبرة، ومعلقاً ألعابه على بوابتها، مزيلاً

رشحاً - هلّ من منخره - بيده المتسخة، حتى إذا تلعبك المخاط بين أنامله، استعان بكمّ قميصه، ليتخلص من تلك الورطة التي ترامت أطرافها، وفضحت سوء لياقته، في التخلص من المواقف المحرجة. وصورة رجل نضجت رجولته، وتفتقت ملامحه عن وسامة طاغية، قللت من جبروتها هيئته الرثة ومجاورته الموتى.

حرصت أثناء تفتيشي غرفته، على إبقاء كل الأشياء في أماكنها. فقط، حملت غطاء زجاجة العطر المنفرد. كانت ملامح زجاجة عطر جليلة تتراقص في مخيلتي. تلك الزجاجة التي استقرت في مكانها، وبقيت بلا غطاء.

كنت محتاجاً إلى زيارة أخرى لغرفة جليلة. وكان يلازمني شيء من الضيق حينما أتخيل أباها يقرّعني بترددي الدائم عليه. كنت أخشى أن يمنعني من الوقوف مرة أخرى، في وسط تلك الغرفة التي غزلت كل هذا الغموض.

وتعثر قراري، حين تذكّرت تلعبك قدميّ بذلك السلك الكهربائي الممتد إلى عمق المقبرة. ما الذي يوجد هناك؟

كنت مرتبكاً بأي الزيارتين أبدأ: غرفة جليلة، أم رؤية نهاية ذلك السلك الكهربائي.

(٢٩)

داود الناعم الشهير بشفيق الميت
تمّ تغيير اسمه على يد عمه

اعتبرت نجاته معجزة، أراد اللّه بها أن يدلل على قدرته.

وجدوه مقذوفاً على الحدود السفلية للإسفلت. لم يصب جسده بخدش أو كدمة، فقط كان فاقداً وعيه. ولم يتجشم المسعفون عناء تقليبه أو تحريكه ليؤكدوا وفاته. كوّموه في ملاءة قطنية، وأضافوه إلى ضحايا الحادث، الذي ذهب ضحيته، جميع ركاب تلك الحافلة المتوجهة إلى المدينة المنورة.

استفاق محشوراً بين أشلاء الجثث المقطعة والمهروسة. كانت تغطيه ثلاث جثث مقطعة الأوصال ومشدوخة، فصرخ من أسفلها جزعاً، وانتابته حالة هستيرية عنيفة، لم يتعامل معها المسعفون بما يليق. ظل متهجياً في نشيج محموم، وهو يزيل بقع الدم من على جسده، متشبثاً بيد مبتورة، وقابضاً على الخنصر والبنصر معاً. يد قطعت من الرسغ، وبقيت أصبعها الوسطى، متلألئة بخاتم ذهبي، يزيح بلمعانه تخثر الدم الملبد كقطع شمع أحمر، وشج بين الأنامل المتيبسة.

تجرّأ أحد العابرين ذلك الخط، وحضنه، وأخذ يتلو في أذنه آيات من القرآن، بينما ظل زائغ البصر وسانداً رأسه على صدر ذلك العابر. حتى إذا غفا، استطاع بعدها المسعفون تخليص اليد المقطوعة من قبضة يده وإعادتها إلى جثتها.

ظل في المستشفى ينتظر عودة أبويه، إلا أن أحداً منهما لم يأت. وبعد أسبوعين عبث فيهما الانتظار والجزع في داخله، كما يعبث الشيطان بجريانه في دم المؤمن، وجد عمه يقف على رأسه من غير أن يواسيه أو يحضنه. ووجد يده مخطوفة من عمه، يجذبه في منحنيات وشوارع أحس أنها لن تنتهي من طول السير. حاول نفض يد عمه القابضة عليه مراراً، فهي تذكره بتلك اليد المقطوعة، التي قبض على أناملها، ولم تخلص منه إلا في غفوته. انقاد ومراكب من التذمر وعدم الرضا تبحر في دمه، وفوضى صغيرة من المشاعر الحانقة على أبويه، تتشجر في داخله وتزهر كثمرات التين. ضجيج ينبعث من كل الاتجاهات، والحافلة ترج في مخيلته وتتمايل، حتى تدحرجت في منعطف حاد، لتكب الأجساد بعضها فوق بعض ويرى نفسه يغرق في دوامة لها صرير أبواب المخازن المهجورة، تجذبه لعتمة مشبعة بأطياف سكنها الرعب. والحافلة كعلبة قصدير تعفص عنوة. كتلة الحديد تجلجل، وكأنها في قدم سجين هارب مجنون، تسحق مراراً فلا يبقى ظاهراً من كل ذلك البياض، الذي شع من ملابس الركاب، سوى أوصال لحم، تناثرت على أرضية الحادث، كتناثر لحم أضحية اختصم حي في قسمتها...

التقت عينانا فجأةً. كان في وضع مُزر. لم يرتبك كثيراً، كأنه استعد لهذا اللقاء بمران قاس ملَّ منه في انتظار هذه

اللحظة. كان محتاجاً إلى ثقب صغير ليقلّل من ضغط كاد يفجّره. وكخرطوم مياه الحرائق لم يحتمل قوة دفع مفاجئة، انطلق يضخ كل أعماقه من غير تريّث. بلّلني تماماً، فأُصبت بالخدر، وأصغيت إلى كل كلماته. حدث ذلك في تلك الغرفة المنزوية من المقبرة.

تراشقت كلماته كرذاذ شلال تعكَّر بملوحة زائدة من وقت مبكر.

* * *

تخثّرت ذاكرتي عند تلك النقطة.

صعدنا إلى حافلة متجهة إلى المدينة المنورة. جلست متوسطاً أبويَّ. كانت أمي تمد يدها بقطعة بسكويت وتحشو بها فمي. ويغمزني أبي محفزاً التهامها على عجل. كنت في السادسة - تنقص أو تزيد قليلاً -، قضمت قطعة البسكويت، وارتجت بين فكيّ، أحسست بها تطقطق، وتقلب الدنيا: ارتجاج، وضجيج، وصياح، وسحق، ووجوه تتقلب في أنصاف دوائر، وشدخ جسد بجسد، وانغراس حديد بلحم. نفذت قطعة لحم من هذا الفرم. نفذت بواسطة سهم قَدَري اخترق بها ذلك الحطام، حتى استقر بها على حافة الإسفلت، وهي تمضغ قطعة بسكويت معجونة بتراب ناعم ودم.

نبهتني أوجاعي داخل المستشفى، في غرفة شاركني فيها خمسة أطفال مختلفي الأعمار. بقيت لأيام أنتظر عودة أبويّ. وكلما سألت عنهما، وجدت ممرضات المستشفى يقذفن كلمات

حادة ومنغمة تنغيماً غير عربي. وجوههن لاتحمل طيبة. يصرخن في كل حين. كنت صامتاً تماماً. أتنقل بين أجهزة المستشفى للكشف. وغالباً كان يُذهب بي لأخذ أشعة لرأسي. كان صمتي مقلقاً للبعض. وكلما استحثوني للحديث، أمسكت عن الكلام.

في الزيارات، كنت أجد أمهات من يشاركني غرفة التنويم يحنون علي، تناوبت سيدتان منهما على تلبية طلباتي خلال إقامتي داخل المستشفى. تتفانى كل منهما في إصباغ حنانها علي. فتجرأت وسألت إحداهما:

- أريد أبويّ.

لم تقوَ على كبت دموعها، ولملمتني داخل حضنها:

- غدا ستعلم يا ابني أين ذهبا.

- هل تركاني وسافرا بمفردهما.

بكت كثيراً. شاركتها البكاء ليستجيب لنا بقية الأطفال وأمهاتم المرافقات لهذا البكاء، ما جعل أولئك الممرضات الأعجميات تُقبلن بتعجرفهن وصياحهن، مستفسرات عما يحدث.

في موعد الزيارات، نفر من معاملتهن السيئة، بالشكوى للقادمين لعيادة مرضاهم، قلت لتلك السيدة:

- لماذا لا توجد ممرضات مثلكن هنا.

غمطت ضحكة كانت تود أن تكون سخية:

- لا يفهم شكواك إلا لسانك. وهؤلاء الممرضات لا يفهمن كلامنا.

بعد أسبوعين وجدت عمي، ينتشلني كما ينتشل جثة، ويمضي بي مخترقاً ردهات المستشفى، من غير أن أتمكن من التمرغ في أحضان إحدى السيدتين، اللتين رعتاني خلال أسبوعين كاملين.

كان آخر عهدي بالمرأة، في تلك الليلة التي لملمتني تلك السيدة بين ضلوعها وهي تتناشج. بعدها أصبحت أرى النساء ملفلفات بالعباءات متطيرات من رؤيتي. أقف أمامهن كفزاعة جالبة الخوف في حقل لايحمل زرعاً.

ساهم العجيلي في خلقي كائناً قادماً من الموت، فكلما رآني صاح في وجهي:

- رؤيتك تذكرني بالموت، فلا تُرِني وجهك.

في الأسبوع الأول من مقدمي، توفيت له بنت صغيرة لم تلحق مد يدها لتسلُّق الدرجة السابعة من عمرها. قبل مماتها بليلتين، لاعبتها على بوابة المقبرة، ومع موتها، قيل أني رسول الموتى، أخرج من المقبرة مبشراً بانقضاءِ الحياة.

هي صدفة أم تأكيد لمقولة العجيلي؟ فبعد موت ابنته حدث الشيء نفسه، حيث كنت أشارك حسين المطر لعبة الاختباء والظهور (الاستغماية)، وفي ركضه للوصول إلى دائرة التحلل، دهسته عربة. لم تكن لتقدر على الانزلاق في ذلك الشارع بتلك القوة، لولا أن سائقها كان مخموراً.

بعد هاتين الحادثتين، تلقى الصبية بلاغاً من ذويهم، بأني أخرج من المقبرة، لأجلب لها أحياء، يشاركون الموتى انتظار الساعة.!

فزع الصبية في أول يوم خرجت فيه. وظنوا أني ميت تسلل من قبره. لم يكن منظري شاذاً حتى يتداعوا من كل زوايا الحي لرؤيتي. كان الأطفال ينظرون إلي من بعد، والرجال يقتربون، مقلبين جسدي كسلعة غريبة لم يستهلكوها من قبل. وعندما أطل عليهم عمي عثمان معرفاً:

- هذا ابن أخي، تُوفي أبواه منذ وقت قصير.

ولم يزد على جملته شيئاً، وانسحب إلى داخل أسوار المقبرة، وتركني على بوابتها، أتوسل صحبة صبية، يفرون بعيداً عند رؤية قبر يطبق جوفه على جسد استسلم لظلمته ونمله وترابه.

أشيع بين الصبية أني من نزلاء المقبرة. وتشجّرت هذه الشائعة إلى فروع، كل فرع يحمل ورقة كتبت فيها حكاية عني:

* امرأة ماتت وهي حامل، وبعد دفنها سمع القبّار بكاءً حاداً داخل المقبرة، ففتح القبر، ووجدني أطوف حول جثتها باكياً، فأخرجني وتعهد بتربيتي!!

* طفل دُفن، واستعاد أنفاسه داخل القبر، ولم يجد القبّار ذويه، فتكفل بتربيته، مدعياً أنه ابن أخيه!

* هو ابن جنية قطنت المقبرة منذ آلاف السنين، وحين ماتت أمه، خرج أبوه ليلاً، ووضعه في غرفة عثمان المهنا، وأوصاه برعايته!!

كل يوم تفرز مخيلة الصبية حكاية لوجودي. وفي كل حكاية، رعبٌ يُلهب أفئدتهم ويبعدهم عن مخالطتي. أطلقوا علي لقب الميت، فمت بوحدتي. خارج غرفة عمي - التي ورثتها بعد موته - لا أجد أحداً يكلمني. أمارس لعبي ووحدتي، من غير أن يسأل عني أحد. وفي داخل المقبرة، ليس لي من عمل، سوى ترطيب القبور التي يدفع ذووها مبالغ نقدية لعمي، للاعتناء بقبور ذويهم، وإبقاء حدبتها مشجرة.

السيدة سلمى، زوجة العم محسن الوهيب، كانت تتلطف معي، وتقبل بي ضيفاً على أبنائها في أوقات كثيرة. كنت طفلاً منبوذاً بحكم عمل عمي، وربما بحكم معيشتي داخل المقبرة. كان أقراني يتحاشون الاقتراب مني، وكلما رأوني تراكضوا في اتجاهات مختلفة:

- ظهر الميت.

فينطلقون كالعصافير الهاربة، من فوهة بندقية صياد محترف. لم يكن الدم الذي تلطخت به، في حادثة فقد أبوي، هو النهر الأخير الذي اغتسلت به. أذكر أن عمي كان يجبرني على غسل موتى الدهس والقتل معه:

- أريد أن أعلّمك مهنة، تستفيد منها في كبرك.

لم أنم ليالي طويلة. فبعد كل جنازة مدهوسة، أو نفذ بها القصاص، أبات أرتعد، وتداهمني كوابيس لا حصر لها. تتحرك كل جثث المقبرة، لتقذف بأجسادها على أنفاسي. وأظل طوال الليل، أزيح قطع اللحم الملبدة بالدم من على جسدي.

حين جاءني - عمي - في المستشفى، ظننته ملك

الموت. بقيت ظلاله مخيمة على سريري. قامة فارعة، وجسد ترامت أطرافه بسحنة رملية منطفئة، ووجه خال من مساحيق الحياة، متصلب الأوداج، عاصي الابتسام، تتحرك عيناه كبومة تنتظر الظلام. سحبني من سريري، كجثة تعوّد على إخفائها. كانت أناملي سجينة كفه الغليظ، وتتأرجح يدي من منبت الكتف، كسعفة نخل، لم يتركها الهواء تستقر في وضعها. قطع بي طرقاً، وشوارع، وأزقة عديدة. فمه شحيح الكلمات. يتهادى كجمل أروق، صامت كصمت المقبرة التي احتضنت كهولته، كرد جميل ووفاء لشباب أفناه في موارة الأجساد المقبلة إليها.

في تلك الليلة التي خطفني فيها من المستشفى، عرفت أنه شقيق أبي، وأن رائحته ستكون بديلة من حضن أمي... كان رجلاً لا يبذر الكلام في مسامع أحد كبيدر يحتفظ بحبوبه في جوفه: وحين يحتاج إلى تصريفها يهمهم كحشرة أوشكت على الغرق، فانتفض جسدها، ورفت جناحيها، وأنهت معضلاتها.

عشت في صمت مريع. لاشيء يتكلم داخل هذه المقبرة الواسعة. ولو جئتها مبكراً، لأصبت بالبكم. تربيت على اختصار الكلمات. لم يكن هناك باب أُدلف منه للثرثرة. فالمدرسة صكت أبوابها في وجهي، كخزنة فقدت مفاتيحها، ولم يبذل صاحبها جهداً لثقب سماكتها. وجد عمي أن مقرراتها لن تفيدني في معرفة تلحيد الموتى، فاختصر الطريق، وأشرف بنفسه على تعليمي المبكر كيفية إدخال الميت إلى قبره بعد أن اجتزت مبادىء عمليات: التغسيل والتحنيط والتكفين.

لم أكن في الحارة طفلاً محبوباً. جئت إليهم أحمل بشارة النهاية. وتخلق مخيلة أقراني صوراً لهذا الذي يخبئ الأجساد في

التراب. ويحمّلني بعضهم مسؤولية رحيل آبائهم أو أمهاتهم، أو إخوانهم. ربما فقدت لساني داخل فمي. أو أنه ضمر ولم يعد قادراً على الإتيان إلا بحركات بسيطة. كلمات أحتاج إليها للردود القصيرة، أو المواساة الباردة الآلية. عيناي هما اللتان تتحدثان، تسرقان الوجوه، والحركات والحياة.

لم يمضِ على مقدمي كضيف على هذه المقبرة، سوى ليلتين. قدمت إلينا سيارة تحمل جثة ميت، حكم عليه تعزيراً بالقصاص. كانت جثته معبوثاً بها تماماً. ويبدو أن السيّاف كان حديث عهد بعمله. فظهرت عيوب مهنته، في جسد من نُفِّذ فيه الحكم. ثقب غائر في الخاصرة اليمني، أبان كلية تهتكت، وأمعاء تقطعت، فلفظت أجزاء منها خارج الجلد، فبقيت كخيوط إبرة سيئة الحياكة. وضربتان اجتثتا الرأس من الترقوة، وثالثة هشمت الجمجمة. ومع ذلك، بقي الرأس ممسوكاً بعصب الحنجرة والبلعوم. هذه أول رأس أراها مقطوعة بكل هذا العبث. ولم يسبق لي قبلها أن رأيت خروفاً مذبوحاً. وكان مقدّراً لي رؤية الدم المتخثر بين حلقات رقبة إنسان وليس حيوان. يومها، جذبني عمي من يدي، وأوقفني على تلك الجثة لأريق له الماء، وقام هو بغسل الميت. جذب رأس الجثة من شعرها الأجعد، وثبتها بالقرب من وضعها الطبيعي، وزبد من التبرم يسيل من لسانه:

- كان من المفترض أن يقوم طبيب برتق هذه الرقبة.

وجه الجثة لم تمسسه ركاكةُ عمل السياف، فانجلت ملامحه بعد الغسل، مبقيةً على هلع لم أر في ما بعد من حياتي، جثةً تحمل هلعاً شبيهاً له.

كانت هذه أول حادثة، أتعرف فيها على البيئة التي سأسلك بقية أيامي فيها.

كان من المفترض أن أكون خادماً لقبر الرسول صلى اللّه عليه وسلم. أوه، لو تم ذلك، لكنت الآن كالأغاني التي لا تمل.

أذكر أني سمعت أمي تقول لأبي:

- ستكون طريق داود مليئة بالدم.

فقد استعادت ذكرى مولدي، وهي تتهيأ لزيارة قبر الرسول. يداها منشغلتان بتجهيز احتياجاتنا في الزيارة، وفمها يذرف حلمها مقروناً بخشية مضاعفة مما رأت:

«رأت مطراً غزيراً يتجمع بين فخذي، وأن أسماكاً حمراء تتقافز منه فلا تعود..».

استعادت حلمها هذا، حينما كنا نهم بالمغادرة إلى المدينة المنورة. ووعدت نفسها أن تقف بي في الروضة المشرفة، وتستجير بالرسول من رؤياها. وعندما تناشجت، أكملت حماسها بنذر لم تستشر فيه أبي. نذرت بأن تهبني خادماً لقبر الرسول، لكي تخلصني من الحلم الذي رأته لي.

ما زلت أجترّ طعم البسكويت بمذاقه السكري الأقرب إلى طعم المانجو. ثمرة المانجو، هي الثمرة اللذيذة التي أشتهيها، دون سائر الفواكه.

كان مهيأً لي أن يتركاني في الحرم المدني. وكانت توصيني قبل صعود الحافلة:

- سنتركك (أنا وأباك) وستكون في مكان تُحسد عليه، أحسن أدبك مع القبر الشريف.

وكلما ذرفت دموعي، استرضوني بقطعة بسكويت شهية. أقضمها، فتنداح في داخلي عذوبة حلوة، يضاعفها وجهاهما المثمران بالفرح والنشوة.

أنتظر المطر بعكس انتظار الناس له. فكلما انتشرت الغيوم في سماء المقبرة، دغدغت مشاعري فرحة غامرة. طوال لحظات انهماره أعلق رأسي باتجاه منابت نزوله. أتابع كل قطرة، علها تسقط أخاً أو أختاً يشاركانني حياتي الفارغة.

لم تكن لديّ خبرة كافية بتوالد الحياة أو تكاثرها. ولازال هذا الجانب قاصراً في حياتي. كنت أظن أن الأولاد يأتون مع المطر، قلت لعمي:

- أريد أخاً أو أختاً ألعب معهما.

ضحك في ظلمة غرفتنا الوحيدة:

- عندما يأتي المطر، ويلقي علينا بولد، أو بنت، سأجعله يؤاخيك!

وفي ليالي الأمطار، أظل أبحث عن وليد، يسقط علينا من السماء. ظل هذا اليقين، إلى أن بلغت سناً متقدمة من عمري. ودفعة واحدة، سكب عمي كل خبرات الحياة في أذني. وعلمت أن الأولاد لا يأتون مع المطر، كما كنت أتوهم.

في يوم ماطر، لم تهدأ ثرثرته، وقف رجل أمام بوابة المقبرة، قبيل الغروب، يحمل شيئاً صغيراً ملفوفاً بحرامٍ ناصع البياض. كان وحيداً لا يجاوره سوى دموع اختلطتْ برذاذ

المطر. لم يجرؤ على دخول المقبرة. دفع لعمي بورقة دفن ممهورة، وورقة نقدية. وناوله تلك اللفافة:

- لا أقوى على دفن فلذة كبدي بيدي. تصرّف.

انشغلت يد عمي، بدس الورقة النقدية (من فئة الخمسمائة ريال) في جيبه السفلي. وحمل اللفافة بيد واحدة، وتوجه مخترقاً جريان ماء المطر المنحدر بين شقوق القبور، ومتخيراً فجاً قصياً من المقبرة. دفع بتلك اللفافة إليها، وعاد ضاحكاً:

- ها هو المطر يسقط عليك بأخ صغير!

تنبعث رائحة الأرض المعكرة بأديم الموتى، لتسكن تجاويف الأنف. وتعزف هسهسة الأشجار المحيطة بالأسوار المنخفضة، لحناً موحشاً. واستضاف ليل انتصفت ظلمته، مطراً طرق المكان بفجيعة، بحثاً عن لحد يواري به جثته، بعد أن تخلت عنه السماء. كانت نافذتي تطل على صحن المقبرة. ويتراقص شيء من أقصاها، يبين طفلاً رسب في أوحال المطر، ويجلس لإزالة ما علق به. تلوح يده الصغيرة، وتدعوني إلى مشاركته عبثه، أو تخليصه من وحل زائف؛ كان عمي يغط في نومه، بعد أن صر الخمسمئة ريال في طرف مئزره، الذي لم يتخلَّ عنه يوماً... كان ينام كرجل أنهى عبادة طويلة، فأخذته سنة النوم راضياً مطمئناً لم يزعجه صرير باب يفتح، وتسلُّل خطواتٍ حذرة إلى خارج الغرفة متجهة إلى فضاء الموت. خرج الموتى من قبورهم، يبللون عظامهم الجافة بمطر فجاج. ومن بقي له جلد نضحه بالماء المعكر، وانسل لمرقده هانئاً.

كانت خطواتي المتعثرة، تقترب كثيراً من تلك اللفافة.

ظهر طرف اللفافة في لحد صغير، وغير موارى جيداً، نبشت مكانها على مهل، فانبعثت رائحة الأرض المخبأة. تنفس المكان عن أزهار ضحكة طفل لم يكمل رقصه في منزلهم. وجاء إلى هنا ليغني. سحبته من لفافته. جسد صغير مرتو بلطف. ووجه أسدل عينيه، وغرق في اغماضته. علق بوجهه تراب موحل. لم تكن زخات المطر كفيلة بتطهيره من كل تلك الأوحال، فركضت به إلى صنبور استند على ظهر غرفتنا، وأغدقت عليه الماء. غسلته كما تُغسل الفاكهة. وعدت جذلاً إلى غرفتنا. هززت عمي برفق:

- ها هو أخي قد جاء مع المطر كما وعدتني!

فزع كما لم أره من قبل، وعلق أذني بيده، فسقط الطفل من بين يدي. سقط على غير استواء. فحمله عمي كيفما اتفق، باحثاً عن قبر تُغلق دفّتاه، فلا أقوى على رفعهما. ودس الطفل هناك، من غير لفافة تقيه البرد أو الأتربة.!

بعدها عرفت أن المطر لا يجلب أطفالاً، أو أخوة، تكون مهمتهم مواساتي في وحدتي. فخرجت خارج المقبرة، أبحث عنهم بين أطفال الحي. إلا أن كل أولئك الأطفال، يحملونني مسؤولية مواراة ذويهم، وتغييبهم تحت الأرض.

لم أكن أنمو كبقية الأطفال... جسد يكبر وروح صغيرة ترفرف في صدري لا تعرف التحليق جيداً، تتهجى الحياة بعسر يُعيق تواصلها مع مفرداتها، ومع ذلك تواصل تهجئتها أفعالاً توصَف بالغباء حيناً، وحيناً بالعته.

على فكرة، اسمي الحقيقي داود. سأروي لك سبب تغيير

اسمي لاحقاً، أو الآن إن شئت، الناعم، نبزةً لعمي عثمان حصل عليها حينما دفن أحد الوزراء فبالغ في الاعتناء في إنزاله للقبر وبسط تحته ملاءتين وغطاه بملاءتين إضافيتين كي لا يصل إليه التراب، فأطلقوا عليه الناعم سخرية به وبما فعله مع جثمان الوزير. وانتقلت هذه النبزة لي، وقد خشي عليّ أن أموت مبكراً، فحينما قدمت إلى المقبرة كان لديه إيمان مطلق بأن الأطفال الذين يدخلون المقابر يموتون سريعاً ما لم تُغيَّر أسماؤهم. فأطلق عليّ اسم شفيق تيمناً باسم أبيه الذي هو جدي ومات بعد أن تجاوز التسعين من عمره. كان عمي يحلم بأن أمد جذر العائلة الذي انقطع وبقي منه فرع وحيد اسمه داود أو شفيق الناعم.

لم يتنبه عمي إلى حكمة لحياة: حين يتغير اسمك، تتغير أقدارك. فجدي ذو الأعوام التسعين، أخذ كل نصيبي من الدنيا، وعندما وافقته بالاسم لم يعد لي شيء في الدنيا. لقد أخذ ببطاقة اسمه كلَّ شيء خلال عمره المديد!!

آه، سأخبرك...

- ...

- ...

* * *

طعم البسكويت، وثمرة المانجو، هما الطعمان اللذان يسيلان عسلاً في بلعومي. كانت في التاسعة من عمرها. أكبرها بسبع أخرى. كل الصبية يفرون من رؤيتي، كما تفر الطيور من

فوهة بندقية انطلق رصاصها، ولم تصب طائراً، إلا أنها أيقظت الخوف في الصدور. كان يكفي ظهوري، لتبتلع الأزقة أجسادهم الناحلة.

يقوم هربهم الدائم، بمهمة المطرقة على رأسي، في كل حين. وليس أمامي سوى الانغراس في عزلتي. يحيي قدوم الجنائز وحدتي. تتحول تلك البقعة، إلى حركة خاشعة، لا تخلو من أيدي تداعب خصلات شعري. ينتابني فرح مع مجيء الجنازات، وأتمنى موت شخص في كل ساعة، أو أن تطول مراسم الدفن. فمع وجود المشيعين يتلون يومي. يهش المشيعون ذلك السكون المقيت الذي أعيشه داخل المقبرة.

لم أغادر هذه المقبرة، منذ أن قادني عمي إليها. أخرج في يوم الجمعة، لأداء الصلاة، في المسجد المجاور، بصحبة عمي. وتزحف بقية أيام الأسبوع مملة كئيبة. أجاور عمي ليلاً في متكئه، وهو يتنقل بمؤشر الراديو بين إذاعات لا أفهم ما تقول. نشطت همته في إحدى المرات، وجلب تلفازاً لمتابعة الأخبار. وتسلل خبر هذا الجهاز، إلى إمام المسجد، الذي طرق بوابة المقبرة بعد صلاة العشاء، ناصحاً إياه بالتخلي عن احتضان بذرة الفسوق، التي زرعها بغرفته. وقبل ذلك، أوصاه باحترام الموقع الذي يقطنه. تقطّر وجه عمي خجلاً، وحمل التلفاز وباعه بخسارة طفيفة، ليعود متنقلاً بين إذاعات تتلو أخبار الدنيا. وإذا ما استقر المؤشر على أغنية، هرب منها على عجل، خشية أن يسمع أحد الموتى ذلك الغناء، فيبلغ عن فعلته إمام المسجد، ليقطع رزقاً لايمكن له تعويضه بعمل آخر. فخبراته المهنية قاصرة على دفن الموتى، وتقليب أجسادهم.

بعد مضي سنتين على قدومي إلى هذا المكان الموحش، وجدت منفذاً للحياة. فبعد أن صكت كل الأبواب محاجرها عن رؤيتي، فُتح باب صغير، وأطلت منه فرحة، داعبت قلبي وتراقصت على شفتي.

البيت الوحيد الذي استقبلني، هو بيت العم محسن الوهيب. كنت أدخله كقط منبوذ، رُحِّب بمقدمه، ورضي به أهل البيت، لتنظيف حشرات المنزل، وإراحتهم من تكاثرها المفرط. أجلس في آخر المواقع، جامعاً عظامي بين يدي، ومنتظراً أي أمر أتلقاه، لتنفيذ ما يُطلب مني. لا يحدث هذا، إلا بعد صلاة المغرب، ولفترة وجيزة، أتلقى بعدها الأمر بالانصراف. أما الأوقات الأخرى، فأكون على أهبة الاستعداد لاستقبال الموتى، الذين يتساقطون من غير تحديد وقت معلوم... وحرصي هذا، مرده إلى غضب عمي. فأعصابه غدت ساخنة على الدوام. يكفي تغيبي عن الدفن، ليحرمني من الخروج لعدة أيام. كانت حجته، انه يستوجب علي معرفة تفاصيل مهنتي القادمة. والسبب الحقيقي لهذه الثورة، أن تغيّبي يقلل مكاسبه التي يحصدها من أهل المتوفى. فقد علّمني أن أكون تحت نظر المشيعين، بمساعدته في جمع التراب وإهالته، وتسويته، وصب الماء، حتى إذا انتهى الدفن، كان نصيبنا من المال مضاعفاً. وحين يسهو أهل المتوفى عن مد أياديهم لجيوبهم، وتزويدي بما يضاعف دخلنا، ألجأ لتذكيرهم بذلك. تعلمت التسوُّل داخل المقبرة، من غير أن أثير حفيظة المشيعين. علمني عمي جملاً تقال في مثل هذه المناسبة، تجعل الجيوب الجافة رطبة، والنفوس الشحيحة سخية.

أجد نفسي، لاشعورياً، منجذباً إلى بيت محسن الوهيب. أطرق بابهم مع الغروب، وأربض كحية تخشى اكتشاف أمرها، فتربض ساكنة جامدة.

أبناء محسن الوهيب، كأدوات السبّاك؛ منها ما يصل للقذارة، ومنها ما يجلب الماء. فلزهير نفس قذرة، تلوثت بالمياه النتنة. كان رذاذه يصلني في كل حين، من خلال التحقير، وإبخاسي حقي كإنسان. يرفض مشاركتي لهم الأكل أو المشرب. ويستقذر كل قطعة من جسدي. ويتقزز من لمسي قطعة خبز في بيتهم. يصيح بأمه وأخوته:

- يده تقلّب الموتى، فلا تجعلوه يأكل معنا. أحس أني آكل ميتاً حين يشاركنا الطعام!!

خالد يتودد إلي. ويمنحني رضاه في كل حين. مرضه الدائم، جعله يشفق ويتعامل مع من حوله بلطف. فقد يحتاج في أحيان كثيرة إلى المساعدة. لم أكن مستوعباً حدبه وعطفه علي. داهمه في ذات ليلة، ألم مضن في بطنه. كان عائداً من جلسة كيميائية، استهدفت الحد من انتشار تليُّف كبده. حضنني لصدره:

- شفيق، هل تحبني؟

احتويته في صدري. شعرت بما لم أشعر به من قبل. يسألني شخص عن داخلي لأول مرة. لم يكن أحد مكترثاً بما أحمل من مشاعر. ألفت الحديث مع نفسي. وهاهو شخص آخر يضمني إليه، من غير توجس من الموتى الذين يسكنون صدري. في صدري بقايا روائح الموتى، وبيدي هاتين الحاضنتين جسده

الهزيل واللتين جرفتا عظام الأقدمين منهم، والتصقت بنتن الحديثين، لم تثر جزعه:

- شفيق أجبني، هل تحبني؟

لم أكن أعرف إجابة عن هذا السؤال. وقبلها لم أكن أعرف معنى الحب، معنى الكراهية. معانٍ عديدة تتشابك في داخلي ولا أعرف مفرداتها. أتعامل مع الناس من الداخل. أتحدث معهم صامتاً. أشتم، وألعن، وأتلطف من الداخل فقط:

- إذا مت فأحسن وفادتي. فأنا قريب منك الآن، أكثر من أهل بيتي!

وأجهش بالبكاء.

يعاملني صالح كخادم. فمجيئي يعني له استرخاء كاملاً. يشير إلي بتنفيذ أوامره، وفق مزاجية متقلبة، تفور شططاً حين يأتي التنفيذ على غير ما يشتهي... وأستلذ بمقدرتي في همز الظهر (هذه الدراية اكتسبتها من ظهر عمي الذي يتحجج بإنهاكه المستمر، فيخلع ملابسه ويناولني زجاجة زيت السمسم، وأظل طوال الليل أدعك ظهره الذي يمتد كبحر، كلما جدفت به، ابتعد مداه. أظل أدعك ظهره حتى يغيّبه النوم. وإذا رفعت يدي فر من عينيه النوم، وصاح بي:

- لكي تكون إبنا باراً أرحني من آلام ظهري.

وكأن الاحتياجات والكلمات، تتنقل من مكان إلى آخر، بتغيرات طفيفة. فصالح يضع أسفل ذقنه مخدته الأثيرة، ويكشف عن ظهره، وتكون مهمتي دعك ظهره. فيحدث أثران لذيذان

بالنسبة له: استرخاء تام، والاستمتاع بمشاهدة التلفاز. أغرى هذا الوضع العم محسن، أن ينبطح بجوار ابنه، لأقوم بدلك الظهرين معاً!

جليلة فاكهة هذا البيت. حين تجد أبوها وأخوها محتجزين يديّ تتدخل، وتمسك ظهر أبيها بدلاً مني. وهي تضحك من تغضنات ذلك الظهر، الذي امتدت على جنباته، ثآليل متباينة الأحجام...

وتنهض في موعد العشاء لمساعدة أمها، وتحرص أن يكون عشائي في صحن مستقل، كي لا يؤذيني زهير بكلماته (هكذا توهمت وربما تكون الحقيقة) كي لا أؤذي الجميع بأناملي الدائرة بين أطباق الطعام الذي يلتهمونه.

تلقيت أمراً من زهير بالانصراف، فنهضت فاتحاً الباب، ومغادراً فلماً عربياً انتصفت أحداثه، كنت متلهفاً لمتابعته، وأمر الانصراف جعلني أكمل قصته من مخيلتي. كنت أسير متثاقلاً وحفيف فستان يتبعني واسمي يتردد بصوت متنغم:

- شفيق انتظر.

كانت تقف في عمر التاسعة مفصحة عن بذرة جمال سينفتق عن حورية تسبي القلوب. مدت يدها بثمرة مانجو:

- هذه لك.

تركتها بيدي وعادت تسحب الدنيا خلفها. مضيت إلى مساكن الموتى، حاضناً أول رعشة تخترق صدري، وتحيلني إلى موجة في عمق البحر، تتراقص بحثاً عن نهاية لخفقانها.

ثمرة المانجو هي الصنارة التي علقت بقلبي، وأبقتني معلقاً بألمي بين ماء لا أصله، وهواء يتقطع في رئتي.

(٣٠)

حذّرت عطية مراراً من ارتداء بدلته العسكرية. وأفهمته أننا في حالة جمع معلومات، وعلينا أن نظل مرتدين ملابسنا المدنية، كي لا نثير شبهة، ونخلق التحرّز حيال القبّار، أو المجموعة التي تتاجر في أعضاء الموتى. وبفجاجة كان رده:

- أشعر من دونها أني لا أساوي شيئاً.

- لتكن كما قلت، فقط دعنا نكمل مهمتنا.

يحمل رأساً عُجن بخميرة الغباء. فهيئته تدل أنه مدمن على ابتلاع أقراص منع الفهم. هكذا كنت أتصور. وتيقن هذا التخمين في تلك الليلة تحديداً.

كنت أجلس في الشرفة المطلة على المقبرة، مترقباً ظهور شفيق في دورته الأسبوعية، والتي يستعد لها بارتداء ثوب ناصع البياض، ووضع كوفية مخرمة فوق رأسه، بعد أن يسدل شعره الفاحم السواد إلى الخلف، وربما يعقصه، ويتجه مباشرة في خطوات عجلى صوب زاوية مظلمة في أقصى المقبرة... كانت إشارة خروجه، مرتبطة بتوافد مجموعة من الباعة الباكستانيين، والتشاديين، والهنود، على مدار اليوم الذي يسبق خروجه.

ويتصادف معها خروج مساعديه إلى خارج المقبرة، لقضاء بقية الليل بصحبة أحد أولئك الباعة.

كان السؤال الذي يخالجني، كيف يتم تهريب أعضاء الموتى، من غير اكتمال الظروف الملائمة لبقائها سليمة.

العمليات المقترنة بتوافد الباكستانيين والهنود، حمل سلع إلى داخل المقبرة والخروج من دونها. بالأمس تماماً، توافد أولئك الباعة، وانسلوا إلى داخل غرفته. وفي فترات زمنية متباعدة، ينسل الواحد تلو الآخر، من غير أن يثير الريبة بشيء يحمله أو يخبئه.

- هل يضعون الأعضاء المنهوبة أسفل ملبوساتهم؟

خرج شفيق يواسع بين خطاه، وكأنه يرقص. وكانت فرصة ملائمة لاكتشاف خروجه الأسبوعي إلى هذه الزاوية من المقبرة، صحت بعطية:

- هذه فرصتنا، اتبعني بعد أن تتخلص من بدلتك.

وقفزت سلالم الدرج رافعاً ثوبي كي لا يعرقل قفزاتي المتتالية. واخترت زاوية مظلمة من المقبرة، وتسلقت سورها، لأجد عطية خلفي بزيه الرسمي. لم أستطع تفجير حنقي عليه، لكنني توعدته في سري، بأن أعلمه كيف يتلقى الأوامر.

يبدو أننا سقطنا على منطقة رابية، امتصت سقوطنا بشكل لطيف. وسرنا ملاصقين لجدار المقبرة. كان شفيق قد بلغ غرفة ضيقة. فتح بابها بصرير سمعناه عند سقوطنا. وأضاء مصباحا ارتكز في منتصف الغرفة، ولم يضئها كاملة. بقي جزء منها

مظلماً، تتحرك فيه ظلال غائمة. في الوجه المقابل لزاوية رؤيتي له، لم يكن هناك سوى ثلاجة ضخمة، وأردية نسائية قليلة، وأريكة بسط ملاءتها المغبرة، بعد أن أزال الغبار من عليها. كان يتصرف ببطء وهدوء، وصوته يلج مسامعنا بوضوح:

- جليلة

- . . .

- هل تأخرت عليك يا حبيبتي؟

ضربت جبهتي بكفي: كيف لم يخطر ببالي أن تكون تواطأت مع القبّار... نعم مقولات العامة تحمل جزءاً من الحقيقة. ملف القضية أورد أحاديث أنها أوقعته في حبائلها. سيناريو سهل، وممتع وغير متوقع. تخبره بفكرتها، وبوعود صغيرة، يرضخ العاشق المتيم. فتفتعل الموت، وتدفن لتجده يخرجها قبل أن تختنق. هذه هي الجريمة البسيطة غير المتوقعة. هو الوحيد القادر على إخراجها من قبرها من غير إثارة أي فضول. فهل أحبته فعلاً، أم قررت أن تهرب معه من سمعتها السيئة، ورضيت أن تعيش معه هنا؟ أم أن رأسها الصغير متخم بالحيل، كما قالت إحدى جاراتها، واتخذته مسلكا لتهرب إلى حبيب آخر، وحياة أخرى؟.

هذا الفاسق استطاع أن يؤدي دوره بإتقان. استطاع منذ البدء إبعادَ نفسه عن حبائل الشك؛ منذ أن جاء مع أبيها للتبليغ إلى يوم افتعال دفنها حين بكى واستبكى ووقف مع ذويها لتقبل العزاء.

- هل لتلك الفتاة الفاتنة أن تقوم بهذه الفعلة المبتكرة كي

تهرب إلى داخل هذه الغرفة المنزوية والمشبعة برائحة دفينة؟

المرأة سريعة التقلب كالريح تنتقل من جهة إلى أخرى وفق هواها، وحينما تعلق كلمات الهيام في أذنيها تغدو قطة مغرمة باللمس!

- جليلة

كان يردد اسمها بوَلَه، مموسقاً ومقطِّعاً حروفَه بإشباع:

- حبيبتي جليلة

أفي هذه الغرفة يمكن لها أن تعيش كما تريد؟

كان شفيق مطمئناً كثيراً، يغدق كلمات الغزل، من غير أن يتلقى جوابها:

- انتظري قليلاً حتى أهيئ لك المكان؟

بخ قارورة عطر نسائية في كامل الغرفة. كان هذا هو عطر جليلة، ذلك العطر الدبق الذي ظلّ معلقاً في غرفتها، وفي ملابسها، وفي خزانة شفيق التي حوت زجاجة عطر كاملة يجاورها غطاء لنفس الزجاجة (هاهو يحل لي معضلة غطاء زجاجة العطر الذي وجدته بغرفته، وفقد من غرفة جليلة). كان سخياً في تبذير زجاجة العطر، ولازال اسمها على فمه.

كفَّ عن بخ العطر، وأخرج من كيس كان يحمله: فستاناً، ومئزراً، وملبوسات داخلية، وقطع شاش، وقوارير عطر مختلفة الأنواع، ومسجلاً وشريطاً. وعلق على مشجب جانبي الملبوسات، وقطع الشاش، وأبقى الفستان بين يديه:

- جلبت لك فستاناً رائعاً. أعرف أن ذلك الهندي الجشع

بالغ في ثمن خياطته لكنني كنت مستعداً لإعطائه ما يريد.

- . . .

- ها أنا جلبته معي كما وعدتك في زيارتي السابقة.

النساء مدلهات يمعنَّ في غرورهن حين يجدنَ عاشقاً مقيداً برائحتهن، وينظرن إلى عشّاقهنَّ من عل. لماذا تتركه يهذي وحيداً؟

. خشيت أن تنبهه حركتنا. كان عطية متوثباً للانقضاض عليه. وفي كل محاولة له، أعيده إلى مكانه، راجياً منه أن لا يحدث شيئاً إلاّ بأمري. واحتجت إلى ان أغرس فمي في صوان أذنه مراراً ليصل الأمر إلى مخه المغلق، متحملاً أبخرة فمه الكريهة، وعرق جسده المكور.

فرد شفيق الفستان على الأريكة المقابلة لنا، وقفز للأمام بحركة راقصة، تقترب من الحركات التمثيلية الهزلية:

- يمكنك الخروج الآن، سيكون المكان رائعاً بوجودك.

- . . .

- . . . اللّه. . . أي جمال أنت فيه!

- . . .

- . . .

(٣١)

كبرت تحت عيني، وتعلقت بها.

في البدء سرقت وجهها وخبأته بين ضلوعي، حتى إذا عدت لفرك ظهر عمي، تخرج من ذاكرتي. تجلس مجاورة لجلستي، وتهدل كحمامة تحرش بها غصن يابس.

أحببت ظهر أبيها، وخلقت منه رقعة للعب، وجذب انتباهها. أحصينا الثآليل المنتشرة على شاطئ عموده الفقري، والممتدة على شكل أرخبيل من الجزر المتباعدة. وتشاركنا في نتف الشعيرات المحاصرة لرقبته، والهابطة لعنقه بتوحش، كتشابك أحراش بدائية. وعملنا أظافرنا مجتمعة، لهرش حكة كانت تعتريه، أو أنه خلقها كمبرر لاستزادة بالمتعة والخدر.

ومع ازدياد شهوته للحك، اتهم جليلة بنقل العدوى إليه. يومها غاصت في خجلها، وتوارت عن الأنظار بقية الليلة. كم كرهته ليلتها، وتركته يركض بأظافره التي لاتصل إليها يده، لتذويب هرش تمرد أسفل لوح كتفه.

أبدى عمي انشراحاً لتحسن مهارتي في جلب متع إضافية أثناء الدعك والهمز. فبعد أن أنهي تهميز ظهر أبيها، وأتلقى

أوامر الانصراف، أعود سريعاً إلى غرفة عمي، مطالباً إياه بالانبطاح لأدعك ظهره، مراجعاً ذكرى ما حدث من جريان حمم قلبي على ظهر أبيها. فمع تلامس أناملنا بين أرخبيل جزره، تتولد بروق صاعقة تتركني متفحماً، ومشتهياً مضاعفة الصعق الكهربائي.

وكما احتجبت جليلة احتجب ظهر أبيها. جئت كعادتي سالكاً طريقي إلى موقعي داخل البيت، ككلب يربض في زاوية مخصصة له. يبسط ذراعيه، ويضع رأسه في مستوى أفقي يمكنه من رؤية أي إشارة آتية. كنت أنتظر محسن الوهيب أن يستلقي على بطنه مجرداً، وأن تأتي جليلة بالزيت لنبدأ مهمتنا اليومية المحببة. زجرني زهير معنفاً:

- هه، أنت، أتظن نفسك طفلاً تدفع الباب وتدخل من غير استئذان.

خففت أمه حدة جملته:

- يا ولدي، للبيت حرمة.

ملتصق في لحمة الاستذلال، أغوص عميقاً، كمسمار اتسع رأسه بفعل الطرق.

تنبهت لجسدي المتفتق، ولشاربي المخطوط كطبقة إسفلت مدت على طريق وعر. جسد يعلو ورفة طفل تسكن صدري. جاء العم محسن مرتدياً ملابسه مجتمعة، متخلياً عن التخفف الذي كان يمارسه مع مجيئي، وتحدث متكلفاً:

- نعتذر عن استقبالك يا شفيق، فقد غدوت رجلاً.

في أول ليلة من منعي، تهت. كنت أسلك الطريق إلى بيتهم مراراً. وقبل أن أطرق الباب، يظهر العم محسن ككلب مسعور، ينبح بصوت أهوج، فأتراجع. وأعود عابراً الشارع الفاصل بين المقبرة وبيتهم. درت حول المقبرة مراراً، وتحركت صوب المقهى المجاور. اصطففت مع الزبائن أطالع التلفاز، ويدي تتخيل ظهراً مسرجاً، تحاول إنزال سرجه لدعك ظهره وإجلاء درنه.

تعلمت في المقهى أشياء كثيرة: شرب الشيشة، وسماع الكلام البذيء، ومعرفة دهاليز الرجال، وأسرار النساء المخبأة، ولعب الورق. تعلمت كل شيء، إلا نسيان الصواعق التي تجتاحني، حينما كانت تتقابل أناملنا بين أرخبيل الجزر المتناثرة على ظهر أبيها.

أسرفت في شرب الشيشة والتدخين معاً. ولاحتياجي إلى دليل ينبئ عن حرائق صدري، أدمنت التدخين. كان الدخان الكثيف المنبثق على الدوام من فمي، شارة لحريق عظيم، شب في هذا الصدر.

سمح لي العم محسن بزيارات خاطفة، وفي حضرة الجميع، وبعد ان أطرق الباب، وأستأذن في الدخول بصوت مرتفع، وأن أبقى في غرفة الضيوف، من غير أن أتجول داخل البيت كسابق عهدي. شروط كبلت حركتي هناك. أترك في أغلب الأوقات في غرفة الضيوف من غير أن يلتفت إلي أحد. كنت في تلك الزيارات أترقب خروجها، أو ألمح طيفها أو أسمع صوتها. كنت أضع أذني على الباب الذي يفصل غرفة الضيوف عن بقية البيت، فأسمع صوتها يأتي هزيلاً ممعناً في البعد، وكأنه

قذف في بئر سحيق. خلا المكان منها، وكأنها لم تكن هنا. كأنها رحلت مع طلاء الغرفة الذي نكب وغار في الزمن. لاشيء باقٍ من حضورها، سوى آثار تدلِّل أنها كانت هنا. وجدت خصلة كثيفة قصت من شعرها، أظافر مطلية مقلمة، قلم روج، بجامة، كتاب مدرسي. كنت في كل مرة أسرق شيئاً من بقاياها التي تتخلص منها أو أنها زائدة عن حاجتها. مرة وجدت صورتها، فخبأتها بين صدري وثوبي، وخرجت. كانت تجلس على الكنب الذي أجلس عليه في زياراتي لهم، ناثرة شعرها في نصف رقدة حالمة، مطلقة ضحكتها كسماء تخلت عن غيومها.

سرقتها جزءاً جزءاً حتى اكتملت بها.

* * *

- يمكنك الخروج الآن، سيكون المكان رائعاً بوجودك.

- ...

أي دلال تمارسه عليه هذه الشقية. ضخ فمه كل الكلمات، وهي لم تمنحه كلمة واحدة. آه! العشق يخلق الذل. وحين يكون القلب متدفقاً بعواطفه، يجني انكسارات لا مثيل لها.

يجلس على الأريكة، باسطاً الفستان بين يديه، ومنظفاً أطرافه من خيوط زائدة تدلت في جهة الصدر.

- هل أنت غاضبة لتأخري عليك كل هذه المدة؟

- ...

- أتوسّل إليك أن لا تغضبي، لو تعلمين سبب تأخري لعذرتِ.

- . . .

وقف أمام بصري تماماً، وأغلق بوقفته الشقوق التي نطل منها عليه. كدت أسمع وجيب قلبه المتراكض. صدره قفص أغلق على عصفورة تمعن في استكانتها، وهو يمخض جناحيها بارتعاشات وجده.

- تأخرت عليك، في انتظار أن يفرغ الخياط من فستانك.

- . . .

- هؤلاء الخياطون تخلصوا من ذمتهم في بلادهم وجاءوا هنا بلا ذمم، تصوري، يريد ألف ريال مقابل خياطة الفستان.

- . . .

- لم أشأ أن أزورك من غير أن أجلب الفستان الذي وعدتك به.

- . . .

- ألا تصدقين؟ واللّه لا يشغلني عنك شيء.

- . . .

تحرّك مبتعداً عن الشقوق التي نطل منها، وفرد الفستان على الأريكة، ونهض باتجاه الزاوية المظلمة من الغرفة، فتجسدت ظلاله كمارد تشعبت أطرافه، وغدا أقرب إلى الكائنات الأسطورية.

كانت يداه تعتركان للتخلص من ثيابه، فتتمدد ظلال جسده على جدران الغرفة، كأشجار النارجيل ذات الرؤوس المثقلة بثمارها. وأقبل متخففاً من ملابسه، مبقياً سروالاً تخلخل ولم يستقر على خاصرته، وأنار مصباحاً آخر، فأضاءت جنباتُ تلك الغرفة، وقذفني بحجر صلد أفقدني توازني.

قصف كل توقعاتي دفعة واحدة.

اتجه إلى ثلاجة ضخمة قبعت في الزاوية اليسرى. ورفع غطاءها بهدوء، وانحنى ماداً يديه لالتقاط جسد مثلج تماماً. احتواه بين صدره ويديه، فتناثر شعر كستنائي كثيف حول كتفيه ومرفقيه. شعر علقت به ندف الثلج. لا شيء يتحرك في ذلك الجسد، إلا الشعر المجنون. حمل الجسد برفق وهيام بالغين، وبسطه على تلك الأريكة. جسد غطي نصفه الأسفل بملاءة بيضاء، بينما تكشف النصف الأعلى عن حورية، اقتصت الحياة من جمالها الطاغي بوأدها مبكراً. نصف مستو إلا من جبلين ثلجيين، هربت حلمتاهما من أدغالها، كزهرات توت فرت من أشواكها. صدر كمصكوكة فضية بارعة الدقة والصناعة. لها وجه مغمض العينين أمسك بفتنة ضارية. ولو أن هاتين العينين منفتحتان، لأحرقتا الكون ومضتا من غير أن تعرفا سبباً لكل الحرائق التي تتبعها.

- أهذه هي جليلة! يا اللّه، ما الذي يحدث هنا؟

تناول شفيق قطعة شاش، بللها في قارورة عطر مفتوحة الفوهة، وأخذ يمسح ذلك الجسد بحنو، وخشوع، مزيلاً قطع الثلج الممسكة بالجسد، ومتأملاً وجهها بهيام:

- في كل يوم تزدادين جمالاً.

كان الماء يتقطر من أطراف الجسد، ويتراخى على الأريكة تراخياً بطيئاً فاتراً. استعدَّ له شفيق بخلع ثوبه، والبقاء بذلك السروال القطني المتخلخل على خاصرته، وطاف حول الجسد المسجّى مقترباً من فخذيها، ومفرجا بينهما ببطء وأناة. ويتراجع للحظات، غارساً أنفه الرقيق بين الفخذين المنفرجين بتخشب. ويعاود الدوران حولها، كذئب يتشمم فريسته، قبل أن ينهش لحمها.

صعق العريف عطية، حين لمحه يتوسط صحنها. أحسست به يكاد يقفز باتجاهه، وهو يكز على أسنانه:

- الكلب يضاجعها وهي ميتة!

لجمت حركته بعنف، وأبعدته إلى الخلف. فاستجاب لدفعي إياه بحمحمة خيل مكسور. غرس فمه في أذني مرة أخرى. كلماته اختلطت بأبخرة فمه الكريهة:

- الآن عرفت سر تواجد أولئك الوافدين في غرفته... الكلاب يضاجعون الموتى...

- تمهل حتى نرى.

- وهل تريدنا أن ننتظر حتى يضاجعها أمامنا؟ لن أصبر على هذا.

كززتُ على أسناني بغيظ مضاعف:

- اصمت، وتمهل. اعتبر هذا أمراً عسكرياً.

أظنه قال شيئاً لم أسمعه. كنت مذهولاً ومتصدّعاً كآنية

فخارية تلقت ضربة شاكوش من عامل لا يعرف كيف يُلقي بضربته!!

فتر الجسد المسجّى، ولانت أطرافه بعض الشيء. كان شفيق يتحرك ببطء واطمئنان. فرج بين فخذيها أكثر مما سبق. أخذ يتشمم فخذيها، ماساً بكفه منطقة متوغلة من فخذها الأيمن.

. . . لم أعد قادراً على التركيز. شيء ما يعصف بي، وجنون الدنيا يجتاحني. كنت مصعوقاً تماماً. أردت أن أخفف من أثر هذه الصاعقة بملامسة عطية، فلم أجده يجاورني. كانت قفزاته تبدو كأخيلة جنٍّ تتراكض بين قبور المقبرة، مبتعداً إلى خارجها.

كظمت غيظاً مضاعفاً عليه، وبقيت أتلظى، متابعاً ما يحدث داخل هذه الغرفة، التي تجسد حيوانية هذا العفن.

أكمل تشمم فخذها متحسراً:

- بدأت الرائحة تظهر من هنا يا حبيبتي. . .

- . . .

- لا عليك سأعالج الأمر.

وكمن نسي شيئاً، تحرك لجلبه من المشجب، عاد ليلف كل فخذ بقطعة شاش ناصع البياض، ويحزم الجثة بمئزر من وسطها، بعد أن أزاح الملاءة البيضاء. وتناول الفستان المعلق على المشجب، ودس به ذلك الجسد المجمد. وأسدل شعرها من الجهتين. ووضع أسفل من رأسها مخدة. ووضع رأسه

بلطف بين نهديها الجبليين:

- كيف حالك اليوم يا حبيبتي.

- ...

كان شيئاً يحوك في داخله، فلا يستقر على حال. نهض وتناول زجاجة العطر ورش بها الجثة كاملة، وردد من غير أن ينظر إليها:

- لا تحسبي أني منزعج من هذه الرائحة. لا والله لا تزعجني رائحتك. والعطر الذي أرشه عليك، ليبقى شذاك فواحاً كما كنت دائماً.

- ...

- لا زلت غاضبة لتأخري عن زيارتك لأسبوعين؟

- ...

- أقول لك بصدق، قبل أسبوع جاء عسكري، فأزعجني بمجيئه، وخشيت أن يكتشف وجودك معي...

- ...

- لن يفرقنا أحد، قولي لن يفرقنا أحد.

- ...

تناول خصرها، ورفعها إلى صدره. ضمها بحنو، ورتب فوضوية شعرها، وأجلسها من غير استواء واضعاً خلفها مخدةً لينة تثنت تحت ظهرها:

- جلبت لك اليوم، أغنية جميلة سنسمعها معاً.

- ...

- هي أغنية قديمة لكنها ستعجبك

وطبع قبلة على جبهتها، وأدار المسجل، فانبعث لوعة دفينة من الجهاز:

لو حكينا ياحبيبي منين نبتدي الحكاية.

دي قصة حبنا لها أكثر من بداية.

انتشى كثيراً، وانطلق يروي لها ما حدث طوال الأسبوعين المنصرمين.

(٣٢)

... حبي لها له بدايات وليس له نهاية.

... عقرت سمعتها تماماً...

... وقوفها الدائم في نافذتها خلق في داخلي وهما كبيراً...

ليلياً ألمحها تطل من نافذتها الشمالية، حيث أكون جالساً على أريكة تقبع خارج غرفتي، مستمعاً لمسجل انتهى صوته بسماعة استقرت في أذني اليمنى. ألمحها تقف في مواجهتي تماماً، فينتشي الوجود. يخرج الموتى للرقص والغناء، يزفونني إليها.

أنتظر عبورها المدرسي وعودتها يومياً. تأتي كالغمامة المثقلة بالمطر. يكون الصبيان منتشرين على قارعة الطريق. كل شاب ينتظر فتاة ما. يتضاحكن وتمرق كل منهن إلى بيتها.

كانت تعبرني كحائط قديم، نسيت أنها كتبت على وجهه قصة عشق. لم تكن تأبه بي كثيراً. في إحدى المرات صبَّحت عليها، فلم ترد التحية. ومع محاولتي الثانية، كان زهير يقف على رأسي يوبخني بعنف:

- لو ألقيت عليها التحية، فسأجعلك أحد نزلاء مقبرتك.

لم أسمع بخبر القبض عليها، من قبل الهيئة، إلا في ثالث يوم. سبقتها بليلة عملية إغلاق نافذتها التي تطل منها. كنت في المقهى، حين تجاذبوا الحديث عن كيف تم القبض عليها. يومها أفقت من خدري، فالنافذة التي تقتعدها تُطلّ مباشرة على بيت محمود. طُعنت تماماً. وشفيت من جرحي سريعاً. أخذت أبحث عنها في كل مكان ولا أثر لها. ومنعت تماماً من زيارتهم. لم أدخل بيتهم بعد القبض عليها إلا مرة واحدة. حينما تسللت إلى داخل غرفتها، وسرقت غطاء زجاجة عطرها لأتنشقها في وحدتي، متأملاً صورتها التي سرقتها سابقاً، أفعل هذا كلما تراقص وجهها في مخيلتي.

كنت أتشمم أخبارها من أفواه الناس، من غير أن أجرؤ على السؤال عنها مباشرة. وفي تلك الأيام، تبرع الجميع للحديث عنها، وعن مغامراتها الليلية...

وتطيّر العجيلي كعادته مني، حينما سمع أن أمها في ندبها لها كانت تقول:

- هذا فأل شفيق، خطبها فأسرع الموت إليها.

عندما فاحت سيرتها وغدت منتنة بالنعوت الساقطة التي وُصمت بها، طمعتُ أن تكون لي وحدي، فلن يقبل بها أحد بتلك السيرة المخزية. ظننت أن أباها سيسارع بتزويجها بأول طارق يطرق بابه حتى ولو كان كلباً، وطمعت في أن أكون ذلك الكلب!

تعمدت الصلاة بمحاذاة العم محسن في صلاة الجمعة. وبعد انقضائها، ملت عليه طالباً يدها، فربت على كتفي:

- ليس هذا أوان مثل هذه الأحاديث.

كان لا يزال جريحاً، والألسن تمضغ سيرة ابنته. واختفى أخوتها من الحي، ولم يخرج منهم أحد.

وبعد مضي ستة أشهر من قبض الهيئة عليها، وسّطت العم يحيى الكباري لخطبتها، فكان ردهم:

- لم تمت جليلة حتى نهبها له.

تحولت حياتي إلى عذاب يُصلي كل أوقاتي. كنت أنتظرها في كل مكان تعبره. تحولت في حياتها إلى رعب ينتظرها في كل مكان تعبره. ولكي تتجنب كلماتي ورائحتي، كانت تصطحب أحد أخوتها، فأفر من وجهها، كشيطان قرئت على مسامعه المعوذات، فاحترق وانزوى، يجفف حروقه، ويعود حاملاً آثار حرائقه.

أيقنت من نفورها الدائم، وأيقنت أيضاً أني لن أصل إليها. فقد ربّيت في داخلها الرعب. وربّت في داخلي العشق. كنت محتاجاً إلى أن أنفرد بها للحظة واحدة، وأقول لها إن حياتي لا تساوي شيئاً من دونها، لكنها في كل مرة، كانت تصطحب أحد أخوتها، أو تساير صويحباتها، لتقفز الشارع الذي أتواجد فيه قفزاً.

أول مرة أعرف أنها أودعت قلبها في صدر آخر. كان محمود في المقهى حين غمزه ياسر وهو يتجهز لمغادرة المقهى:

- ما زالت تنتظرك في نافذتها كعادتها.

لم أكن حريصاً على معرفة من هي التي تنتظره. فكل واحد من شباب الحي معلق قلبه في غصن فتاة. ومع مغادرة محمود، سال فم صديقه ياسر، بحكاية عشقه لجليلة إبنة محسن الوهيب على مسامع بقية أصدقائه. كان موقع جلوسي، يمكّنني من سماع كل تلك الحكايات. ليلتها غرقت في خيبتي. حمم من الجنون اجتاحت مخيلتي. عصفت بكياني. قمت على عجل. كانت النافذة مفتوحة، وهي تطل منها، كشمس أصبغت الكون بصفرتها، فهوى المغيب وبقت تناضل في شرنقتها كي لا تهوى لقرار بحر عميق. كانت تلوّح بيدها لمحمود الذي منحها ظهره. ومضت خطواته تخبُّ في شارع متعرج.

في ذلك الصباح، فرت العصافير من صراخ أمها، وندبها لها. ماتت هكذا من غير مقدمات. وكأنها سفينة وصلت إلى الميناء، ولم يكن أحد متوقعاً وصولها... هكذا تموت... وصلت قبل أخيها، الذي ملت منه كل الأمراض، لكنه انتدب أخته لتكون سابقة على مقدمه.

(٣٣)

ارتجَّ حينما وجدني أقف أمامه شاهراً مسدسي في وجهه. أعادها إلى الأريكة، وتهاوى باكيا كطفل. أيقن أن لعبته ستُخطف منه، وسيعاقب بحرمانه منها. نظراته الزائغة تذوي، وهو يحدق في جثمانها الذي تخلص من ندف الثلج، وتقاطرت مياهه في بقعة قريبة من قدميه. كنت راغباً في الدخول إلى أعماقه. كان مستسلماً بدعة. يقترب من حبيبته ويزيل المياه المتجمعة في نهر صدرها، ويقلب بصره بيني وبينها. كان محتدماً ومعبَّأ كبالون ملٍّ من انتفاخه، يبحث عمن يريحه من تعلقه في الهواء. كان راغباً في أن ينفجر دفعة واحدة. تخليت عن حذري، وأنصتّ له...

* * *

مات عمي!

فجأة، وجدت نفسي وحيداً تماماً، ليس لي أحد. أقبع داخل غرفتي، وأخرج لدفن الموتى. في إحدى المرات، قمت بدفن امرأة، وحينما حل رباط كفنها لمحت في وجهها صورة أمي. تمنيت ساعتها، لو أني أستطيع إخراجها وإبقاءها بجواري.

أن تبقى جسداً فقط أحط رأسي على صدرها، حينما تثقل همومي. أحببت هذا القبر كثيراً. وحين تضيق بي الدنيا، أجلس بجواره، أحدثها عن حزني، فأشعر بالراحة تماماً. يومها فكرت في طريقة لبقاء الجسد متماسكاً.

واخترت قبراً آخر ليكون موقعاً لأبي، وقبراً لأخوتي، ثلاثة قبور لفتيان وقبرين لأختين. وبقيت أعيش حياتي هكذا، أسرة صامتة، أنا الوحيد المتحدث بألسنتهم.

- ...

- ...

- ...

- ؟؟؟

- ؟؟؟

- !!!

- !!!

* * *

لا أعرف أشياء كثيرة خارج المقبرة. أما داخلها فأعرف عن الموتى أموراً كثيرة: تنظيف القبور، لملمة العظام، توسيد الموتى، أنواع النمل القارض لِلجثث، وانواع الاعشاب النابتة على حدبات القبور، سكون المقبرة، أنواع عصافيرها، حركة غربانها، فصيلة الحداءات التي تأتي في مواسمها، معرفة أعمار الموتى من عظامهم.

كنت مكتفياً بالموتى عمن سواهم، حتى أحببت جليلة، نسيت الدنيا وتذكرتها.

سعيت إلى الوصول إليها، وأخذت أقلّب حالي. ما الذي يمكن أن يجذبها إليّ؟ يبدو أني كنت ميتاً حقاً!

عرفت أن المال يقوّم اعوجاج المنكسرين، فانتابتني حالة من الجشع، بعد أن قمت بتنظيف قبرٍ وترحيلِ عظامه. كنت أجمع عظام أحد المتوفين، حين عثرت على عمود ذهبي كان يوصل أعلى الفخذ بالساق، فاستللته وادخرته علّي أجمع المال لتقويم اعوجاجي. من هنا حرصت على تقليب الموتي جيداً وفتح افواههم. كان الذهب مخبأً في جزء من أجزائهم. الأغنياء يظلون أغنياء حتى وهم داخل لحودهم. تركيبات، تلبيسات، تقويم الاعوجاجات، خواتم منسية. سلكت مسلكاً آخر لجمع المال من خلال المبالغة بالعناية بالموتى الجدد، ورعاية قبور الأثرياء، والتربص بذويهم حين يأتون لزيارة موتاهم، مبدياً عناية فائقة بموتاهم. غدوت أبحث عن المال في أكفان الموتى وقبورهم!! هذا الجهد مضن. فمن بين مئة قبر تجد شيئاً مدسوساً في جثة، عليك انتظارها حتى تتحلل. كنت أجد عنتاً بالغاً. فأقلعت عن هذا الجشع، وسعيت لاكتساب ود الأبرار، من الأبناء الذين يحرصون على زيارة ذويهم وانتعاشهم برؤية الشجيرات تتراقص على قبور موتاهم. يدفعون كثيراً لتظل هذه الشجيرات خضراء. فغدت من مهام استثماري، ابقاء شجيرات تلك القبور خضراء على مدار العام، حتى وإن لجأت للتدليس بوضع أشجار اشتريها من الباعة الباكستانيين أضعها في أوقات زيارة أولئك الأبناء.

حجبت عني عيشتي داخل المقبرة، كيف يعيش الناس. هنا أعرف الناس عرايا، لايملكون مقدرة ولا إرادة. أقلّبهم كيف أشاء. أجهل أموراً كثيرة، أخذت أتعلمها على كبر.

أعيش بين العري. كل شيء هنا يعود إلى أصله، إلى البداية الأولى. كل أولئك الذين يشيحون بوجههم عني، يأتون إليّ عراة. ساعتها، لايقدرون على هشي، أو هش النمل الباحث في أجسادهم، عن غذاء يواصل من خلاله الحياة. . كما نأكل نؤكل.

فبعد أن يسلب الإنسان سر الحياة يعود صلصالاً، جسداً مسجى، يتحلل إلى أتربة. ألملم عظامهم بعد مضي سنتين على دفنهم. يكونون فيها عظاماً نخرة. تجمع عظامهم مجتمعة، وتذهب في سيارة، لتقذف بهم بعيداً. أبقي على أعجازهم، وأدسها في ركن قصي من القبر. كانت ترعبني الجماجم المجوفة. جسدان لم أقرب من قبريهما بتاتاً. فبعد دفنهما بعامين، نزلت إلى قبريهما لجمع عظامهما، وتهيئة قبريهما لإحلال موتى جدد. كان كل شيء على حاله، الوجهان باسمان، وبدناهما لم تمسّا بتاتاً. يومها عرفت أن هناك أناساً لا يقرضهم الموت. يبقون أحياء في قبورهم.

وتعلّمت أيضاً، أن الأجساد الميتة تهرب بأبدانها حين تثلج، أو تحنط. فجأة رغبت في التحنيط. قضيت على قطة أزعجتني بموائها المستمر ليلاً، شققت بطنها وملأته ملحاً وكافوراً وأخطته بوتر رقيق، ووضعتها هنا، في هذه الغرفة المنسية مُن المقبرة. وبعد مرور خمسة أيام فاحت رائحتها، جاء النتن من رأسها، فأعدت التجربة على قطة أخرى، وملأت فمها

ملحاً وكافوراً. وبعد مضي شهر، تهرأ جلدها ووزعت رائحتها. أقلعت عن التحنيط، وأخذت أبحث عن وسيلة لإبقاء الجسد متماسكاً أطول فترة...

أبقيت لحماً وسمكاً في الفريزر لسنة كاملة، وحين أخرجته كان متماسكاً. تركته يفتر، وأعدته للثلاجة، واستمر على حاله سنة أخرى. من هناك، كنت انتظر امرأة تكون لي لوحدي. ولم أكن أتصور بتاتاً أن تستجيب جليلة لأمنيتي بهذه السرعة.

* * *

أول مرة احتويتها بين ذراعي يوم دفنها. كانت رطبة ناعمة. شممت رائحة العود ينبعث من ثنايا جسدها. لم أطق إغلاق قبرها. كان علي إتمام مهمة الدفن. قمت بالعملية على خير وجه. وحين غادر المشيعون المقبرة، فتحت قبرها على الفور. كنت عازماً على أن تكون معي، ألا تغادرني كما غادرتْني حية. حملت جسدها وأودعته في داخل الثلاجة. كان هاجسي أن أسكنها حتى أنها لم تحبني، فروحها تلك غادرتها. احتجت إلى صندوق جسدها لأضع فيه روحي، علّي أمتزج بشيء من بقايا روحها في هذا الصندوق. حبي لها يفوق أي شيء. جسدها لم يعد لأحد. وأنا أَولى به من النمل والتراب. الآن لو حملتها لأبيها أو لأمها لرفضاه وولّيا منه رعباً. هذه الرائحة النتنة التي تنبعث من جسدها أزكى الروائح على قلبي.

أحببتها منذ كانت طفلة، ولم أقدر على أن أقول لها «أحبك». هذه الكلمة، الصادقة، السهلة، اللينة، لم تغادر فمي. فبعد تلك التحية الصباحية، منعت من زيارتهم، ولم أجدها

منفردة أبداً، لأُسمِعها استغاثة قلبي، من حريق دمره حبها.

نسيت شيئاً مهماً في أداء هذه المهمة. هل تعرفه؟ آه، لا يفيد الندم، نسيتُ إغلاق قبرها. لم أكن أتوقع أن يأتي العم محسن بتلك السرعة، وانشغالي بتجميدها فوّت عليّ إعادة دفتَي قبرها إلى مكانهما. آه لو فعلت ذلك لما وجدتك تقف على رأسي هكذا..

- سأخبرك أمراً..

غرق في صمته قليلاً وتدفّق مرة أخرى كخرطوم عليه أن يضخ بما يكفي لإخماد حريق مستعر:

- ...

- ...

- ...

- ...

الآن هي لي، أنا قبرها وهي قبري. في زيارتي السابقة لها، كان الليل يسير بطيئاً، وأنا أنتظر تفسخ الثلج من على جسدها، جاءني خاطر ... هل تعرف ما هو؟

* * *

توقف عن الحديث وأخذنا ننتبه. ضجيج مهول وطرق نعل وإضاءة منسكبة على موقعنا. ارتبك كثيراً، ووقف حائراً بين الجثة وبيني.

تشجّر الليل عن مردة توالدوا من زوايا المقبرة. جاؤوا كالنمل القارض جثثَ الموتى، يسبقهم دوي يصلنا كتقصُّف

أشجار نخرة جرفها طوفان هائج وسعى إلى اجتثاث ما يصادفه.
كان شفيق يحتضن جثة جليلة بلهفة صائحاً:

- لا تخافي يا حبيبتي.

آآآآآآآآه، لم يكن الوقت كافياً لتدبر الأمر.

(٣٤)

أفقت في المستشفى، ووجدت زوجتي تجاورني بدموعها، ماسحة على رأسي، وهي تتلو المعوذات. ربما كنت أهذي خلال فترة غيبوبتي التي استمرت ليومين.

باقات الورود اصطفت في غرفتي، تحمل بطاقاتها أمنيات باردة بالشفاء العاجل. جميع الأصدقاء عادوني، أثناء غيبوبتي كما أخبرتني زوجتي. تخلى شخص غال عن الوقوف على حالتي. أيمن لم يعد هنا، كنت أعرف أن المطارات البعيدة تغيبه بعد أن حزم حقائبه. ولم يلتفت إلى حنينه الذي يجذبه إلى مرتع صباه، وشبابه. قرر بإرادة حديدية ترك كل شيء خلفه، ومضى مخباً مجيباً نداءات المطارات، لتقله الطائرات إلى مكان، يحقق حلمه في ارتداء روب المحاماة.

قرأت البطاقات المعلقة في بوكيات الورود. كلمات استهلاكية تناثرت كحبات البرد في مدينة ثلجية. وكعادة فواز، ترك جملة قصيرة وباترة، أخذت تهوي في أعماقي وتعيد كل مقولاته:

- أنت ضحية الاجتثاث، تذكر هذا جيداً.

كان شيئاً مروّعاً ما حدث.

غباء عطية أشعل المدينة، وأخرجها من رقدتها، حين تبادل الناس الخبر بواسطة الهواتف المحمولة.

جاءت المدينة مجتمعة، واستقرت على بوابة المقبرة. تنادوا من كل حدب وصوب. ذلك الأحمق المدعو عطية قلب الدنيا. خرج من المقبرة مذهولاً، ومعبأ بطاقة سخط لم يقدر على تبديده إلا بالصراخ، وإخبار كل من يصادفه بما رأى. ذرف خبره في مسامع الحي كأداة ثقب قصرت صراخاته من إيصال فجيعته بتردي النفوس إلى درجة لا تصدق. كان غير قادر على التركيز. يريد إبلاغ الدنيا مجتمعة بهول ما رأى. هاتف هيئة الأمر بالمعروف، الجهة التي يراها الأقدر على تقدير عمق الفساد والفسوق المستشري في البلد. وكمن لم يشبع نهمه، أمسك بكل مارّ بالحي وأخبره:

- مجموعة من الكلاب تضاجع الموتى.

ركض إلى بيت محسن الوهيب، مفجراً باب منزلهم بطرق عنيف، وصارخاً بأهله:

- ابنتكم لم تهرب، الكلب شفيق وضعها في ثلاجة، ويخرجها ليضاجعها وهي ميتة.

لم تشبع الجملة السابقة تهيُّجه، فاستحث اخوتها المصدومين بالخبر:

- ليس هذا وحسب، بل أضاف لمهنته مهنة القوادة، فيجمع من الوافدين مبالغ مالية ليضاجعوها!!

تدفق الناس، كأمواج بحر تائه نسي موقعه، ودخل المدينة من غير معرفة مسبقة بشوارعها الرئيسية، فأغرق كل الجهات. توافد الناس من كل الأزقة، والشوارع الخلفية والرئيسية، محيطين بالمقبرة إحاطة الماء بجزيرة. فانبعث لتجمعهم دوي لا يحدث إلا في الكوارث الكبرى، ضجيج مهول مختلطاً بالاستغفار والتكبير. شيء يشبه حالة هروب مدنيين من جيش غاز، أو أشبه بزلزال حرض المدينة على الهرب إلى الساحات الخالية من العمران، أو كمن أيقن بقيام القيامة، فتحرك للمحشر مختاراً.

كنت مصغياً إليه وهو يروي تفاصيل عشقه لجليلة، حين داهمنا الضجيج فجأة. وأضاءت المقبرة بكشافات من كل جانب، وللمرة الثانية، يرتبك شفيق، منذ أن اكتشفت حالته. خلع فستانها على عجل، وتحير بين ارتداء ثوبه وإعادة جثتها إلى داخل الثلاجة. حزم أمره بخطف جسدها المتخشب وضمه إلى صدره، ورشح الماء يتصبب من مفاصلها، كينبوع سدت منافذ جريانه، فتجمع في طريق مسدود، وطفح يبلل سروال شفيق المخلخل على خاصرته. كانت مرمية بين يديه كالأميرة النائمة، التي نفث ساحر عبقري سحره في أوصالها. وتركها متخشبة تبحث عن قبلة تعيد لها الحياة. ثمة توهان يعصف بمخيلته، فلا يستقر على حال. وكلما اقتربت الجلبة، أبدى ضيقاً، وتبرماً مما يحدث. تبزغ أخيلة من جهات متفرقة من المقبرة. تهبط كخيول فرت من قصوره، مسلطة إضاءات كاشفة باتجاهنا، وأسوار المقبرة لا تمل من توالد بشر يهوون إلى داخلها، وكأنهم فراشات قررت إطلاق أجنحتها للتحليق حول ضوء باهر لإطفائه،

مقدسين المعركة الجهادية المقبلين عليها. وتنادوا مكبرين ومثيرين غباراً كثيفاً علقت ذراته في حزم الأضواء المبثوثة نحونا.

ظل شفيق متشبثاً بالجثة بين يديه:

- علي أن أعيدها إلى داخل الثلاجة، قبل أن يصل العفن إلى بقية جسدها...

جلبة عظيمة تهز كيانه، وأضواء مسلطة من كل جهة تبهر مآقينا، فيهرب بعينيه في حضن الجثة المبلل العاري. تراكض نحونا مجموعة رجال من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخلفهم مجموعة من العسكر، وهم يتصايحون:

- يا كفرة، لم تسلم نساء المسلمين منكم وهن أحياء حتى تتبعوهن موتى.

تأبطني أحدهم بعنف، وجذب مسدسي من يدي. كان عطية يقف بينهم متلذذاً بالمشهد. وحين وجدهم يمسكون بي صاح بهم:

- هذا ضابط شرطة.

كنت مسلوباً تماماً، وعطية يقذف الكلمات عشوائياً، ويشير صوب شفيق:

- هذا هو الكلب الذي يضاجع الموتى، وامتهن القوادة على جثث النساء المؤمنات.

شفيق لم يرتدِ ثوبه بعد. ظل بسرواله المخلخل على خاصرته، فأحاطوا به منتزعين الجثة من بين يديه، فتعرت تماماً وسقطت على الأرض، فانكفأ عليها يسترها بالمئزر الذي سقط

من وسطها. كانت الركلات تصله من كل جهة، فيزداد انكماشاً وتكوماً على الجثة. فصلوه عنها بالجذب، فأمسك بيدها لتنخلع بين يديه. أظنه أصيب بلوثة، كتلك اللوثة التي داهمته حين ألقي به طفلاً بين جثث مهروسة ومقطّعة الأوصال. كان يصرخ ويضم يد جليلة المخلوعة إلى صدره ويقبلها، بينما كانت الصفعات تصله من كل جانب. رققت لحاله، فأسرعت بالوقوف بينهم وبينه:

- هذه قضيتي وأنا أتابعها من زمن.

زجرني أحدهم بغلظة:

- ونحن تلقينا بلاغاً، ووقفنا على الحالة بأنفسنا، فاتبعْنا إن شئت.

دفعوني من أمامهم، وتحركوا يطوقونه من كل جهة. حاولت إيقافهم، فتدافعوني حتى خرجت من دائرتهم. تهاوى بين أيديهم، فسحلوه، وأوقفوه على بوابة المقبرة التي أغلقت بأجساد غفيرة من البشر. ساعتها تخلت الأحذية عن أقدام أصحابها، واستقرت على هامة شفيق وكتفه، وظهره. وكلما تملص من ضربة خاطفة، وقع ضحيّة عشرات الصفعات المركزة. حرص على يد جليلة المخلوعة، فخبأها في صدره وضم يديه عليها، وحزمهن خشية أن تضيع منه. حاول الالتفات نحوي فلم يقدر، فقلب وضعه، وسار معكوساً صائحا بي:

- أعدها إلى الثلاجة قبل أن تتعفن...

(٣٥)

ارتمى جسدها المزرق من غير استواء، على أرضية الغرفة الغارقة في نصف ظلمتها، يجاورها فستانها المخلوع، وتنقصها يد مخلوعة أيضاً. ألقيت على عريها فستانها الذي ارتدته للحظات، وتبعتهم بآلية، جمع غفير يقف خارج المقبرة يجأرون بتشنج:

- أقتلوه...

وقفت صفوف متراصة أمام بوابة المقبرة، مانعة تقدم شفيق ورجال الهيئة، والأحاديث تتطاير من أفواه المجتمعين:

«مجموعة من السقّط يضاجعون الموتى».

«لم يجدوا إلاّ جسد هذه الطاهرة كي يمارسوا حيوانيتهم».

«سنة كاملة يضاجعونها».

«أراد اللّه أن يفضحهم، فحملت وهي ميتة. صراخ ابنها كان الخيط الذي دلّ عليها. مسكين ابنها، تركوه إلى جوار جثتها!!».

«صَدَقَ خليل الليموني حين قال إنه رأى في ليل دفنها، ملاكاً ينزل من السماء، ويحملها على ظهره، ويغيب بها في السماوات العليا، وأبقى لهذا القواد جثة نتنة!!».

* * *

أقاويل لا حصر لها، تتقاذفها الأفواه كما تتقاذف غضبها، كفوهات براكين ملت من ركودها الطويل، فثارت على غير وجهة.

تدافعت مجموعة هائلة من البشر، للوصول إليه. الكل يريد اختطاف جسده. محسن وأبناؤه يتضورون كأسود جائعة. كنت ألمح شفيق، في بؤرة تلك الأيدي الباحثة عنه، زائغ البصر يتلقى الصفعات، والبصاق، ويحاول الاحتماء بانحناءة لم تسعفه من تلقي الركل، والصفعات، والخمش. كان حريصاً على احتضان يدها المقطوعة بيديه اللتين تصلبتا في مكانهما تاركاً جسداً فارعاً يتلقى الهجمات، من غير أسلحة دفاع تصون هيبته. استطاع زهير الوهيب الوصول إليه، فقطف أذنه اليمنى، وهو يزأر بضراوة:

- هذه أذنه... لا بد من تقطيعه حياً.

فالتقت صرختان: صرخة تشفٍّ، وصرخة ألم.

وتخطفت جسده الأيدي الضارية، بدأ لون الدم يميز موقعه، رميت جسدي بينهم، صائحاً:

- هذه قضيتي، ويجب أن أقود المتهم إلى مركز الشرطة.

كان صوتاً واهناً في ذلك الهدير من الأصوات. تزاحمي معهم، ومحاولة الوصول إليه لتخليصه من بين أيديهم، مكن محسن الوهيب من رفع صوته الجهوري عالياً:

- أنت من تستر عليه!

حدثت همهمة صاخبة، فجرفتني موجة عاتية من الأيدي. حشروني بينهم كعلبة رديئة التصنيع، عليهم إعطابها وإعادتها لخامتها الأولى، قبل فوات الأوان. أحسست بالاختناق. في البدء ركلتني الأقدام.، ثم سحقوني أسفلهم. كنت أسمع خشخشة عظامي، وتقصُّف أضلعي تحت أقدام، تخلت عن أحذيتها، وتفرغت لهرسي. غاب صوتي، وبقيت أذناي متسعتين لسماع صرخات الظفر التي علت على صيحات الألم.

آخر صوت سمعته واضحاً كان صوت عطية وهو يصيح بصوت مرتفع:

- تنبّهوا! هذا ضابط شرطة!

دوار عنيف يلفني، فتدور الدنيا: ضجيج، وصياح، وسحق، ووجوه تتميز بغيظها، تتقلب في أنصاف دوائر، وهرس أقدام لجسد ملقى، والتحام نفذت منه يد ناعمة خلعت من جسدها للتو، تفسخت فجأة، معلنة عن موتها برائحة نتنة، فتفور الدنيا بعاصفة من الضجيج، وأسقط في دوامتها. دوار، دوار عاصف، وأنجذب إلى القاع. ألمح الأوراق تتطاير، وفواز يقهقه، وأيمن يعيش في مدينة تبعد آلاف الأميال، يمتهن الغربة

ويتدرب على حياة جديدة. والعميد إبراهيم العامر يفكر كيف يعيد صياغة محضر ناقص متهماً إياي بالتقصير. ورسالة ساخرة وصلت متأخرةً جداً تقول: أنت محقق فاشل. أعضاء الموتى لا تصلح لشيء بعد موتها. لم أشأ أن أصدمك باعتدادك بنفسك، هذه هي الحقيقة... ها هو سلمان الغلف يقتصّ من كل الذين سخروا منه داخل الجامعة ليلاحقني بسخرية متأخرة.

ضجيج وهمهمة يواصلان نشر قحف جمجمتي، وفواز يمسك بالمنشار مقهقهاً، فتفر كل الفتيات الهاربات من مخيلتي وهن يبصقن أسفل أقدامهن. ومن بقيت منهن داخل سجنها، تتدبر طريقة للخروج بنشر أطراف حديد نافذتها، وجليلة تقف أمام رجل الهيئة متوسلة. ومحمود يتلقى كماً هائلا من الرصاص يخرم صدره قبل أن يحقق أمنيته بإسقاط الطواغيت داخل العراق وخارجه. وزوجتي تلوح بيدها، ويد جليلة أكملت الأقدام تشويهها بهرسها لتجاورني نتفة من نتانة جسدها. والشجرة المباركة تفر من بين أغصانها عصافير ملونة. وعاشق وقاتل يتقاسمان المواقع بالقرعة، أحدهما يعيش والآخر تجز رقبته. وجليلة تعود بفضيحة غير مباركة... جليلتان: إحداهما جزت رقبتها بغير استواء، وأخرى خلعت يدها وهُرست تحت الأقدام. وزهير يمضغ أذن شفيق بتشفٍّ قبل أن يسحبه الشيك إلى داخل السجن. ومحسن الوهيب يصيح بصوت اختلطت نشوته بحنقه: كانت واللّه طاهرة. وحمق عطية يسيل كحبيبات بارود نُثر بنية التفجير. وشفيق يْغيب في بحر من الدماء، يتلاشى هناك كنقطة ابتعدت بإبحارها، ولم يعد يسمع نفيرها، وقرار المحكمة يعلق بالقرب من أهدابي: حكمنا بقتله تعزيراً. وتلك الجثة التي لم

يحسن القصاص قص رقبتها، تتأرجح بين يدي طفل، فأمسك بشعرها لتستقيم على جسدها. لمحت شفيق ينحدر كسيل دم، ويتدفق لمجاورة أسرته التي اختارها من بين القبور المتناثرة، فتنهض لاستقباله بتوسيع مواقعها. وجليلة تنهض من موتها خاسرة يداً خلعت، تذكرها بعاشق لم يرتض بعشيقة سواها، فاسترخت على أريكتها، مرتدية فستانها الجديد منتظرة عودة عاشق، ومتزينة برائحتها النتنة، منتظرة جزعة من عجزها عن فتح الباب، لتستقبله كما فعل مع كل الموتى... وتغرق في حسرتها: كيف لها أن تضم عاشقاً بيد واحدة..

دوار يدور بي في كل أرجاء الدنيا، دوار عنيف واستغاثات واهنة لاتصل إلى تلك الأجساد الباحثة لأقدامها عن موضع جسدي، وصوت سيارة الإسعاف يلوب داخل المدينة، ولغة عربية مكسرة تتحطم فوق رأسي:

- لا يزال حياً.

سواد يكتنف المحيط الذي تجول فيه عيناي، وأنين منخفض، وأدعية ويد حانية تلامس شعري. لمحت وجهها باكياً، وشعرها الكستنائي يتموج على جبينها، وعيناها مغروستين في وجهي:

- خالد!

- ...

- أفق يا حبيبي...

كان شعرها كستنائياً، تبقت منه شعرات في لفافة الكفن.

حين حملها بين ذراعيه تموج شعرها لأسفل قامته، شيء منه تسلل للآخرة...

- حبيبي، انهض.

كان جسدي مهشماً، كسور مضاعفة استقرت بالترقوة، والقفص الصدري، والحوض، وعظمة الفخذ اليمنى، والكاحل الأيسر، ورضوض عميقة في الصدر، والوجه، والخاصرتين. يبدو أني استلقيت على ظهري تماماً، فيما كانت الأقدام تسلط بعضها بعضاً لوطء جسد لم يكن منتصباً ذات يوم. فأرادت أن تسويه بالأرض، وتفرد قامته كما يجب. زوجتي تحوطني بذراعيها، فينتشر شذاها ويستقر في قحف جمجمتي. وجليلة مقذوفة هناك، تنتظر من غير استواء، وقد أودعت يدها لعاشق عله يعود، وشيء من رائحة عفونتها يسري بين أزقة ذلك الحي الذي ألف استنشاق روائح الموتى.

كانت في رقدتها غبر المستوية، كانت تنتظره محاولة التغلب على حسرة أن تضمه بيد واحدة!!

انتهت

آذار/ مارس ٢٠٠٥

قالوا إنها هربت من قبرها!

... منذ كانت صغيرة تتحرَّش بالرجال، وتطفح ملامحها بسعادة الدنيا حينما يحملها رجل بين يديه.

تقدّم لخطبتها عشرات الشبان، ورفض أبوها تزويجها. ربّما كان يخشى أن يُفتضح أمر ابنته، ويعرف القاصي والداني أنها فقدت عذريتها، ويلحقه عارها.

... وبعدما فاحت «رائحتها»، أقامت أمّها حظراً صارماً على دخولها وخروجها... لكنها كانت دائماً قادرة على خداع الجميع: كانت تضع في سريرها وسائد تغطيها جيداً، وتنسلّ بعد منتصف الليل إلى عشّاقها الكثر... تُغويهم، وتقضي الليل معهم.



